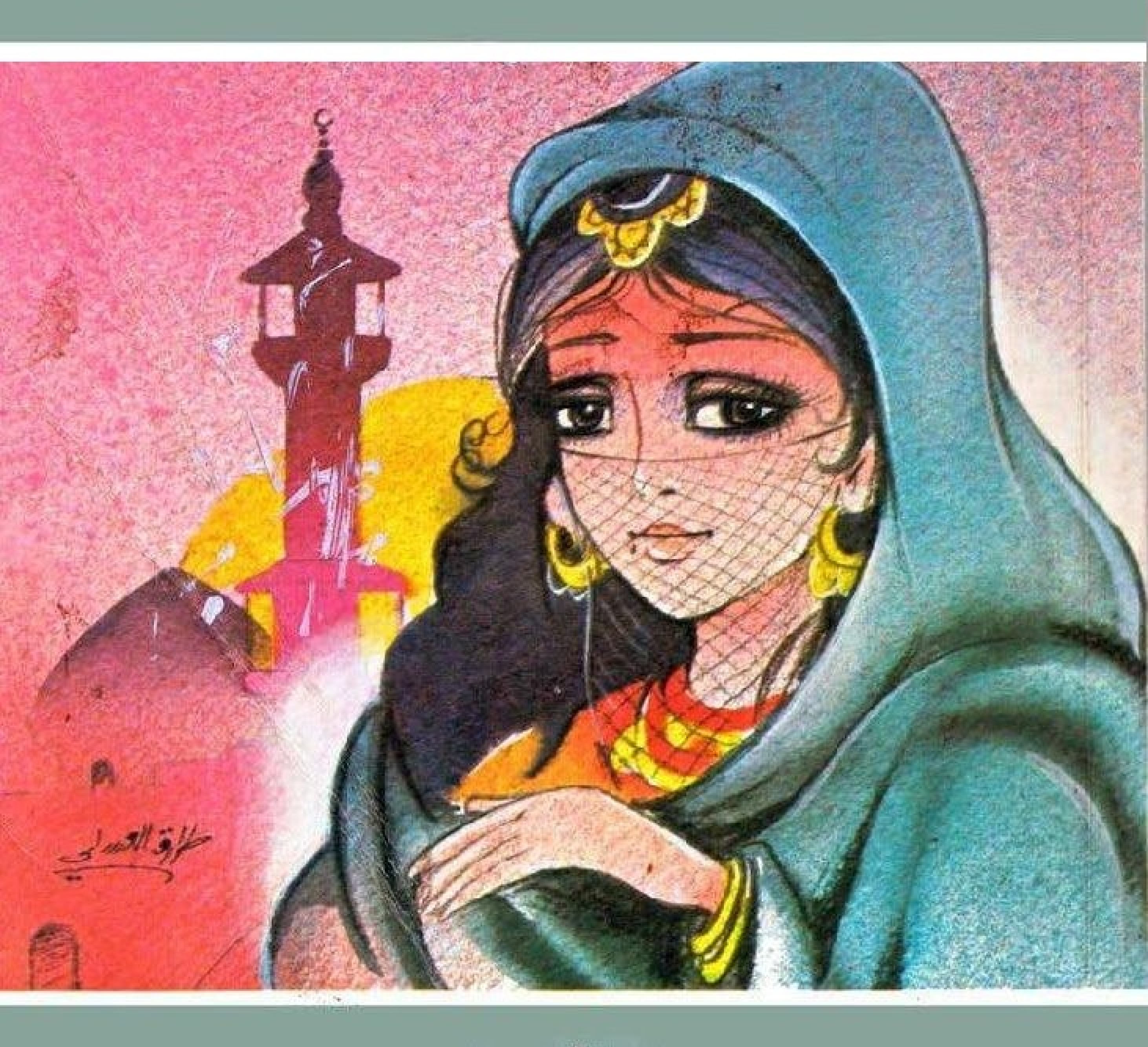
روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

اليتيمة الساحرة (٢)



دار الأندلس

روايات تاريخ العرب والإسلام

أميل حبشي الأشقر



الجزء الثاني

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

ودع طارق حبيبته ، ووعدها بأنه سيمزق باهتمامه وسعيه ، ذلك الحجاب الذي سدلته الاقدار على ذلك السر. وكانت ساعة التوديع،ساعة مؤلمة، خرجت فيها اليتيمة عن هدوئها واستسلمت الى البكاء استسلاماً جاوز الحـد . ثم رأت ان هذا الضعف يكاد يفضحها ، وقد يمنعهـــا من المضي في الامر الخطير الذي فكرت فيه .

فتجلدت ، وسألته ان ينصرف وهي تتمتم قائلة : اذكر هذه . . الساعة ايها . . الحبيب ولا . . تنس .

وكانت قوى الفتى قد خارت ، فمشى متثاقلاً وهو يلتفت الى الوراء حتى حجبت الجدر يتيمته عن عينيه. ولم يفكر عندئذ في مغزى تلك الكلمة الأخيرة التي قالتها له .

بلى ، كان يقول في نفسه : لقد سألتني ان اذكر ساعة التوديـع لأتعجل في الرجوع . ولم يعلم ان لكلمتها مغزى آخر هو أبعد مما خطر له .

وكان سنان يومئذ في مرو ، فدعته اليها قـــائلة : الحق بطارق حتى يخرج من المدينة .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ ترجع اليّ فانا بحاجة اليك .

فسار الرجل ، ثم عاد بعد ساعة وهو يقول : خرج طارق راكباً ووراءه اربعة من الفرسان .

قالت : اجلس واخفض صوتك اذا تكلمت !

فجلس وهو ينظر اليها نظرات الاستغراب .

ثم جلست هي بالقرب منه وجعلت تقول :

لا تستغرب ما تسمع فانا قد عولت على الرحيل من هذا البلد ، الى مكان آخر بعيد لا تقع علي فيه العيون !

فذعر قائلاً : انت يا مولاتي ؟

– نعم انا ! وأرجو أن تتهيأ للرحيل في الهزيع الثاني من هذا الليل .

– ولكن ألا تذكرين لي سبب رحيلك ؟

– اذكر لك سبباً واحداً هو ان غيبة أبي عن مرو خلقت الظنون في صدر الاحنف وصدر عبدالله ..

– واي شأن لك بهذا ؟

فهزت رأسها قائلة : شأني انهم يتهمون مولاك ..

– بماذا ؟

– بأنه من انصار يزدجرد الذين يخونون المسلمين !

– ومن قال لك ذلك ؟

فترددت قليلاً ثم قالت : الاحنف نفسه ..

– ليقل مـــا يشاء فليس في الأمر ما يدعو الى الخروج من مرو كما يخرج المجرمون .

قالت : لا تحدثني بمثل هذا فأنا قد عولت على الرحيل وانتهى الامر .

– واذا عاد مولاي غداً ؟

– نعود عندئذ الى مرو ويرفع أبي رأسه قائلاً : كنت ولم أزل من المخلصين للاسلام ..

– وان لم يعد ؟

– احمل شقائي العمر كله، ثم اموت دون ان يحزن علي نسيب او يشعر بي أحد !

– ولكن طارقاً لا يرضى بهذا وقد ينتهي به الأمر الى الموت .

– لقد ذهب الآن وسيرجع الى مرو بعد بضعة عشر يوماً فلا يرى منا أحداً ولا يعرف البلد الذي لجأنا اليه .

قال : بعثه الاحنف في مهمة ؟

– بل بعثت به انا ليبحث عن ابي في النواحي التي نزل فيها الملك قبل موته .

– فعلت ذلك يا مولاي ليخلو لك الجو ؟

– نعم ولو كان طارقاً هنا لما استطعت ان انقل من مرو قدماً .

قال : انصح لك بان تبقي ريثما نتبين الأمر .

– اقسمت اني لا امكث بمرو يوماً واحداً بعد خروج طـــارق وسأبر في قسمي .

اذهب وتهيأ كما قلت لك .

قال : اخشي ان يقتلك هذا الرجل ويقتل طارقاً . .

– لا خير في الحياة مع ذل التهمة . .

– يكفي ان يكون طارقاً مؤمناً بوفاء مولاي ووفاء ابنته .

– اما انا فلا اطيق ان ينظر اليّ الاحنف بن قيس واخوه عبد الله ، نظرة الاستخفاف والازدراء وأنا اشد منهما إخلاصاً .

– وكيف نرحل ونحن لا نملك شيئاً من المال .

فابتسمت قائلة : المال كثير ، وهو في منزلنا على الشاطىء ، وسنحمله الى حيث تدفعنا الاقدار .

– وترحل غمرة معنا ؟

– نعم فأنا لا اتخلى عن المرأة التي أحسنت اليّ .

– والعبدان ، وذلك الفارسي الذي يدعى طرخان ؟

– اما العبدان فهما منا ونحن لا نتركهما ، واما الضيف الفارسي فسنجود عليه ببعض مالنا وليذهب الى حيث يشاء .

– بقي ان ننظر في امر البلد الذي نسير اليه .

– الرأي في ذلك لك فانا لا اعلم الى اين نمضي .. ثم قات : اين يقيم قومك بنو سليم ؟

– بنو سليم فروع ثلاثة ، احدهـــا في اطراف البصرة ، من ناحية الخليج والثاني يقيم بالبادية التي يقال لها بادية الكوفة ، والآخر على شاطىء الفرات الذي يجاور الحيرة وكل واحد منها له منزلته في القوم .

– واي فرع اكثر بعداً ؟

– ذلك الذي ينزل على الخليج .

– اذن فالرأي ان ننضم اليه .

قال : كنت فقيراً في قومي ولا ولد لي ، فاذا رأوني غداً ومعي فتاة تخلب ألباب الفتيان ، وعبدان يقومان بالخدمة دب الريب في الصدور .

فأطرقت ملياً ثم قالت :

سألبس في هذا الليل ثياب الفتيان ولا اخلعها الا بعد ان يجتمع الشمل او يخيب الرجاء . . وارسل ضفائري على كتفيَّ كما يرسلها شباب العرب ، فيظن الناس عندئذ اني فتى فتاة !

– واذا سألوني عن هذا الفتى الذي يرون ؟

– تقول لهم انه ابن مولاك الفارسي ، الذي اعتنق الاسلام قبل ان يموت في حرب خراسان والعبدان ملك له .

– ولكن لا تنسى ان هنالك أمراً يفضح السر الذي نكتمهم إياه .

– وما هو هذا الامر ؟

– هو ان فتيان العرب جميعهم فتيان حرب وانت لا تحسنين حمل السيف بل لا تستطيعين ان تحمليه . .

– تقول لقومك ان ابي لا يعلمني فن القتال ، وتختـــار عندئذ رجلاً منهم يعلمني اياه ، وانا ارغب في ذلك !

– واذا استعرت نار الحرب بعد ذلك وندب لها بنو سليم ؟

– احمل سيفي واخرج معهم لأجرب الفن الذي تعلمت !

– اذن لنبدأ منذ الان بما ترين . . ما اسمك يا مولاي ؟

– ربيعة .

– واسم ابيك ؟

– شروان الفارسي !

– وفي اي بلد قتل ؟

– في نيسابور ولا تنس انه كان من عظماء القوم . . وقد دخل في الاسلام قبل ان اخرج الى الوجود ! أفهمت الان ؟

– نعم وسأنقل الى غمرة والعبدين ما سمعت لكي يحفظوه . . ولكن ارجو بعد كل هذا ان تعدلي عن الرحيل . .

واومأت اليه بالانصراف وهي تقول : عندما نمسي في الهزيع الثاني من الليل نترك مرو .. اسمع ما اقوله لك ولا تتردد في الطاعة.

وعمدت عندئذ الى جراب لها فاخرجت منه قطعة مستطيلة من العاج ، وكتبت الى طارق سطوراً قليلة ، املاها عليها الشقاء في الحب . .

ثم جعلتها داخل قطعة من الديباج ودفعتها الى جاريتها قائلة : تسلمينها الى طارق بن عبد الله عندما يعود واحذري ان يراها احد قبل رجوعه . .

وانصرفت الى حجرة ام عامر ، وجعلت تذكر لها احسانها ، وتحلف لها انها لن تنسى الجميل والعناية اللذين احاطتها بهما . وام عامر لا تفهم مني ذلك الاعتراف ، ولا يخطر لها ان معناه القيام بواجب التوديع . .

* * *

- ٦٠ -

لم يذرف خراذمهر ، صاحب جبل الزهاد ، دمعة على يزدجرد ولم يشعر بذلك الحزن الذي يشعر به العبد الامين بعد موت سيده . إن يزدجرد اساء اليه والى رفاقه القواد ، باستسلامه الى رأي اعدائه ، واستخفافه باراء المخلصين له . . وكانت عاقبة ذلك الاستخفاف ، الموت خنقاً كما رأيت . وقد عول صاحب الجبل ، على قضاء عمره في جبله، راضياً بما قسمت له الاقدار ، من عيش رغيد ، وحياة هادئة .

وفي اي شيء يطمع بعد ان رأى ما رآه ؟ أفي استرجاع العرش وقد قتل يزدجرد، ام في طود العرب، وحصون فارس لم يبق غير انقاضها، وجيش الفرس مهدم وسيفه مفلول ؟ !

واي فتى ترفعه فارس الى عرشها وتعصب جبينه بتاج ملوكها ، وليس في سلالة كسرى من يصلح للامر، بل ليس فيها من يجسر على الظهور. خير للامراء

الذين أبقت عليهم الحروب في بلاد الفرس، ان يرضوا بحكم الفاتح العربي، ويلجأوا الى الطاعة التي لا تردد فيها ولا رياء . ذلك مـا كان خراذمهر يفكر فيه ، بل كان يفكر، في ان يلقي سيفه عند قدمي عامل المروين الظافر، ويظهر له خضوعه بنبالة وشرف ، ثم يعود الى جبله ليعيش مطمئناً في ظل ذلك الخضوع . وبينا هو يهم بالذهاب ليمثل بين يدي الاحنف ، بلغه ان سنجان قد قتل ، وان الاحنف لا يطيب له ان يبقي على الامراء الذين كانوا أنصاراً ليزدجرد ، والذين رافقوه، والسيوف في الأيدي، الى مرو الشاهجان . فقال في نفسه : الصبر خير من التعجل في الامر .

وقد خاف ان ينتهي به مثوله بين يدي الفاتح ، الى الهلاك .

ثم ذكر برسي اسير سنجان ، ذلك الخصي المسكين الذي وضعه في قفص كما يوضع الحيوان ، وطاب له ان يدعوه اليه وينظر في أمر خيانته التي وصفها له سنجان وهو في الجيش . فأمر غلمانه بأن يحملوه اليه ، ففعلوا ، وبرسي لا يعلم شيئاً من أمر سنجان وامر الملك . وكان يسأل حراسه عمـا انتهى اليه امر يزدجر، ولكنه لم يسمع لسؤاله جواباً، فقد منع خراذمهر الحراس من ان يقولوا له كلمة .

فلما حمل الى قاعة الجلوس ، في الحصن ، رأى خراذمهر رجلاً واهي القوى، وقـد رثّ الثوب الذي يلبسه حتى كاد يبلى . فقال لمن حوله : أليس في جبل الزهاد ثوب تعطونه إياه ؟

فاجابه برسي قائلاً : لا ينزع هذا الثوب وأنا حي !
– ولكن يد البلى ستنزعه على رغمك .
– خير لي ان يسلبني البلى إياه من ان تمتد اليه يد بشري !
قال : يظهر ان لهذا الثوب سراً لا تبوح به لأحد .

– بل أبوح به لكل الناس .. انه الثوب الذي يغذي حقدي على يزدجرد الذي ألبسني إياه ..

قال : يجب ان يموت حقدك فيزدجرد قد مات .

قال: اتهزأ بي ياخراذمهر وقد كنت في البلاط اعظم شأناً منك ومن رفاقك؟
– وهـل يقوم في ذهنك اني اهزأ بمثل هذا ؟ أفلا ترى اني رجعت من مرو وأقمت بهذا الحصن على ان لا اخرج منه بعد موت الملك ؟
فجعل ينظر الى من حوله ثم قال : اتقسم لي ؟
– اجل !
– وهل مات حتف أنفه ؟
– بل مات خنقاً بوتر وحمل ماء المرغاب جثته الى فوهة الزريق .
فتنهد قائلاً : لقد سلمت فارس فالحمد لله ..
قال : أعطوه ثوباً يلبسه في هذا العيد ..
قال : نعم ان موت الملك عيد في نظر رجاله المظلومين الذين جعل أقفاص الحديد منازل لهم .. أين هو الثوب ؟
فحملوه اليه فقال : دلوني على موضع أخلع فيه هذا .

فتقدمه حارسه الى حجرة تجاور قاعة المجلس ثم دفعه اليها ، وأغلق بابهـــا وجعل ينظر من ثقب فيه ، الى الداخل . فلمــا لبس برسي ثوبه الجديد . وضع الرق في حزامه كما كان ، والحارس يراه ، ثم خرج قائلاً : اجعلوا ثوبي البالي أثراً خالداً من آثار يزدجرد . ورجع الى القاعة وهو يبتسم ابتسامة الظفر .
فقال خراذمهر : والآن فاني اسألك .. قال : هات !
– في أي شيء استحققت هذا الجزاء من الملك ؟
– وكيف تسألني عن امر تعرفه انت كما يعرفه سواك ؟
– كان سنجان يقول انك من الخونة وانا لا أعلم بماذا .
– وأين هو سنجان اليوم ؟
– قتله عامل المروين في ساحة مرو الروذ .
فبرقت عيناه قائلاً : اذن فقد انتهى الامر وظفر المسلمون .
ثم رفع رأسه وجعل يقول : أأسير انا ام حرّ ؟
– انك أسير الآن وقد تمسي حراً .
قال : أنصح لك بأن تصالح المسلمين وتخضع لهم .

– وأي شأن لك بهذا وأنا لا احدثك به ؟
– لي من وراء ذلك غايتان : احداهما اني لا اريد ان تخسر حياتك .
– والغاية الأخرى ؟
– اما الاخرى فهي اني مسلم ، فاذا خطر لك بعد ان استقام الامر بالإسلام أن تسيء اليّ ، كان جزاؤك جزاء سنجان نفسه ..

فدهش القائد وقال : مسلم ...! وقد كنت خصياً من خصيان البلاط الفارسي ؟!

– اجل ، ولولا اسلامي لما جعلني يزدجرد وسنجان اسيراً في قفص .
قال : خرجت من وادي خواست رسولاً اميناً ليزدجرد ..
– ولكني رجعت وانا مؤمن بالله الذي لا إله إلا هو ..

وقصّ عليه عندئذ حكاية اسلامه ولم يبح له بسر الرسالة التي حملها من شهريار إلى ابنته .
قال : وكان شهريار مسلماً ؟
– نعم واني لأعجب لأمر ..
– ما هو ؟
– هو انك كنت من انصار الملك وكان الملك يبوح بأسراره لاولئك الانصار .

قال : أخبرنا الملك أن شهريار كان خائناً كما كنت انت ولم يذكر لنا شيئاً آخر . انه كان يكره ان يتحدث بالاسلام ، وهو بين قواده ، ولم يكن من رأيه على ما يظهر أن يقول للناس ان خصيانه يتركون دين آبائهم ليعتنقوا دين العرب الفاتحين .

قال : لقد عرفت الآن ما لم تعرفه بالامس فماذا ترى ؟
– ارى ان تحدثنا بأمر الرسالة التي اعطاك اياها يزدجرد .
– انها رسالة دفعها الي شهريار ، بأمر يزدجرد ، لأحملها الى ابنته وهذا كل ما أعلم فلا تسألني عن شيء آخر .

– أتعرف الاحنف ؟

– لا أعرف من امراء العرب غير زياد المازني نائب الاحنف في مرو .

– وماذا تصنع يا برسي اذا جعلناك حراً ؟

– اخرج من هذا الجبل الى مرو الشاهجان ، ثم انتقل منها إلى مرو الروذ حاملاً الى امرائها خبر موت شهريار ، ثم انصرف بعد ذلك الى حيث لا اعلم .

– وهـل تظن ان الاحنف لم يخبر القوم بمقتل شهريار ، قبل ان يحكموا عليه بالموت ؟

– هب انه فعل ذلك فلا بد لي من الذهاب .

فقال الحارس : يظهر ان معه شيئاً يحمله الى القوم .

– وماذا يحمل اليهم وهو لا يملك غير ثوبه ؟

– رأيت ذلك الشيء في يده يا مولاي ثم خيل الي انه يضعه في حزامه .

– ماذا تحمل يا برسي ؟

فآثر الرجل الاعتراف بالرضى،على ان ينتزعوا ما يحمله بقوة الرجال، فقال: احمل وصية شهريار التي كتبها في خيمة يزدجرد .

– وتسلمها الى ابنته التي ذكرت ؟

– اسلمها الى الاحنف نفسه .

– وهل قرأتها انت ؟

– ليس لي ان اقرأها فقد امرني المسكين قبل موته بأن لا افعل .

– واذا امرناك ان تسلمها الينا ؟

– لا تؤخذ الوصية مني الا اذا قتلت !

فاطرق خراذمهر قليلاً ثم قال : اما نحن فلا نريد ان نأخذها بالقوة .. انها لك وستدفعها الى من تشاء بعد خروجك من جبل الزهاد .

ثم قال لرجاله : اجعلوا برسي في احدى حجرات الحصن فهو ضيفنا ..

قال أرجو من الامير ان يأذن لي في الانصراف فذلك خيرٌ لي .

– بل تبقى الآن فقد يكون الامير رفيقاً لك الى مرو الروذ .

قال : انك تمزح، فالقوم أعداؤك وانت لا تريد ان تزور الاعداء .
– لقد كانوا اعداءنا والملك حي ، اما الآن فلم يبق الا أن نخضع حقناً لدماء اهل فارس .. انصرف الآن وسندعوك في وقت آخر .

فمشى وراء حارسه وهو يقول: اشكر لك يا خراذمهر هذا الاحسان وسترى اني لا انساه ..

فقال القائد لمن حوله : ليس من الرأي ان نغضب برسي ، فهو اذا غضب غضبت العرب !

فأجابه احد رجاله قائلاً : كان عليك ان تقرأ وصيته فقد يكون ما نكره.
فانتهره قائلاً : وماذا تفعل اذا كان في الوصية مـا تكرهه فارس ؟ اتحمل سيفك لتدافع عن قومك وقد رأيت ما رأيت ؟ ان الرأي أن نضع ايدينا في يد الفاتح فقد انتهى امر فارس اليوم . وقــام فخرج ليرى بعينيه حجرة ضيفه الجديد ... ويمهد له سبل الراحة في ذلك الحصن .. والحكمة وحدهـا هي التي أملت عليه ان يفعل ما فعل .

* * *

– ٦١ –

ذعر ماهويه عندما بلغه ان طارقــاً ابن عبدالله انتهى الى قصر الامارة وهو يسأل عنه وكان طارقاً يريد ان يتعجل في امره ، ليعود الى مرو الروذ ويرى حبيبته التي جارت عليها الاقدار وهي في ظله . فلما ابصر ماهويه قال له : لي حاجة أتيت لأسألك قضاءها باسم الاحنف ..

قال : الاحنف يأمر ولا يسأل .. اذكر حاجتك أيها الامير .
قال : أعرفت جميع الرجال الذين كانوا أركاناً لحرب يزدجرد يوم قدم مرو؟
– أجل ، واني لأعدهم الآن دون ان أنسى احداً ..
– وكان شهريار معهم ؟

– لو كان معهم لذكرت ذلك لعمك يوم أمر بقتل سنجان .. ألم ينقل اليك الناس خبراً عنه ؟

– لم نسمع شيئاً فكأن شهريار لم يكن في الوجود .
قال أخشى ان يصدق القول الذي قلته لكم وانا في مرو .
– لقد نسيت ما قلت .
– خيل اليّ في ذلك اليوم ان يزدجرد قتل شهريار وبرسي بسعاية سنجان نفسه .
– لقد ذكرت الآن ولكن لا اظن انه قتلها ..
– وماذا تريد الآن ؟
– اريد ان اعرف مقر شهريار وارجو ان تعلم اني لا اعود الى مرو الا اذا عرفت ذلك !

فوضع يده على جبينه ثم قال : ومن يعلم مقر الرجل بعد هذه الغيبة التي طالت أيامها ؟

قال : يعرفه اولئك القواد الذين رافقوا الملك ثم أمرهم بطلب منك ..
فاشرق جبينه قائلا : أصبت فهؤلاء يعلمون ما لا نعلم ... وجعل يعدّهم واحداً واحداً ويقول : فرخزاذ . قائد الرهائن .. وهذا في ديار قومه في اقصى خراسان فلا نستطيع الوصول اليه الا بعد شهر ... وسنجان قد مات ولا خير فيه ولو كان حياً ... ولكن بقي خراذمهر .. وهذا يقيم بجبل الزهاد والجبل قريب من مرو ... نعم خراذمهر .. انه يطلعنا على كل شيء اذا اراد .. أتريد ان تذهب الى الجبل لتراه ؟

– بل اذهب الى اقاصي الهند والصين اذا كان في ذلك بلوغ الغاية .
– ولكن الرجل من أتباع الملك وقد يؤثر الموت على ان يبوح بما يعلم .
قال : أتراه يستطيع ان يشهر الحرب من اجل ملكه الذي قتل ؟

– قد لا يستطيع ذلك فرجاله لا يجاوزون الالف ، ولكن الاخلاص يفعل العجائب فهو اذا اراد ان يكتمنا سر شهريار كتمنا إياه ولو خسر حياته .
– وهل تظن انه رأى شهريار عند يزدجرد ؟

– بل انا واثق بهذا لأن شهريار كان في وادي خواست كما قال برسي ، وخراذمهر لم يفارق الملك الا في مرو .

– اذن نسير غداً ويفعل الله ما يشاء .

– وتتبعنا قطعة من الجيش الى الجبل ؟

– لا يتبعنا غير رجالي الاربعة القائمين الآن بالرواق .

– وكيف تدخل ارض عدوك وليس حولك من يدافع عنك .

– لم يبق بعد مقتل الملك ارض يسمونها ارض العدو !! ان بلاد فارس كلها للفاتح واذا طاب لخراذمهر ان يخرج من جديد عن الطاعة ، ملأنا جبله رجالاً وعلمناه بقوة السيف ، ان يطيع ..

قال : لم يبق اذن ، الا ان نضرب موعداً لجيش مرو .

فسأله طارق عن ذلك الموعد فقال : ستسمع الآن كل شيء . ونادى حاجبه قائلاً : علي ببراز .

فأقبل ولده براز ، فقال له : سنترك مرو غداً الى جبل الزهاد ، فاذا مرت عشرة ايام ولم نرجع فابعث بالجيش كله الى ذلك الحقل وكن أنت على رأسه أفهمت؟

– فهمت كل شيء يا مولاي .

فقال طارق: احسنت فتلك هي حكمة القواد وبات القوم ليلتهم، ثم خرجوا عند الصباح يريدون الجبل القائم في منتهى الافق ، وكان قلب طارق مضطرباً وهو يحدثه بان القدر سيكون عدواً له ..

وكان خراذمهر يجالس برسي كل يوم ، ويعده بان يرافقه الى مرو بعد ان تمر الايام وينسى الاحنف يزدجرد . وبرمي يلح في طلب الذهاب ، وقد ضمن له رضى الاحنف وسكوته عما مضى حتى كان اليوم الذي اقبل فيه طارق وماهويه صاحب مرو الشاهجان ، احد الرجلين اللذين يستأذنان في الدخول .

فخف لاستقباله وهو يهش له ولرفيقه، وقام في ذهنه انه رسول الاحنف وهو لم يجيء الا لأمر .

وجعل يتفرس في طارق وقد ايقن بأنه من امراء العرب .

رأى بدهائه ، ان يبدأ بذكر الماضي ، ليفاجىء الاثنين بأخبار خضوعه بعد موت الملك ، قبل ان يحدثاه بأمر الخضوع .

فقال : كنا ايها الامير منذ زمن قليل عدوين احدنا يناصر العرب والآخر يناصر يزدجرد ..!

فقال ماهويه : والآن ؟

– اما الآنفقد اضمحلت هذه العداوة وقام مقامها ولاء لا يزول بزوال العمر

فنظر صاحب مرو الى طارق قائلاً : اسمعت ايها الامير.. ان خراذمهر الذي كان قائداً من قواد الملك يسبق الناس جميعهم الى الطاعة ؟!

وقال لخراذمهر : انه طارق ابن الامير عبدالله شقيق الاحنف بن قيس والي المروين ، وسيد الميادين .

فانحنى الرجل وتمتم قائلاً : لم اعرف الاحنف ولكني سمعتُ انه اعظم الامراء هيبة في خراسان وأبعدهم اثراً .. ثم قال : ما هي الغاية من مجيء الامير طارق الى جبل الزهاد ؟

– امره عمه بأن يطوف في البلاد ويتبين عن كثب خضوع الامراء الذين كانوا من رجال يزدجرد !

قال : انا اول من يظهر الطاعة للعرب، وكنت أهم بالذهاب الى مرو لأمثل بين يدي اميرها ، مع خصي غضب عليه يزدجرد قبـل موته وأمر به فجعل في قفص من حديد .

فارتجفت شفتا طارق وقال : وماذا يدعى هذا الخصي ؟

– برسي .

فقـال ماهوية : لقد عهد الاحنف الى ابن اخيه في البحث عن برسي الذي ذكرت فأين هو ؟

– في هذا الحصن .. ادعُ برسي ايها الغلام .

فخرج الحاجب ولم يلبث حتى عاد وبرسي معه ، فقال خراذمهر : هـذا

صاحب مرو الاولى ، وهـذا طارق ابن اخي عامل المروين وهما يسألان عنك فهل تعرفها ؟

فدمعت عينـاه وجعل يقول لطارق : لا .. لا اعرف احداً ولكني عولت على المسير الى مرو مع خراذمهر لانقل اليكم ما اعلمه عن شهريار . وجلس وهو يمسح دموعه ، فقال طارق : وماذا تعلم عن شهريار ؟

– اعلم اشياء يعلمها هذا مثلي .. واومأ الى خراذمهر .

– واين تركته ؟

– في وادي خواست ولكني لا اعرف الموضع الذي جعلوا جثته فيه ..

فتراجع قائلاً : قتلوه في ذلك الوادي ؟

– اجل، قتله يزدجرد وسنجان لانه مسلم، ووضعت السلاسل في عنق برسي الذي يخاطبك الآن ، منذ ذلك الحين .

فجعل يقول : هذه اكاذيب سنجان تظهر الان .. فليعلمهـا عمي الاحنف، وأبي عبد الله :

وهل شهدت مقتل الرجل ؟

– نعم ورأيت دمه يجري في خيمة الملك ، وقد غاصت فيه قدما يزدجرد واقدام الرجال الذين مزقت سيوفهم جسده . . واخذ يصف لهم مشهد القتل كما جرى ، وهم يصغون اليه ، وعينا طارق تملأهما الدموع وكان يقول في نفسه : يكفي ان يعلم الاحنف ان شهريار الذي كان خائناً في نظره ، بذل نفسه في سبيل شرفه ووفائه .

وكان ماهويه ساكتاً ، فلما رأى دموعه قال : حسب الامير اني قتلت قاتل شهريار كما يقتل المجرمون الجبناء ؛ على ان طارقاً لم يجب فقد كان يفكر في أمر آخر، هو امر اليتيمة التي زعم سنجان انها ابنة شهريار ، من خليلته زوجة ذاك الخادم الفارسي .

وشهريار قد مات ، فلم يبق في الوجود ، من يستطيع ان يطلع الاحنف ، على سر الفتاة المنكودة الحظ . واي رجل ، بعد موت ابيها ، وموت سنجان يستطيع ان يثبت للقوم انها ليست ابنة زانية ؟ وهل يتزوج سيد فتيان بني

ليم ، بفتاة تجعل العشيرة نسبها مضغة في الافواه ، ويتحدث بزنى والدتهـــا كل عربي؟ ! ان موت شهريار، كان اشد وقعاً على الفتى العاشق ، من حكاية سنجان التي مزقت فؤاده وأرسلت الريب الى صدره .

وبينا هو ذاهل ، خطر لخراذمهر ان يسأل برسي عن الوصية فقال : لم تقل للامير كلمة عن الكتاب الذي تحمله الى الاحنف ، فصحا الفتى من ذهوله وقال:

تحمل كتاباً الى عمي ؟

– أجل وهو الكتاب الذي سلمه اليّ شهريار قبل موته .

فلمع البشر في عينيه وصاح قائلاً :

الحمد الله ، ان في هذا الكتاب مفتاح السر ورحم الله شهريار، فهو لم ينس شيئاً .. ومتى كتبه ؟

– كنا نتحدث بامر الاسلام ، بعد رجوعي من مرو ، ونحن في خيمة الملك، وكان سنجان في خيمة قريبة وقد سمع كل شيء ، ثم رآه شهريار خارجاً منهـــا فأيقن بأنه سينقل ما سمعه الى يزدجرد وليس بعد ذلك غير الموت ..

– و كتبه عندئذ ؟

– نعم كتبه ويده ترتجف ، وكان ينظر الى الباب كأنه يرى الموت حتى انتهى منه ودخل الملك ، وذلك الساعي اللعين وراءه ، ثم حدث القتل .

– واين وضعت كتابه ؟

– هو في حزامي لم اغفل عنه لحظة واحدة .

قال : اعطني اياه فأنا ابن أخي الاحنف .

– لا والله لا اسلمه الا الى الاحنف نفسه ، فاذا هلك فالى عبد الله اخيه ثم اليك انت ، ثم الى الفتاة ابنة شهريار .

– يظهر ان شهريار نفسه امرك بذلك .

– نعم وقد كتب هذه الاسماء جميعها كي لا انسى اسماً .

قال : اقرأ وصية الرجل واقسم لك اني اكتم ابي وعمي مـــا قرأت ، ولا ابوح به لأحد من الناس .

– ومع ذلك فانا لا استطيع ان افعل .

فلم يرَ الفتى ان ينتزع الوصية انتزاعاً ويقابل وفاء الرجل بالشدة وهـو العربي الذي كان الوفاء ولم يزل من شيمته وشيمة قومه ، كما انه كان يخشى ان ينصرف برسي الى مرو فيرى الاحنف في وصية شهريار ما يثبت اقوال سنجان وهناك البلية التي ليس لها دواء . . فأخفى وجهه بين يديه وغـاص في لجة التفكير . .

ثم رفع رأسه قائلاً :

ألم يقل شهريار للملك كلمة قبل موته ؟

– بلى ، قال كلاماً لم يقل مثله ليزدجرد احد من قبل .

– وهل تذكر شيئاً منه ؟

– اذكر انه اعاد عليه حكاية حادثة جرت بينهما وكان يقول له : « اذكر يا يزدجرد ان القائد ابان زرد ، الذي قتل في القادسية وهو يدافع عن عرشك ، اوصاني بان اجعل ابنته جهان روز زوجة لي ، وقد طلبت اليك وهي في بلاطك ان تزفها اليّ فلم ترض وليتك وقفت عند هذا الحد » .

– ثم ماذا ؟

– وكان يقول : « واذكر انك طردتني يومئذ من البلاط كما يطرد السائل الوقح واحتفظت بالفتاة لنفسك ، ثم جعلتها حظية لك لتنتهك حرمتها ثم لتقذف بها بعد ذلك الى القبر » .

انها كلمة لا انساها لفظها شهريار وهو يرتجف ولو استطاع في تلك الساعة ان يقبض على عنق الملك لخنقه ولم يبال بالسيوف التي تلمع فوق رأسه ، ويلمع على شفارها الموت .. وكان طارق قد حبس انفاسه ليسمع كل شيء ، فقال : وبعد ذلك يا برسي ؟

– مشى شهريار بعد ذلك حتى دانى يزدجرد وقال :

« اما وقد حكمت عليّ بالموت ايها الظالم فاعلم اني اموت وانا مسلم ، وانك لا تستطيع ان ترى اليتيمة المنكودة الحظ بعد موتي ، وان الحكم الذي لفظته شفتاك الان سيعقبه موتك ايها الغدار » .

تخطفته السيوف عندئذ وملأ دمه واشلاؤه خيمة يزدجرد ثم جـاء دوري

فخطر له ان يعذبني الى الابد ليعلم خصيانه وقواده الخضوع لملكهم والاخلاص له . . »

فايقن طارق في تلك اللحظة بأنه ليس في الوصية مـــا يخافه قال له : تهيأ للذهاب غداً الى مرو فالاحنف يريد ان يراك .

فقال خراذمهر : وانا اذهب لأظهر خضوعي وأسأل والي المروين ان يجعل احد عماله في جبل الزهاد .

قال : ستكون انت عامله عليه ذهبت أم بقيت .

– ولكني اريد ان اسمع ما جاء في الوصية !!

– لمـــاذا ؟

– لانه قد يكون فيها ما يتعلق بي ...

فنظر اليه مستغرباً وقال : واي شأن لك بما كتبه شهريار وانت لا تعرفه ؟

– يخيل اليّ اني عرفته من قبل ... وابان زرد قتيــل القادسيّة الذي ذكر برسي اسمه الان هو اخي ! !

– وكيف كنت من انصار الملك وهو الذي انتهك حرمة اخيك وجعل ابنته بالقوة بين حظاياه ؟ !

– تركت الحرب بعد موت اخوي رستم وابان زرد ولجأت الى هذا الجبل ولم أعلم شيئاً مما ذكره برسي الساعة .

– ولو عرفت ذلك من قبل لما كنت عوناً للملك .

قال : لو عرفته لأغمدت خنجرى في صدر ذلك اللعين الذي انطرح اهلنا وقومنا جثثاً في سبيل استرجاع عرشه .

قال : لقد استرحت منه الان واستراحت العرب ، وان الرب القادر القهار هو وحده يعاقب الظالمين . واستأذن خراذمهر عندئذ ، في ان يطوف حـــول الحصن ليرى سراديبه وابراجه ، وينقل الى الاحنف ورجاله اخبار مـــا يراه . ثم رجع بعد ساعة وقضى نهاره وهو يفكر فيما سمعه ، وبات ليلته ساهراً وقد ساءه موت شهريار ، بل ساءه ان ينقل النبأ المروع الى الفتاة التي أحب . .

* * *

اصابع الفتنة

في السنة الثلاثين للهجرة ، أمر سعيد بن العاص ، والي الكوفة حذيفة بن اليمان بان ينصرف عن الري الى الباب ليكون عوناً فيها لعبد الرحمن بن ربيعه ، ففعل حذيفة ما أمره به . واقام بذلك القطر حتى تم للمسلمين الأمر ودانت لهم الباب ، وما حولها من اقاليم . فلما رجع قال لسعيد بن العاص : لقد رأيت في غزوتي هذه امراً ، لئن ترك ، لاختلف الناس في القرآن ثم لا يقومون عليه ابداً.

قال : وما ذاك ؟

قال: رأيت اناساً من أهل حمص يزعمون ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم وإنهم اخذوا القرآن عن المقداد .

ورأيت أهل دمشق يقولون ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم ورأيت اهل الكوفة يقولون مثل ذلك وانهم قرأوا على ابن مسعود. واهل البصرة يقولون مثل ذلك وانهم قرأوا على ابي موسى الاشعري ويسمون مصحفه ، لباب القلوب . ثم خبر حذيفة الناس في الكوفة ، وحذرهم ما يخاف . فوافقه اصحاب رسول الله وكثير من التابعين ، ولكن اصحاب ابن مسعود لم يوافقوه وكانوا يقولون : نقرؤه على قراءة ابن مسعود .

فقال : انما انتم اعراب فاسكتوا فانكم على خطأ ووالله لئن عشت لآتين امير المؤمنين ولأشيرن عليه ان يحول بين الناس وبين ذلك . فأغلظ له ابن مسعود ، فغضب سعيد بن العاص ، وغضب حذيفة وقاما وتفرق الناس ، والضغينة والغل في الصدور .

ثم سار حذيفة الى عثمان ، وخبره بالذي رآه وقال : ادركوا الامة .

فجمع عثمان الصحابة وقص عليهم ما سمعه ، فأعظموه ، ورأوا جميعاً ما رآه حذيفة وخافوا ان تستيقظ الفتنة وتندلع ألسنة النار . فارسل عثمان عندئذ الى حفصة بنت عمر بن الخطاب يقول لها : ارسلي الينا بالصحف ننسخها..

وكانت هذه الصحف ، هي التي كتبت في أيام أبي بكر ، فان القتل لما كثر في الصحابة يوم اليمامة ، قال عمر لأبي بكر : ان القتل قد كثر واني اخشى ان يستحر بقراء القرآن فيذهب من القرآن شيء كثير ، قال : وما ترى ؟ قال : أرى ان تأمر بجمع القرآن . فأمر ابو بكر عندئذ ، زيد بن ثابت ، فجمعه من الرقاع والعشب وصدور الرجال فكانت الصحف عند أبي بكر ثم عند عمر . فلما توفي عمر ، اخذتها حفصة ابنته فكانت عندها حتى ارسل عثمان يأخذها منها وامر زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف وكان يقول لهم: اذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم .

فلما فعلوا ، ردّها عثمان الى حفصة وارسل الى كل افق بمصحف وحرق ما سوى ذلك . فعرف الناس فضل هذا العمل الا اهل الكوفة ، فقد امتنعوا من ذلك . وعاب بعضهم امير المؤمنين ، ثم ارتفعت الاصوات هذا يشكو عثمان وهذا ينتصر له حتى عمت الفتنة ، فتنة القول ، جميع الاقطار التي ينزلها المسلمون .

وامسى الناس في الظاهر ومن وراء الستار ، فريقين ، أحدهما يشايع الخليفة ، والاخر يكيد له ، فكأن القوم ، من الناحيتين كانوا يهدمون بأيديهم بناء تضامنهم الراسخ ولا يبالون :

واقبلت السنة الثانية والثلاثون والناس على ما رأيت ، وعبد الرحمن بن ربيعة عامل لعثمان على الباب ، وقد تتابعت غزوات جيشه ، وكثرت الحروب بينه وبين أهل الخزر والترك . والنصر يبسم لرجاله ، والعدو يتراجع امام سيفه. حتى اجتمع الترك فقالوا : كنا امة لا يجسر احد على ان يدنو منا حتى جاءت هذه الامة القليلة فاقتحمت علينا ارضنا وظفرت بنا .

فقال بعضهم : ان هؤلاء الغزاة لا يموتون ولو كانوا يموتون، لأصيب في غزوهم رجل منهم !! قالوا ذلك،لان المسلمين لم يقتل احد منهم في الحروب التي استعرت نارها بينهم وبين القوم ، من قبل . فقال البعض الآخر : نجرب هذه المرة فقد عرفنا انهم يتهيأون للزحف وسنكمن لهم في الغياض ونرميهم بالنبال . وجعلوا يعدون العدة ليقابلوا الغزاة ، بالقوة التي تضمن لهم سلامة الوطن ...

ووضعوا ايديهم ، من اجل هذه الغـاية ، بأيدي اهل الخزر وتعاهدوا على الدفاع في ساحات القتال حتى يظفروا او يموتوا . وجعلت صفوف الخزر ، تنضم الى صفوفهم ، في ذلك الاقليم . وكان امير المؤمنين ، قد بلغـه ان عبد الرحمن هم بالغزو ، فكتب اليه : « ان الرعية قد أبطرتها البطنة فلا تقتحم بالمسلمين فاني أخشى ان يقتلوا » .

ولكن عبد الرحمن لم يرجع وقد كره ان يرتفع في الاقليم الذي يجاور ولايته ، رأس ملك او امير . وغزا القوم ، واهل الكوفة وراءه يدفعونه الى مواقف الشرف ، ويبتسمون للموت ، الذي يفاجئهم وهم في الميادين . فانتهى الخبر الى عثمان ، فأرسل الى سعيد بن العاص ، يأمره بان يبعث بسلمان بن ربيعة ، اخي عبد الرحمن ، مدداً لأخيه .

ومشت طليعة عبد الرحمن الى الساحة ، وهي مؤمنة بأن النصر سيتم للجيش العربي في اول جولة تجولها الخيل . غير ان الترك والخزر ، الذين كمنوا للمسلمين في الغيـــاض ، كانوا على حذر ، وكانت عيونهم في الجبل والسهل ، تحصي على العدو انفاسه . فلما دنا رجال المقدمة من الكمين ، أمطرهم اهل الغياض وابلاً من النبال ، فتضعضعوا ، ثم انقضوا عليهم بالسيوف فحصدوهم حصداً لم يبق منهم غير رجل واحد لجأ الى الفرار حاملاً النبأ الرائع الى عبد الرحمن . أجل ، قتلت طليعة عبد الرحمن قتلاً لم يرَ اشد منه ، فزحف حانقاً يفكر في التقتيل والتدمير والهدم ، بل كان يفكر في القضاء على كل فتى من فتيانهم يحمل السيف !! ولكنه اصطدم بالاسوار عليها المجانيق ، ترسل القذائف الى قلب جيشه وجناحيه ، وتلقي الذعر في القلوب . فجالد وصبر ، وجعل يدور حول بلدهم فلا يلقى غير الموت تحمله السهام ، من الابراج الى الرجال . وبينا هو ينظر في الامر ، ويعد عدته لهجوم عام تتحطم معه الاسوار ، خرج جيش العدو فجأة الى الفضاء ، ودارت في ذلك السهل الذي يحيط بالبلد ، رحى قتال هائل اهتزت له الارض . وقبل ان تغرب الشمس ، تمشت في جسم الجيش العربي قشعريرة الخوف ، واتجهت العيون الى منافذ الفرار . .

وكان الفارس يهامس اخاه قائلاً له : قتل عبد الرحمن . نعم ، قتل القائد

الباسل الذي قضى حياته كلها في الميادين حاملاً لواء الظفر ، ولم يلبث الجيش حتى أمسى فرقتين هاربتين ، هذه الى مدينة الباب ، والاخرى الى ناحية جرجان ، في الشمال الغربي .

وكان سلمان بن ربيعة قد انتهى الى الناحية الاولى ، فلما رأى ان الجيش اندحر ، وان اخاه قد قتل ، آثر البقاء في البيت ريثما يتهيأ من جديد ، للزحف الى اقليم العدو الظافر . وورد امر سعيد بن العاص ، بجعل سلمان عاملاً على ولاية اخيه عبد الرحمن ، وجعل حذيفة بن اليمان ، اميراً للغزو ، بأهل الكوفة . ثم أمدهم امير المؤمنين بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة القرشي ، وهو من وجوه الناس . فأراد سلمان ، وهو عامل الاقليم ، ان يكون صاحب الامر . فأبى حبيب ولم يشأ الاعتراف بسلطانه . حتى همّ اهل الشام بان يضربوا سلمان ، على مرأى ومسمع من القوم ، فقال اصحابه : اذن نضرب حبيباً ونحبسه وان أبيتم كانت القتلى فينا وفيكم ...

وقال أوس بن مغراء في ذلك :

ان تضربوا سلمان نضرب حبيبكم   وان ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وذلك هو اول اختلاف وقع بين اهل الكوفة والشام . وبدأ بعض القوم ينظر الى البعض الاخر بعيون فيها شرر البغض وكانت الحادثات تتمخض بالفتنة العامة بين المسلمين ، تشتعل بعدها النار ...

* * *

- ٦٣ -

لم يشأ طارق ان يرى اليتيمة ، قبل ان يرى عمه وأباه ، ويقرأ الاثنان وصية شهريار ...

وكانت الوصية التي يحملها برسي تحمل اليه الامل الضائع ، وتعيد اليه الرجاء ، فلما انتهى مع خراذمهر وبرسي الى مرو الروذ ، مشى الى قصر الامارة

واستأذن على الاحنف ، ثم دخل الثلاثة والاحنف جالس لحاجات الناس مع اخيه عبد الله ، وعنده وجوه القوم من عرب وفرس . فنظر الاحنف الى اخيه نظرة خاصة ، ثم انثنى يحدق الى الفتى وقد اطلت الشفقة والحنان من عينيه ، ثم قال : متى قدمت يا بني ؟

فدنا الفتى وعانق عمه واباه ثم قال : قدمت الساعة ولم ارد ان أرى احداً قبل ان امر بهذا المجلس .

– وهل قضيت حاجتك ؟

– يخيل اليّ اني قضيتها وسترى !

فهامس أخاه قائلاً : يظهر انه لا يعلم شيئاً مما جرى .

وجعل ينظر في حاجات القوم حتى خرجوا جميعاً ولم يبق في مجلسه غير الثلاثة ، وعبد الله ، فقال : الى اي بلد انتهيت يا طارق ؟

– الى مرو الاولى ثم الى جبل الزهاد .

– ورأيت عاملنا ماهويه ؟

– نعم وكان رفيقاً لي في رحلتي الى الجبل وقد عاد اليوم الى بلده .

– وهذان الرجلان ؟

– هذا خراذمهر، شقيق رستم القائد الفارسي الكبير الذي قتل في القادسة وهو صاحب الجبل الذي ذكرت .

فجعل يردد اسم خراذمهر ، ثم بان الغضب في عينيه وقال : لقد ذكر لنا ماهويه من قبل اسم خراذمهر.. انه من القواد الذين حملوا السيف مع يزدجرد، في مرو الشاهجان .

فقال خراذمهر : كنت بين قواده ايها الامير ولكنني لم اجرد سيفاً في وجه عربي كما تعلم ..

– ذلك لان يزدجرد وقع في شرك ماهويه فطردكم من الجيش ، ولو لم يفعل ذلك لجردت هذا السيف . .

قال : لا تلمني ايها الأمير فقد كانت فارس كلها على دعوة الملك .

– ولكنها خسرت هذا الملك الآن ..

قال : يكفي ان للعرب ملكاً أعظم منه هو ملكها اليوم .
- وتخضعون له كما كنتم تخضعون ليزدجرد ؟
- اجل ؛ وقد قدمت مع الأمير الفتى لأظهر هذا الخضوع .
قال : كان خضوع القواد من قبل خضوعاً كاذباً سالت بعده الدماء . .
قال : ليس على الامير الا ان يصبر فيختبر خضوعي .
- ماذا تقول يا طارق ؟
- لقد اثبت لي ماهويه انه من اشراف فارس الذين لا ينكثون العهد .
قال : اهلاً بكل فارسي يضع يده بيد العرب ويكون من المخلصين..اجلس
فراذمهر فقد آمنا بوفائك .
ثم قال : والرجل الاخر ؟
- هذا برسي يا مولاي الذي حدثوك بأمر اسلامه يوم قدم مرو حاملاً رسالة
شهريار الى ابنته .
قال : برسي الذي فرّ من جيش يزدجرد مع شهريار ؟
فاجابه برسي قائلاً : ومن قال للامير أني فررت ؟
- سنجان .
قال : لا يليق بأمير المروين ان يصدق ما يقوله هذا الكاذب . .
- ألم تفر ؟
- خطر لي ان افعل فلم استطع .
- واين قضيت الايام التي أنقضت بعد مقتل الملك ؟
- قضيتها في قفص يوضع فيه النمر والذئب !! وقد كافأني هذا الملك بأن
جعله منزلاً لي . . .
- اي انك كنت اسيراً .
- بل كنت حيواناً يا مولاي كما قلت . . .
- ولماذا فعل ذلك ؟
- لاني خرجت عن دين فارس . .
- وشهريار ؟

– قتل شهريار يا مولاي .

فسكت قليلاً ثم قال : وكيف قتل ؟

فجعل يقص عليه الحادث ويصف له موقف ذلك الخراساني الوفي الذي ذهب ضحية اخلاصه ..

فاشرق جبينه قائلاً : والوصية معك ؟

– هذه هي يا مولاي .

فتناولها الاحنف وجعل يقلبها بيديه ثم دفعها الى اخيه وهو يقول : اقرأ يا عبد الله .

وحبست الانفاس ليسمع القوم ما ورد فيها ، فقرأ عبد الله : الى عامل المروين الاحنف بن قيس من شهريار الخراساني :

هذه وصيتي ابعث بها اليك مع برسي احد خصيان الملك الظالم ، معترفاً فيها بجميع الاسرار التي لم استطع من قبل ان ابوح بها لك ولمن حولك ؛ وقد كتبتها وعيناي تنظران الى الموت ، ويدي ترتجف ليس عن خوف ، بل عن شعور بألم الفشل والخيبة اللذين رأيت . . كنت احارب العرب في جيش القادسية كما يحاربهم سواي ، وكان قائدي الذي احبه ؛ رجلاً من اشراف فارس يدعى ابان زرد وهو شقيق القائد رستم والقائد الاخر خراذمهر . فلما دارت الدائرة على اهل فارس ، قتل قائدي ، ولكنه اوصاني وهو يلفظ روحه بان اقضي حياتي ابناً لزوجته التي تقيم بالمدائن ، وزوجاً لفتاته التي يقال لها جهان روز وكانت بين جواري البلاط الفارسي .

فانصرفت الى المدائن وكانت الزوجة قد ماتت وشيعت الفتاة جثتها الى القبر وهي تندب سوء حظها وتبكي ابويها اللذين خسرتهما .

واراد الله ان يستهويني جمالها وان يتمشى الحب مع دمي ، فأستأذنت على يزدجرد وطلبت اليه ان يجود علي برضاه لأتزوج الفتاة ، فطردني من بلاطه ، ثم خطر له بعد ذلك ان يجعلها من حظاياه ، ففعل . ودار الزمان دورته ، فاذا بيزدجرد يخلع عن عرشه ، ويخرج من المدائن هارباً لاجئاً الى المدن التي كان يظن انها تثبت في وجه المسلمين .

وكنت قد خسرت يدي في الميدان ، ثم استطعت ، بفضل الحيلة والدهاء ان امسي من رجال قصره .

فلما انتهى في فراره الى حلوان ، أحست جهان روز بآلام الوضع ، وكانت قد أحست من قبل بغضب يزدجرد وقسوته وشراسته وجفائه .

وكان يعلم ان العرب تلحق به فلا بد له من الفرار ، كما انه كان يعلم ، ان جهان روز التي سقطت واهية القوى ، تحت تأثير شراسته وجفائه، لا تستطيع النجاة من الموت الذي بدأ يصارعها وهى على فراش الولادة . ولكنه لم يعبأ بذلك ، بل ترك حلوان يريد الريّ ، ووهب لي ، انا كاتب هـذه الوصية ، باستعطاف كبير خصيانه ، شيئاً من المـال اعالج به امر تلك المرأة المنكودة الحظ التي تسير بخطى واسعة الى القبر . فعل ذلك دون ان ينظر اليها نظرة او يقول لها كلمة !

ووضعت جهان روز ، ليلة فراره طفلة جذابة الملامح ساحرة العينين ، ثم لم يلبث الموت حتى ضمهـا اليه وهي تقـول : انتقم لي ، وكن أباً لطفلتي ولا تبح لها بالسر الا في عامها الخامس عشر ، واحذر ان يتزوجها فارسي . ومنذ ذلك الحين وانا ابحث عبثاً عن يزدجرد حتى اظفرني الله به ، ولكنه سيقتلني قبل ان اقتله ، فقد قرأت الموت في عيني مستشاره اللعين سنجان الذي كان عاملاً لك على مرو .

فاذا اراد طارق ابن اخيك ان يتزوج اليتيمة ، فاليتيمة ليست ابنة شهريار الخراساني بل هي حفيدة الملوك الذين دان لهم الشرق وابنة الملك يزدجرد بن شهريار بن كسرى من جاريته جهان روز . فصاح طارق قائلاً :

اي والله ابنة يزدجرد ، وقد كانت تدافع عنه وهي لا تعرفه ، أرأيت يا مولاي انها أشرف نسباً واعظم مقاماً مما كنت تظن . . فأطرق الاحنف وهو يداعب سوطه دون ان يتكلم .

فقال عبد الله : ان جهان روز ابنة اخيك يا خراذمهر .

– نعم ، ولم اعلم ماذا جرى لها الا في هذه الساعة .

وانتظر القوم ان يقول الاحنف كلمته فلم يفعل ، فقال طارق : مـــاذا رأيت يا مولاي ؟

فتمتم قائلا : رأيت يـــا بني ان عمك واباك كانا مخطئين في ظنونهما وان سنجان خدعهما باكاذيبه .

قال : أرجو ان تأذن لليتيمة في المثول بين يديك ، لننقل اليها خبر موت شهريار ثم نسكت عند هذا الحد الان . فجعل ينظر الى اخيه كما كان ينظر اليه عند دخول طارق .

فذعر الفتى وأيقن عندئذ بان في الامر ما فيه ، فقال : أرى أبي وعمي يهمان بالكلام ثم يترددان فيه . . اني خائف .

فقال عبد الله : ليس في الامر ما يدعو الى الخوف يا بني .

– وماذ اذن ؟

– حادث جرى في مرو وانت غائب .

قال : أماتت اليتيمة ??

بل خرجت من البلد ونحن لا نعلم . .

وظن الاحنف وعبدالله ان الفتى سيثور ثائره ، وسيهيج للخبر كما يهيج النمر ولكنه لم يفعل بل ظل هادئاً كأنه لا يعرف الفتاة التي قيل له انها خرجت من يده ولو لا اختلاج عينيه لقام في ذهن أبيه انه لم يسمع . . .

وجعل ينظر الى الارض ثم يرفع نظره وهو ساكت حتى ابتسم اخيراً ابتسامة هي ابتسامة القهر أو أشد . .

وخرجت من فمه الفاظ متقطعة كالمجنون يخاطب نفسه ، ثم ارسل الى أبيه نظرة حادة ، وجاد على عمه بنظرة مثلها ثم قال : اذن فاليتيمة يا عم ليست بمرو الروذ !!

فعرف الاحنف عندئذ ان ذلك الهدوء الغريب ستعقبه الثورة الجامحة وان الغرام الكامن في الصدر سيتولى أمر الكلام في تلك اللحظة .

فقال لغلامه وهو يشير الى الفارسيين : تقدم هذين الرجلين الى قاعة الاضياف ، وانظر في امرهما ريثما يخرج طارق من هذا المجلس .

فكأنه كان يخشى ، ان تبدر من الفتى ، والفارسيان حاضران ، بادرة غضب ، تضيع معها عظمة الامارة ، وهيبة الاحنف بن قيس ، ثم قـال : صدق أبوك يا بني فاليتيمة ليست في مرو ..

– ومتى خرجت منها ؟

– يوم خروجك انت وقد صبرت الى الليل ..

– ومعها جاريتها ؟

– ان الجارية باقية وهي التي قصت علي في صباح اليوم الثاني ، خبر هـذا الفرار الفجائي الذي لم يخطر لأحد .

– وماذا صنعت عندئذ ؟

– أرسلت بضعة رجال يقتفون اثرها فلم يبصروا احداً ، ولكنهم عرفوا انها مرت بمنزل شهريار على الشاطىء ، وخرج معها منه ، ذانك العبدان ، وغمرة زوجة سنان .

– والمنزل مهجور الآن ؟

– ان في المنزل رجلاً فارسياً كان من خصيان يزدجرد ، وهو صديق شهريار ، وكيف لم تمرّ بذلك المنزل وانت راجع الى مرو ؟

– جئت من الناحية الاخرى لأتعجل في الرجوع ، ولم أكن أظن يا عمّ انك لتكيد ابن أخيك ، وتطرد الفتاة التي نشأت في ظل أبي وعاهدتها على الوفاء !!

قال : لا تظن الظنون قبل ان تسمع وترى .

– وماذا ارى ؟ سأرى الوحشة التي تركتها لي ، واسمع النـاس يقولون : ربى سيد بني تميم فتاة ثم طردها من بيته !!

فابتسم قائلاً : ليس لعمك يد في فرار اليتيمة يا بني ..

– اذن فهذه يد أبي ...

– ولا تتهم أباك فهو بريء ... واقسم لك بشرف العشيرة اننا لم نرَ اليتيمة ليلة فرارها ولم يخطر لنا انها ستغادر مرو دون ان تقول لنا كلمة .

قال : ألم تسأل حراس السور ؟

– بلى ، وقد خرجت مع سنان والحراس بالباب ..

وأومأ اليه بان يسكت ، ثم قام فخرج الى الرواق ، ولم يلبث حتى عـــاد وهو يقول : ستجيء الجارية . واقبلت الجارية بعد لحظة ، فقال: اسألها ياطارق.

قال : اين اليتيمة ياسوداء ؟

قالت : تركت المنزل يوم تركته انت .

– وكان معها غير سنان ؟

لم ارَ احداً يا مولاي .

– وهل ذكرت لك اسم البلد الذي رحلت اليه ؟

– لم تذكر شيئاً من هذا ولكنها اعطتني رسالة مكتوبة على قطعـــة من العاج ، داخل قطعة من الديباج ..

– لمن هي ؟

–لك يامولاي، وقد أمرتني بان اكتمها جميع الناس ولا اسلمها الااليك.

فقال عبدالله : لقد عرف طارق الان ان اباه وعمه بريئان .. اين هي ؟

فأخرجتها من صدرها وهي تقول : لم تمسها يدي الا في هذه الساعة ، خذها يا مولاي .

وناولتها الى طارق . فجعل يقرؤها وهو ساكت ، ولكنه كان يمسح دموعه كلما قرأ كلمة ، ولم ينته حتى تلاشت قواه ، وسقطت مـــن يده . فأخذها الاحنف ، وانحنى عبدالله يقرؤها مثله وقد جاء فيها : الى طارق بن عبدالله . اكتب اليك الان هذه الرسالة ، على ان ارحل عن مرو الروذ بعد ساعة ، الى مكان بعيد ، احتجب فيه ، اذا استطعت ، عن العيون . اني في نظرك ونظر الاميرين الاحنف وعبدالله، فتاة خداعة ، اكافىء الخير بالشر ،واحمل في الصدر للمحسنين اليّ ، بغضاً قاتلاً يمليـــه علي اخلاصي لعدوهم يزدجرد ملك الفرس . وهنالك شيء آخر لا انساه ، هو اني عاهدت ابي على قتلك ، وقتل ابيك وعمك بالسم اجعله في الطعام والشراب. وانها لتهمة ليس في التهم التي توجه الى الناس، اطيب منها اثراً واخف ظلاً .. وانه لشرف يطيب لي ان اذكره كلما ذكر الفضل . !

فتاة تعيش في نعمتكم يا آل قيس ، وهي خائنة . !! حسبتموها نعجةفكانت

ذنبا ، وخيل اليكم ان في صدرها عاطفة وفاء، فاذا هي لا تعرف غير النـــذالة واللؤم !!

أفتطيق يا ابن عبدالله ان تتزوج اللئيمة الخائنة الغادرة .. بل الافعى السامة التي تنفث سمها في ظلام الليل . انك اذا رضيت بذلك فـــانا لا ارضى ، واني لأضن بآل تميم ، ان يضموا الى صفوف العشيرة ، يتيمة في صدرها ا لحقد ، وفي يدها السم !!

طارق ! مانسيت قط اني أحببتك .. حبا تعجز شعراء العرب عـــن ان يصفوه ، ولم انس قط اني استسلمت الى المنى فضاعت... والى الأمل فخاب... ولكن .. ليس الذنب في ذلك ذنبي ، بل هو ذنب العاطفة التي خفقت في هذا القلب ثم قذفت بي الى الهاوية .. والان ، اعترف باني لك .. وسأبقى لك الى الأبد .. ان هذا الحب الذي ملك أمري ، وصيرني عبدة له ، هو الذي يخلق في قوة الاحتمال الى النهاية .. نعم يا طارق اني لك .. ولكن بالروح .. وان التهمة التي وجهتها الي ، وانا البريئة ، تفصل بيني وبينك ، من ناحية الزواج ، الذي كنت أرغب فيه . الوداع ... وانه لوداعٌ لا يعقبه لقاء ، فلا تسأل عني احداً ولا تبحث عبثاً ، انك لن تستطيع ان تجد الفتاة التي ضيعتها الاقدار ، وجـار عليها الزمان . الوداع ... واذا عاد أبي فخبره اني الخائنة !! واني الأفعى !! ولكنه لن يعود فهذا القلب يقول لي انه قد مات .. وانك لتجد ، على قطعة العاج بين هذه السطور .. اثار الدموع ....

فلما انتهى الاميران من القراءة ، قال الاحنف : عد الى نفسك يا بـــني واذكر اي فتى انت .

فرفع رأسه قائلاً : اذكر اني خسرت من احب ..

ـ وهل وثقت الان بانه لم يكن لنا يد في الامر ؟

ـ اجل !

ـ وعلى اي شيء عولت ؟

ـ على الطواف في خراسان ، والري والعراق ، بل في فارس وارض العرب كلها حتى يجتمع الشمل او يخيب الرجاء .

– بل اطلب اليك ان تبقى في مرو وانا اتولى الامر عنك .
قال : انت ؟
– نعم انا ولكني لا أذهب بنفسي بل ارسل غداً من يحمل الي اخبار الفتاة ولو لجأت الى الغمام .
قال : لا يحمل هذه الاخبار غير طارق نفسه .
– ولكن اباك لا يطيق ان تبتعد عنه ..
– كنت تقول لي من قبل ان رجال الحرب لا يبالون بفراق المحبين . .
– ولكنهم يبالون بفراق البنين . .
– اما انا فلست براجع عما هممت به ولو لعنني أبي ولعنتني تميم .
قال : تصبر حتى يرجع الرجال الذين ابعث بهم .
– لا أعد بهذا فقد لا استطيع الصبر يوماً آخر .
فقال عبد الله : دعني افعل ذلك يا بني .
– ماذا ؟
– اخرج الى الاقطار التي ذكرت وأتوكل على الله .
– لك ان تذهب من ناحية وأذهب انا من ناحية اخرى .
قال : لي خبرة ليست لك وأنت لا تعرف غير النواحي التي زحف اليها الجيش وأنت في صفوفه .
– أستعين بخبرة رجل فارسي وقد يرافقني خراذمهر وبرسي الى حيث أمضي .
قال : هذان فارسيان وأنا لا اثق باخلاصهما لك .
– ولكني لم أرَ ، في كل ما رأيت ، رجلاً أعظم نفسا من برسي وأشد اخلاصا ومع ذلك فليكن معهما اثنان من العرب .
قال : سننظر في الامر الليلة فلا تتعجل فيه .
– افعل يا ابي ما يطيب لك على ان تكون واثقا بأني لن اعدل عن الذهاب ولو كان فيه هلاكي .
ثم نهض قائلاً : انظرا فيما تريدان فقد بقيت لي في مرو الروذ ليلة واحدة !

وخرج دون ان يلتفت الى الوراء حتى أتى دار الاضياف فقال لبرسي : لقد تركت ابنة الملك مرو الى حيث لا نعلم .

قال : سمعت اباك يذكر ذلك ، وقد عرفت مما جاء في الوصية ، انك تحب الفتاة وكنت تريد ان تجعلها زوجة لك .

- ولكني ضيعتها الان والحب باق في الصدر لا يزول .

- وماذا تفعل يا مولاي ؟

- اترك مرو كما تركتها هي ..

- الى اين ؟

- الى اقطار فارس وارض العرب .

- وتطوف في هذه البلاد كلها باحثا عن الفتاة ؟

- اجل !

- ولكن هذا الطواف لا ينتهي الا بعد اعوام .

- لينته بنهاية العمر فانا لا ابالي .

- ومتى تبدأ به ؟

- غداً وقد اتيت الان اسألك ان تكون رفيقا لي .

قال : سأفعل وسأكون عبداً لك .

فقال خراذ مهر : اتريد ايها الامير ان تجعلني من رفاقك ؟

قال : كنت اهمُ بأن اطلب اليك ذلك فستكونان انتما الاثنين عوناً لي .. اجل ، انك لا تعرف اليتيمة ، ولكنك تعرف اقاليم خراسان والعراق والري وهذا ما احتاج اليه .

- كما اني اعرف جهان روز ابنة اخي وقد يكون في عيني اليتيمة ووجهها شيء من ملامح امها التي خانها القضاء .

- وانت يا برسي ؟

- اما انا فقد رأيت الفتاة يوم قدمت مرو ، وحدثتها بامر الملك ، ورأيت الدمع في عينيها السوداوين .

- وتستطيع ان تعرفها اليوم اذ رأيتها ؟

– لو رأيتها بعد عشرين عاماً لعرفتها ولو كان على وجهها حجاب .
قال : تهيأ اذن فلم يبق لنا ما نفعله في هذا البلد .

وانصرف الى المنزل يستفيد من ام عامر زوجة ابيه ، ما سمعت ورأت ،ثم انثنى الى حجرة الفتاة وجعل يبكي حتى جفت الدموع .

وكان ابوه قد عول على الرحيل ، فقال للاحنف : لم يبق الان ما يمنعنا من الطواف والبحث عن اليتيمة لنزفها الى الفتى ، انها أشرف النساء نسباً واحسنهن وجهاً ، وقد كان شهريار من خيرة الرجال الذين يدافعون عن الاسلام وينتصرون له . .

قال : ولكن هذا الطواف سيضيع على ما ارى .

– لماذ ؟

–لان ارض فارس واسعة الارجاء ، وقد تلجأ هي ، بعد ان اتهمت بالخيانة، الى رجال من قومها يخفونها في الصدور .

قال : لقد نسيت امرين ، احدهما انها تحب طارقا ، وهي لا تستطيع ، ولو استخفت عن العيون ، ان تنساه .

– والأمر الآخر ؟

– اما الآخر ، فسنان عربي من بني سليم ، والعربي لا يلجأ الى قوم من الفرس .

– اذن ترى انها تؤثر الذهاب الى ارض العرب .

– او الى ارض الفرس التي تنزل فيها طوائف العربان .

– وتريد انت الى تزور كل بلد فيه عربي ؟

نعم وقد يمهد الله لي سبل التوفيق فأعثر على ضالتي ثم اعــود بعد شهر او شهرين على الأكثر .

قال : خير لنا ان نبعث بضعة رجال من قومنا يقومون بما تقوم به وتبقى انت في مرو .

– وكيف يطيب لي ان ابقى فيها ، وولدي بعيد عني وانا لا أعلم متى يعود بل لا أعلم في أي بلد هو .

– وتترك الجيش يا عبدالله ؟

– لو كان يزدجرد حياً لما تركته ، ولكن النـار قد خمدت الان ولم يبق في فارس كلها امير يحمل السيف .

– ومن ينقل اليّ اخبارك ؟

–ابعث اليك من حين الى آخر بهذه الاخبار .

– ولا تعدل عن هذا ؟

– ليس من الرأي ان أفمل فالنار تتأجج اليوم في فؤاد طارق وقد ينتهي به غرامه الى ما لا أحب .

– وهل ترى ان نبوح لقومنا بسر الفتاة ؟

– لا ، بل تكتمهم اياه ، وتقول لمن يسألك ، ان عبدالله وولده خرجا الى بعض النواحي ، لشأن لهما .

وبينا الاحنف يفكر في الامر ، انصرف عبدالله وهو يقول : اخرج الان لأعدّ عدة الرحيل وسأراك في هذا الليل .

فتمتم قائلاً : مسكين طارق فقد خانه القدر في غرامه ، ولو لم أكن عامل المرون لخرجت بنفسي افتش معه عن ابنة يزدجرد . ولم يلبث عبدالله حتى لقي طارقاً في حجرة اليتيمة ، فضمه اليه وقال : طب نفساً يا بني فأنا ذاهب معك ؟ والله الذي قضى بالفراق ، هو الذي يمن عليك باللقاء .

وكان البكاء قد قرّح جفنيه فقال : اخشى ان يتعبك هذا الرحيل يامولاي.

قال : الرجل الذي لا تتعبه الحرب لا يتعبه السفر من بلد الى آخر .

– ولكني استطيع ان افعل وحدي ما نفعله نحن الاثنين ..

– ومع ذلك فأنت لا تنقل من مرو قدماً ، الا اذا كان ابوك وراءك يلحق بك الى حيث تسير .

قال : سيذهب معي برسي وخراذ مهر .

– كما يذهب عبدالله بن قيس ورجلان آخران ..

ودخلت عندئذ جارية اليتيمة فقالت لعبدالله : ام عامر تريد ان تراك .

فمشى يريد غرفتها فاذا هي بالباب وكانت تقول : دعوتك لأقول لك كلمة.

- ما هي ؟

- احذر ان ينصرف طارق من مرو وحده .. ان هواه الذي انتهى بهذا الفراق المر سيقضي عليه .

قال : وأنا قد جئت الان لأسألك ان تعدّي عدة الرحيل .

ولم يترك عبدالله ولده في ذلك الليل ، وقد انضم اليهما الاحنف في الهزيع الثالث منه . وكان الاميران يضعان منهاج السفر ، وقد خيّل اليهما ان الامل يعود الى صدر الفتى العاشق الغائص في لجة التفكير ...

***

- ٦٤ -

مرت ابنة الملك ، بمنزل شهريار على الشاطىء ، فلبست ثوب فتى ،وارسلت ضفائرها على الوجه والكتفين فاحتجب في ذلك ، جانب من ذلك الجمال الخلاب ، ولكن عينيها ظلتا ترسلان السحر الى كل من يراهما .

وكان سنان قد خبرّ زوجته كل شيء ، وأفهم العبدين ان اليتيمة آمست فتى يقال له شهريار ! وامرهما بأن يكتما امرها جميع الناس .

ثم وهب لطرخان الفارسي بعض المال قائلاً له : ان مولاي قد مات فارجو ان تستعين بما اعطيك اياه على قضاء الحاجات ، ولك ان تبقى في هذا المنزل حتى نعود . ولم يزد على ذلك كلمة فقد كان يعلم ان الكلام الكثير يفضح الاسرار ، والفتاة لا تريد ان تبوح بسرها لأحد .

ومشى القوم بعد ذلك يريدون البصرة ، ومنها الى الخليج ، حيث تنزل طائفة من بني سليم . وسنان يعرف اقليم البصرة كله ، ويعرف الطرق البعيدة التي لا ترغب في السير عليها جماعات المسافرين . وكان السفر طويلاً شاقاً ، احتمل شهريار الجديد آلامه بصبر ، ولكنه أحسّ في النهاية ، انه لا يستطيع ان يحتمل الالام الاخرى التي لها صلة بالقلب .. وليس في ذلك شيء من الغرابة، فغرامه كان مبرحاً ، وعاطفته وثابة ، وهو ضعيف القوى ، وفي مقتبل العمر . قضى ايام سفره كلها ، يناجي طارقاً في نهاره وليله ، ويبكي هواه المخنوق ،

وامله الضائع بل قضى ايامه كلها يتلفت الى الوراء ، فقد كان يظن ، كلما سمع همس النسيم ، ان طـارقاً لا حق به .. والخادم الامين سنـــان ، يرى كل ذلك وقلبه يقطر دما ، ولكنه لم يكن يجسر على ان يتصدى للعاطفة الهائجة ..

حتى رأى اخيراً ، ان ذلك البكاء الدائم سيقودها الى القبر قبل ان ينتهوا الى الخليج ، فقال لها في مساء يوم : لي كلمة اقولها وانا اخاف ان تغضبي علي ، فسحت دموعها قائلة : ان الفتاة التي اختنق غرامها وهي في المهد لا تغضب الا على الزمان الغدار .. قل ما يخطر لك .

– لقد رأيت انك لا تستطيعين ان تصبري على الفراق .

– والصواب فيما رأيت وانا اعترف بذلك .

– اذن نرجع فليس من الرأي ان تستسلمي الى اليأس .

فاستيقظت كبرياؤها وجعلت تقول : اذن نرجع .! ولكن الى اين ؟

– الى المرغاب الذي نشأت على شاطئه .

– وهل تظن ، وانا العاشقة ، اني اطيق النظر الى طارق بن عبدالله وقـد اتهمني عمه وابوه ؟!

– من يعلم يامولاتي ، فقد يعود طارق حاملاً الى عمه اخبار ابيك كما هي ، بل قد يعود وابوك معه ..

– ان ابي قد مات وقلبي يقول لي ذلك ..

– لا تصدقي احاديث القلوب فهي كاذبة .

– ليعد ابي ، وليعلم ان ابنته لم تشأ ان تعيش بين قوم ينظرون اليها جميعهم نظرات الازدراء ..

قال : لو كنت انا اليتيمة ، لآثرت الاقامة على الشاطىء ، مع هذا الذل الذي تذكرين ، على ان اخلق العذاب واللوعة لأبي الحسن الي ، وادفعه بيدي الى الطواف في كل ارض باحثاً عن ابنته .

– قلت ان ابي لن يعود وأنا مؤمنة بما قلت .

– ولكن طارقاً سيعود ، ان لم يكن قد عاد اليوم .

– ليفعل طارق ما يطيب له .

– انه الفتى الذي تحبين ..
– أجل، وقد كتبت اليه اني احبه، واني لهبالروح، الى الابد وحسبه هذا..
قال : ألم يكن لمولاي ابيك سر لا يعرفه احد ؟
– بلى !
– ومن هو موضوع سره ؟
– انا !
– اذن فارفقي بنفسك ، واعلمي انه يجب ان تعرفي هذا السر الذي يتعلق بك قبل كل شيء .
فاضطربت قائلة : نعم هنالك سر لا أعرفه وهو يتعلق بي..ولكني سأعرفه وانا في الخليج عند بني سليم !
– وأي رجل ينقل اليك ذلك وانت في اطراف البلاد ؟
– أبعث بأحد العبدين الى مرو يحمل اليّ اخبارها .
– لا تستطيع العبيد ان ترى الاحنف بن قيس لتستطلع اخباره .
– ومع ذلك فأنا لا اريد ان امكث ببلد قريب من مرو الروذ .
– لماذا ؟
– لاني استلذ البعد الذي يقتلني !!!
قال : نمكث بمرو الاولى وهي بعيدة كما تعلمين .
– وتعرف فيها احداً ؟
– اعرف رجالا ليس من الرأي ان يروني فيها .
– واين نقيم ؟
– ببيت خارج السور ، بين البيوت التي يقيم بها الغرباء .
– وهل نسيت ان ماهويه من اصدقاء ابي ؟
– لم انس ذلك ، ولكن ماهويه لا يخطر له ان ابنة شهريار تنزل مع خدمها في بلده .
– وما هي الغاية من الرجوع الى مرو الشاهجان ؟
– ان اقرأ اخبار طارق واخبار مولاي ، عندما اشاء .

– وتمدني بكتمان الامر ؟
– اجل ، وسنظهر في مرو ، بمثل المظهر الذىعولنا على الظهور به ،عندما نلتهي إلى الخليج ، دون ان يتغير شيء .
فأحست عندئذ بشيء من الرجاء ثم قالت : الى مرو وليفعل الله ما يشاء .
وايقنت في تلك الساعة ، بأنها أعجز عـن ان تحتجب في خليج البصرة ، وتختنق هواها فيه ، الى الابد ... وكانوا قد ابتعدوا كثيراً عن مرو ، فانثنوا راجعين ، وهي لا تبالي بالمسالك الصعبة يقودها اليها سنـــان ، والتعب المضني الذي يضعف الجسم وينهك القوى . وكأنها راجعة ؛ لتضع يدها بيد الحبيب ، الذي وهبت له القلب والروح .

***

- ٦٥ -

خرج طارق وأبوه عبدالله ، والرجلان الفارسيـان ، برمي وخراذمهر في صباح اليوم الثاني ، ومعهم اثنان من رجال عبدالله . وقد راوا جميعهم ، ان يسيروا على الشاطىء ، حتى ينتهوا الى مرو الاولى ، ثم يذهبون بعد ذلك الى النواحي الاخرى التي يختارون . وكان الغرض من ذلك ان يمروا بمنزل شهريار ويسألوا ذلك الخصي الذييقيم به عما يعلم .وكان طارق اسبقهم الى ذلك المنزل، وطرخان جالس في الفناء ، وقد بدت اللوعة في عينيه . والوحشة الرهيبــة تبسط ظلها فوق اروقة المنزل وحجراته . فقال طارق والدمع يتلألأ في مقلتيه: لقد كان في هذا المنزل فتاة عندها العبيد والخدم فاين هي ؟
فرفع رأسه ببطىء قائلا : وكان فيه رجل من اهل خراسان يدعى شهريار الا تسألني عنه ؟
قال : رحم الله شهريار فقد قتله يزدجرد !
– ولا رحم الله يزدجرد قاتل الابرياء .. ثم قال : لقد بلغني خبر موته .
– ممن ؟
– خبرني به سنان بن سليم .

– وكانت الفتاة معه ؟

– اجل كانت اليتيمة معه ولكنها لم تمكث بهـــذا المنزل غير نصف يوم ثم غادروه جميعاً وجعلوني حارساً له كما ترى .

– ولا تعلم الى اين ؟

– سألني مثل هذا السؤال ، رجلان من رجال عامل المروين منذ بضعة ايام وكان جوابي : لا اعلم ..

– والان ؟

– والان ايضاً لا اعلم ..

قال : اني ابن اخي الاحنف امير هذه الديار .

قال : اقسم لك اني لا اعلم شيئاً .

– ولم تسمع ما تهامس به القوم ؟

– رايتهم ينقلون ما يطيب لهم حمله من اشياء هذا المنزل ، ثم احسنوا الي ببعض المال وامروني بان ابقى حتى يعودوا .

– ومعهم خيل ؟

– معهم اربعةبغال وفرس اشهب .

– وهل كانت الفتاة تبكي ؟

فهمّ بان يقول له انها لبست لباس الفتيان . ولكنه كان يخاف عاقبة مـــا يقوله ، فقال : خيل الي انها كانت تذرف الدموع ..

واقبل عبدالله والقوم وراءه ، فقـــال الرجل : أفلا يسألني هؤلاء عمـــا سألتني انت ؟

قال : هذا ابي ورفاق لي فلا تخف فانت في ظل العرب ولا بأس عليك .. دلني الان على الناحية التي اتجه إليها سنان .

فأوما الى ناحية الجنوب قائلا : على شاطىء النهر .

– ومشوا في وضح النهار ام في الليل ؟

– عند غروب الشمس أيها الامير .

فقال لأبيه : الم يقل للرجلين اللذين بعثتم بهما غير هذا ؟

– لم يقل لها ما يفهم منه انه يعرف شيئاً .

فحول وجهه عنه وهو يحبس الدمع ، ثم رأى ان يوجه اليه سؤالاً عن شهريار ، وابوه حاضر ، فقال له : قيل لي انك كنت من اصدقاء شهريار .

– صدق القائل .

– ومتى عرفت الرجل ؟

– منذ كان في البلاط .

– وكيف جعله الملك في بلاطه وهو لا يحبه ؟

– لا اعرف هذا يامولاي ولكني اعلم ان البغض نشأ في صدر شهريار ، بعد فرار يزدجرد من حلوان .

– وتعلم السبب ؟

– فر الملك وترك في حلوان احدى حظاياه ، وكانت تتألم على فراش الولادة وهي تدعى جهان روز .

– ثم ماذا ؟

– . ثم عرفت ان جهان روز ، المنكودة الحظ ، اسلمت الروح وهي على ذلك الفراش الذي ذكرت ، وطرح القدر بين يدي شهريار ، طفلتها التي اجهل اسمها ولا اعلم ماذا جرى لها بعد ذلك ..

– . ومن أمر شهريار بأن يمكث بحلوان الى جانب جهان روز ؟

– . انا ، وقد فعلت ذلك بامر الملك ورأيت شهريار راغباً في البقاء .

قال : يظهر انه كان يعرف المرأة من قبل .

– . قد يكون ذلك ، واعترف الآن ان رغبته في البقـاء ، كانت بادية في عينيه ، بل خيل اليّ في تلك الساعة ان في عينيه شيئاً آخر .

– . وهذا الشيء هو الحب ..

– . نعم يا مولاي !

فقال عبدالله : لقد سمعنا الآن مرة اخرى شيئاً من وصية الرجل وهـــذا يكفي .. ثم قال للفارسي : عندما يطيب لك ان تترك هذا المنزل فارحل الى مرو الروذ .

ـ . ولكني لا اعرف فيها احداً ايها الامير .

ـ . ان الكتاب الذي اسلمه اليك الآن يجعلك قريباً من عاملهـا الاحنف ابن قيس ، وهو اخي . .

وكتب الى الاحنف عندئذ، يسأله ان يجعل الرجل بين المقربين اليـه. ودفع اليه الكتاب وهو يقول : لك ان تنتقل من هنا عندمـــا تشاء . فحنى الخصي رأسه وفاضت دموعه تنطق بالشكر . ولم يبق لهم ما يصنعونه في ذلك المنزل ، فركبوا أفراسهم ومشوا على الشاطىء من ناحية الجنوب ، وعبـــدالله يقول في نفسه : جنينا على أنفسنا وعلى العاشقين . وكان طرخان يخاطب نفسه بعـــد ركوبهم قائلا : كان عليّ ان اذكر للفتى ان اليتيمة تلبس لباس الفتيان . .

* * *

- ٦٦ -

خرج ماهويه بنفسه ، يبحث عن سنان في مرو ، عندمـا انتهى اليه القوم ، وخبروه خبر رحيله الفجائي مع الفتاة . وارسل رجـال الشرطة وشيوخ الحي ليشاركوه في التفتيش . ولكنهم رأوا جميعاً ، بعد ثلاثة ايام ، ان الفتـــاة لا وجود لها في مرو وفي البيوت التي تجاور السور . وكيف يجدونها وهي لم تزل في البر ، تجتاز الصحراء وراء الصحراء ، وتصعد الجبل وراء الجبل ، في طريقها الى مرو . وكان عبدالله يريد ان يتعجل في الطواف ، فقال : الى البصرة . . .

فأجابه طارق قائلا : اي اننا نسير الى احياء العرب .

ـ . نعم وبعد ان نطوف فيها ننتقل الى ارض الفرس .

فمشوا في اليوم الرابع ، بعد غروب الشمس ، يتقدمهم خراذمهر وعبدالله ، وقضوا ليلتهم كلها على ظهور الخيل ، حتى بزغ الفجر ، فضربوا خيمتهم في سفح جبل واستسلموا الى الكرى . وقد نهك التعب القوى وخدّر الاعصاب . وبينا هم يغطون في نومهم ، ظهر في السفح ، من الناحية الاخرى ، فرس أشهب حوله عبدان ، ووراءه اربعة بغال ، على احدهـــا امرأة في خريف العمر . وكان الموكب موكب اليتيمة وهو راجع كما رأيت .

فقال سنان : أرى هنالك خيمة حولها الخيل .

فقالت الفتاة : لقد رأينا طوائف من الخيل وخياماً كثيرة قبل الآن .

– . ولكنها خيمة عرب كما أرى ولا توجد خيل العرب في ظل هذا الجبل الا لأمر ..

قالت : أترى رجالا ؟

– . لا ، وهذا ما يدفعني الى الدنو منها وسأفعل ، فانزلي عند هذا الكثيب من الرمل وسأعود . ومشى بخطى هادئة كأنـــه لص حتى دانى الخيمة فأبصر الرجال في زواياها وعند بابها كأنهم قتلى . وذعر عندما رأى طارقاً وعبدالله ، واشتد ذعره حين حدق الى برسي وجعل يتفرس فيه . ثم ارتجفت ركبتاه وكاد يسقط على الارض .

أينادي طارقاً فيقول له : ان اليتيمة بين يديك ، ام يعود الى اليتيمة فيقول لها : هذا هو طارق الذي تحفظين له الحب . وخاف ان يستفيق احدهم فيفسد عليه الامر. فآثر الرجوع ليستشير الفتاة ، على التردد في موقفه . وكان الكثيب يحجب رفاقه ، فلما انتهى اليه ، رأت اليتيمة عينيه المختلجتين، ووجهه الاصفر، وخيل اليها ان جسده يهتز ..

فقالت وهي خائفة : ماذا رأيت يا سنان ؟

– . رأيت ستة رجال ينشر الهدوء فوقهم جناحيه .

– . ويلك أيكون هدوء الموت ؟

– . بل هدوء النوم الثقيل الذي لا تزعج صاحبه العاصفة .

– . وهم من العرب كما قلت ؟

– . أجل يا مولاتي ومن اولئك النازلين في مرو الروذ !!!

فدلّها ذلك الشعور الخفي ، على ان طارقاً بينهم ، فخفضت صوتها قائلة : اذن لقد عرفتهم .

فتردد ثم قال : نعم ...

– . وهو بينهم ؟

– . هو وأبوه .

فوقفت الالفاظ عند شفتيها وأرخت نظرها الى الارض .

فقال : ماذا تريدين الآن يا مولاتي ؟ ان طارقاً على قيد ذراعين وقـد لا يمن الزمان باللقاء بعد هذا اليوم .

فلم تجب .. فقال : كلمة واحدة اقولها له فينتهي كل شيء .

— . ولكنني متهمة .. بل انا خائنه ... وخـير للخونة ان يخفوا وجوههم بالايدي عندما تقع عليهم العيون !!

قال: رأيت في القوم رجلا فارسياً يحمل اخبار ابيك شهريار على ما اظن.. ألا تذكرين برسي ؟

— . لا اذكر الآن احداً فمن هو ؟

— . هو ذلك الفارسي الذي مثل بين يديك في مرو وذكر لك الملك ..

— . وأي شأن لهذا الرجل مع طارق ؟

— . شأنه انه امسى مسلماً كما تعلمين ، وقد لقيه طارق في رحلته وقص عليه اخبار شهريار ، ثم طلب له ان يجعله رفيقاً له .

قالت : تحدثني بهذا كأنك كنت حاضراً ..

— . اجل يا مولاتي وهذا هو الواقع كأني أراه . ثم قال : قولي كلمتـــك قبل ان يفوت الزمان .

قالت : أيمر القوم بهذا المكان ؟

— . نعم وهذه هي الطريق الى البصرة .

— . اذن نبتعد عنها حتى يمروا او نصعد في الجبل .

— . ولا ترين طارقاً ؟

— . لا استطيع ذلك لاني اخشى ان تكون التهمة باقية في صدر ابيه .

— . لو كانت باقية لما خرج الاثنان يريدان البصرة ليبحثا عنك .

— . ومن قال لك انهما يريدانها من اجل هذه الغاية ؟

— . هذا ما يبدو لي .

فأطرقت قليلا ثم قالت : سنكون في مرو عنـد غروب الشمس كما قلت ، أليس كذلك ؟

– . بلى !

– . اذن نمكث بها حتى تلمس براءتي بيديك او تسمع حـــكم البراءة من فم الاحنف نفسه ..

– . وبعد ذلك ؟

– . تقول بعد ذلك لطارق ان اليتيمة في مرو ، فيجتمع الشمل ..

– . بل اقول له ذلك في هذه الساعة .

قالت : لا تنس ان شرفي لوثته الاقاويـــل فليس من الرأي ان استسلم الى عاطفتي قبل ان يغسل العار الذي لحق بي ..

قال : ارى انك ستسمعين الآن حكم البراءة من فم عبدالله .

– . وقد اسمع من جديد حكاية التهمة فاقتل نفسي فخير لي ان انصرف الى مرو اعالج فيها جراح قلبي وابكي هواي .

فحاول ان يجيب فأسكتته قائلة : لا تزد ، فشرفي قبـل كل شيء ، ومن لا شرف له لا عهد له ..

قال : سيستفيق القوم يا مولاتي بعد ساعة .

– . اما نحن فنرحل الآن عن هذا المكان حتى ينصرفوا ..

وركبت فرسها ، وتقدمها العبدان الى منحدر يشبه الكهف يبعـــد مئة ذراع ، وتبعها القوم فنزلوا في ظله وهم يرون دموعها على الخـــدين . ولم يجسر سنان بعد ذلك على ان يقول كلمة ، فقد رأى غرامها يسقط عاجزاً تحت عامل الكبرياء . وظل القوم نائمـــين حتى كان الظهر ؟ فأكلوا ، ثم حمـــلوا خيمتهم واشياءهم ومرت افراسهم بالقرب من ذلك المنحدر وهم لا يرونه ، وقد فات ذلك العاشق الوفي ، ان الفتـــاة التي يشقى في سبيل العثور عليها هي على قيـــد ذراعين منه .

أجل ، لقد فصلت الكبرياء في تلك الساعة ، بين الحبيبـــين ، بل فصل الشرف الرفيع بينهما ... ذلـــك الشرف الذي اهـين ، وهو شرف الملوك . وأحسّت اليتيمة ان قلبها وثب من صدرها ليلحق بالحبيب .. فأغمضت عينيها، ثم استندت الى ذراع سنان وتمتمت قائلة : اكاد اموت .. ولكني لا اريـد ان

أراه .. فأنا خائنة ! وكان كلامها همساً لم يسمعه العبدان . وبعد ساعة ، توارى القوم عن عينيها في منتهى الافق . فحولت وجهها وقد عاد اليها شيء من الرجاء ثم قالت : الى مرو ، فالشرف قد ظفر اليوم وسيظفر غداً .

وكان سنان يقول في نفسه : لم أرَ بين النساء فتاة أطهر قلباً وأعزّ نفساً من هذه .

* * *

- ٦٧ -

تنكر عبدالله بن قيس ومن معه ، في البصرة ، خوفاً من ان ينتهي خبرهم الى عبدالله بن عامر . ولم يكن من الرأي ، ان يطلع امير البصرة على الغاية التي قدم من اجلها القوم . بل لم يكن من الرأي ان يعلم ، ان ابن قيس ، وهو سيد بني تميم بعد اخيه ، ترك مرو بدون اذنه . ولو عرف ذلك ، لظن الظنون ، واتهم الاحنف واخاه ، بانهما يشايعان الجماعة التي تعيب امير المؤمنين وتسبّه . أجل ، كانت الاخبار ، تبلغ ابن عامر ، من مصر والكوفة ، ومن نواح اخرى ، ان الناس يعيبون عثمان في مجالسهم ، وينكرون عليه ايثاره انسباءه على اصحاب الفضل من المسلمين ، وان لهم انصاراً في بعض اقاليم العراق وخراسان . وهي اخبار تظهر فيها اصابع الفتنة ، ومن حق امير البصرة ، ان يضطرب لها ، ويعدّ العدّة للقضاء ، على كل من تحدثه النفس ، في ولايته ، بان يكون شريكاً للقوم في التعييب والشتم ... وكان بنو تميم ، يعرفون ذلك ، وقد سمعوا ما سمعه ابن عامر ، ولكنهم لم يعبأوا به ، ولم يهتموا له ، وهم في الميادين . وقد قام في اذهانهم ، انها أقاويل واصوات ، لا يلبث عثمان بن عفان ، حتى يطمس آثارها ويخمدها بالسيف . وكان اهل البصرة ، يتناقلون الروايات ويتحدثون بأمر عثمان ، ولكن لم يخطر لهم ان يشتموه كما يفعل الناس في الكوفة ومصر . وابو طارق يسمع ذلك ولا يبدي رأياً ، بل كان يسأل في الاحياء عن المكان الذي ينزل فيه بنو سليم . ودلوه اخيراً على الخليج ، فأتاه وهو واثق بان سناناً لجأ اليه ، ليقيم بين ابناء قومه . اما بنو سليم ، فكانوا كلهم على الخليج كما قيل له ، الا بعض الفتيان والرجال ، الذين أبعدتهم الحروب عن العشيرة .

وسيد القوم عروة بن فهر . فرأى عبدالله ان يبوح له بسره ، ويسأله ان يكتمه قومه ، ويكون عوناً له في البحث عن سنان .

وكان عروة من اصحاب المروءة والشرف ، ومن ابطال العربان . وقد آثر عبدالله ان يستأذن عليه في الليـــل ، خوفاً من ان يلفت نظر العشيرة ويخلق الظنون . فلما آوى القوم الى خيامهم ، دخل عبدالله وطارق ، وحدهما وعنـــد عروة احد اعمامه وولداه ، وعبـدٌ له . وكان قد عرف ان القوم الذين قدموا الحي ، وطلبوا ان يروه قوم من عرب خراسان ، فقال : انكما اثنان وقد قيل انكم ستة رجال ..

فقال عبدالله : صدقت وان رفاقنا الاربعة ينزلون في الحي .

قال . اهلاً فمن انتم . اني اسمع لغة تميم ..

فدنا عبدالله قائلا : لنا ما نقوله لك قبل ان نجيب عما تسأل .

-- . قل ..

— . لا نقول ذلك الا للأمير وحده .

فأومأ الى عمه وولديه ان اخرجوا ، ثم قال : اني سامع .

قال : عبدالله بن قيس التميمي وولده ..

فوثب قائلاً : سيد بني تميم وبطلهم في خيمتي وانا قاعد ؟! اجلس ايها الامير ومر بما تشاء فبنو سليم من جنودك ..

قال : اسألك اولا ان تحفظ في الصدر ما اقوله لـك وان لا تذكر للعشيرة اسمي واسم طارق .

— . سيكون لك ما تسأل .

قال : أتعرف رجلا من بني سليم يدعى سناناً ؟

فأجابه قائلا : في العشيرة رجال كثار يحملون هذا الاسم .. سنان بن مرة ، وسنان بن خازم ، وسنان بن همام فأيهم تعني ؟

— . أعني رجلا لم يكن مقيما على الخليـج .

— . وبأي بلد كان يقيم ؟

— . على شاطىء المرغاب بين المروين ، في منزل رجل خراساني يقـــال له

شهريار ولهذا الرجل فتاة ..

– عرفته فهو سنان بن عقبه وقد ترك العشيرة من بضعة عشر عاماً ولم يخطر له ان يعود .. ثم قال : ما هو غرضك من السؤال عنه .

– . اسأل عن الفتاة التي ذكرتها الآن فطارق يحبها .. !

قال : ويلٌ للشقية .. وهل تهرب من طارق وهو كما أرى ؟!

– . بل تحبه .. حتى لتبذل حياتها في سبيل هذا الحب ..

– . وماذا اذن ؟

فحدثه عندئـذ بكل ما جرى ، ولكنه لم يقل له ان اليتيمة ابنة الملك الفارسي الذي قتله قومه . فوضع يده على جبينه ثم قال : لا أظن ان الرجل لجأ الى العشيرة لأني لم اسمع انه قدم الخليج ، ومع ذلك فسأنظر غداً في الامر وابعث بولديّ يبحثان عنه من وراء الستار خوفاً من ان يعلم بالأمر فيعمد الى الاستخفاء .

– . ويذهب طارق معهما ..

– . ليكن ذلك ، وسيقولان للقوم انه ابن خال لهما وقد قدم امس . وخرج الثلاثة عند الصباح وجعلوا يدخلون البيوت بيتاً بيتاً ويسألون اصحابها ، بالحيلة والدهاء ولكنهم لم يجدوا لسنان أثراً حتى ان معظم اهل الحي كانوا يجهلون من هو . وأعادوا السؤال ، ثلاث مرات ، في ثلاثة ايام ، ثم خرج الامير بنفسه فلم يكن أسعد حظاً من ولديه . فقال لعبدالله : لم يبق الا ان اخفي وجهي بين يدي خجلاً منك فقد انتهى امرك بالخيبة في حي بني سليم وهذه اول مرة تسألني فيها قضاء حاجة لك .

– . ولكن ليس عليك ذنب في هذا واني احفظ لك هذا الفضل .. والآن فنحن نرحل .

– . في مثل هذه السرعة ؟

– . أجل !

– . الى أين ؟

– . لا تسألني عن هذا فأنا لا اعلم الى اي بلد أسير .. بلى ، اعلم ان العاطفة

لي عليّ ان اجيء الى هذا القطر ثم انتقل منه الى قطر آخر حتى تمر الايام ،وقد تمر الاشهر والاعوام ، وانا لا حظ لي ، أو ابلغ الغاية .
- وتريد ان اكون من رجالك في هذه الرحلة .
- بل اريد ان تكون عينا على الحي فقد يأتيه سنان في زمن آخر .
قال : هب انه اتاه فأين تكون انت لأكتب اليك ؟
- تكتب الى الاحنف الذي لا يترك مرو .
فوعده بذلك ، وانصرف القوم يريدون احياء العرب بين البصرة والكوفة لم يلتهون الى الكوفة نفسها وينثنون بعـــد ذلك الى الطواف في العراق كله . وكان احب الى عبدالله ، ان يقضي عمره بعيداً عن قومه ، من ان يعود وطارق العاشق يتعثر بفشله . ذلك هو احساس الوالد البار ، وشعوره من الناحيـــة الاخرى ، بان التهمة التي وجههـــا هو وأخوه الى اليتيمة ، هي اصل البلاء . فكان طوافه كما رأيت ، مظهراً من مظاهر الندم والاستغفار .
على ان ذلك السفر الشاق ،وذلك الطواف المضني ،لم يكونا مثمرين ،فالقوم في الغرب واليتيمة في الشرق ، وقد مرت الاشهر كما قال عبدالله ، ثم انقضى العام دون ان يسمعوا جواباً واحداً عما يسألون .
وطارق يذوب شوقاً وغراماً ، ولكن دون ان يهدأ او يمل حتى انهم زاروا احياء العرب جميعها لم يتركوا منها حياً واحداً ...ولم يبق الا ان يجعلوا وجهتهم احياء الفرس . وكانت اخبارهم تنتهي الى الاحنف كل شهرين ، فتضطرب نفسه لهذا الفشل المستمر ، ثم ينسى بعد ذلك ما سمع ، وينصرف الى الاهتمام لما يصل اليه من اخبار الفتنة التي تمتد اصابعها في الاسلام اما اليتيمة فكانت قد امست في مرو ، فتى يقال له شهريار كما مر ، ولكن ذلك الفتى صاحب الضفائر الطويلة المرسلة الى وجهه وكتفيه .. ذلك الفتى الجذاب الملامح ،الساحر العينين لم يكن من اولئك الفتيان ، الذين يخرجون الى الصيد ، والى ميـادين السباق .. بل لم يكن طيش الشباب وزهوه ، ظاهرين في احتجابه وظهوره ، ورواحه ومجيئه . كأنه زاهد ليس للحياة قيمة في نظره . وتستطيـع ان تقول ، ان الناظر اليه ، لم يكن يقرأ الحياة الا في عينيه . ! فهو كالصنم ألبسته السكينة ثوبها الفضفاض. ويقول الناس الذين تجاور منازلهم منزله ، انهم لم يسمعوا له صوتاً ولم يروا غير

الجانب الاعلى من وجهه ، حتى وثقوا اخيراً بأنه لا يطيق ان يجالس احداً او يوجه كلمة الى احد .

واذا سألوا سناناً وزوجته اوالعبدين ، قالوا : هذا مولانا احد نبلاء الفرس ، برح به الحزن كما ترون بعد موت ابيه .

ولم يكن فيما يقولونه شيء من الغلو ، فالحزن الصامت يبدو في جميع مظاهره ، والكآبة تخرج بليغة حادة من سحر عينيه . والهزال والضعف ينشبان مخالبهما في جسده ، حتى خيل اخيراً الى سنان ان الموت يدنو منه . وخاف اذا هو سكت عما يراه ، ان يمد يده فينتزع روحه. ولكنه كان يصطدم ، كلما حدثه بالامر ، بتلك الكبرياء الثابتة التي لا تتزعزع والتي كانت تهدد حياته . وكان مقامه خارج البلد ، في خيام ثلاث له ولمن معه ، تحيط بها مظاهر الفقر الذي لا يلفت النظر .

وقد وفى سنان بما وعد ، فهو يذهب كل شهر متخفياً الى مرو يسأل عن طارق وعن شهريار . ولكنه لم يكن يجسر على الدخول الى قصر الامارة ، خوفاً من ان يسيء الاحنف ظنه به . وكان ينقل الى الفتاة جوابا واحداً هو ان الاثنين لم يرجعا !!

حتى ضاق صدره ورأى ان الاستسلام الى كبرياء اليتيمة عاقبته الهلاك ، فعول على ان يبوح للاحنف بكل شيء ويسأله الكتمان . وليس في عمله خيانة للفتاة ، فصدر سنان لا ينطوي على خيانة وإنما كان هنالك اخلاص ووفاء يوحيان اليه بان يفضح الاسرار .

اجل ، لقد رأى مولاته تمشي الى الموت بخطى واسعة فآثر ان يخونها في سرها ، على ان يضيعها الى الابد . وصبر مطمئناً واثقاً ريثما يمر الشهر ، ولم يكن يفكر في ذلك الحين الا في ناحية واحدة هي انقاذ الفتاة التي هي احب الناس اليه . ووسيلة الانقاذ واحدة ، هي ان يهامس الاحنف بما يعلم ، ثم يجمع العاشقين بعد ذلك وينتهي الامر .

وقد رأت اليتيمة شيئاً جديداً في عينيه فقالت له : يظهر ان في صدرك سراً تكتمني اياه .

– وما الذي دلك على ذلك ؟
– هذا البريق الذي يبدو في عينيك .
قال : انه بريق الامل يامولاتي .
– واي امل هذا وانا لا اسمع غير جواب واحد تقوله لي .
– امل رجوع الحبيب الى مرو فقد انقضى عام كامل على غيبته ولا بد من ان يعود .

– اما انا فقد خسرت هذا الامل وهب ان طارقاً رجع اليوم فاليتيمة لا تزف اليه وهي الخائنة وهو الشريف . !!

قال : ستظهر البراءة يامولاتي ظهور الشمس ان شاء الله ، وستمسين زوجة للفتى النبيل الذي يشقى في التفتيش عمن يحب .
فتمتمت قائلة : لا تظهر هذه البراءة الا بعد ان توضع جثة اليتيمة تحت التراب .

ودخلت عندئذ خيمتها لتستسلم ، على عادتها الى البكاء ، وهي لا تعلم انها تلقي بنفسها فيما تصنع ، الى هوة بعيدة الغور . . .

* * *

اقبلت السنة الثالثة والثلاثون ، فغزا معاوية بن ابي سفيان حصنا في ارض الروم ، يقال له حصن المرأة ، فتم له النصر ، وفتح ما جاوره من نواحي ملاطية .

وغزا افريقية ، عبدالله بن سعد بن ابي سرح ، غزوته الثانية ، حين بلغه ان اهلها نقضوا العهد : ثم انتهى الى معاوية ان اهل قبرص ، نقضوا عهدهم كافعل الافريقيون ، واعانوا الروم على الغزو في البحر . فركب معاوية البحر الى قبرص ، ولم يلبث حتى أخضعها بالسيف وقتل طوائف من رجالها وسبى الكثير من النساء . وعندما كانت قبرص تعاني ما تعانيه ، من فظاعة الحروب ، وافريقيا – اقليم طرابلس الغرب – يئن من الالم ، وجنود العرب في الناحيتين ،

يمشون الى الامام ، كان الشر في الكوفة ،وفي غيرها ينتشر ويمتد ، والنار ترسل ألسنتها ولهيبها الى الاقطار ، كلما عصفت الريح ..

وماذا يصنع سعيد بن العاص والي الكوفة والقوم لا يسمعون له ، ولا يصغون الى ما يخاطبهم به ؟ كانوا يطيعونه فعصوه ، وامسى الوجوه الذين هم اركان امارته ، واصحاب الصوت في العشائر ، اعداء له . وقد نشأت هذه العداوة في ليلة اكفهر فيها وجه السماء ٠

مالك بن كعب الارحبي ، والاسود بن يزيد ، وعلقمة بن قيس ، وما لك الاشتر ، وصعصعة بن صوحان ، واربعة آخرون من وجوه اهل الكوفة كانوا يسمرون عند سعيد ويقضون لياليهم في مجلسه . فقـال سعيد في تلك الليلة وهم يتحدثون بأمر الاسلام : انما سواد العراق بستان قريش . فقال الاشتر : اتزعم ان السواد الذي افاءه الله علينا باسيافنا بستـان لك ولقومك؟ وتكلم القوم مثله ، فقـال عبد الرحمن الاسدي وكان على شرطة سعيد : اتردون على الامير مقالته ؟

وأغلظ لهم ، فقال الاشتر : لا يفوتنكم الرجل . فوثبوا عليـه ووطئوه بارجلهم وطأً شديداً حتى اغمي عليه .

ثم نضح بماء فأفاق ، فقال : قتلني ايها الامير من انتخبت

فقال سعيد : والله لا يسمر عندي احد ابداً .

وجعل القوم يجلسون في مجالسهم ويشتمون سعيداً ، ثم امعنوا في شتم عثمان واجتمع اليهم الناس يفعلون مثلهم حتى كثروا وكادت السيوف تخرج من الاغماد. فكتب سعيد واشراف قومه الى امير المؤمنين يسألونه اخراجهم من الكوفة ،

فأمر بان يلحقوهم بمعاوية وكتب اليه : ان نفراً قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانههم ، فان آنست منهم رشداً فاقبل ، وان اعيوك فارددهم علي . فلما قدموا الشام ، انزلهم معاوية كنيسة يقال لها كنيسة مريم ، واجرى عليهم بأمر عثمان ، ما كان لهم بالعراق وكان يتغدى ويتعشى عندهم ، ثم قال لهم : انكم قوم مـن العرب لكم اسنان وألسنة ، وقد ادركتم بالاسلام شرفا وغلبتم الامم وحويتم مواريثهم ، وقد بلغني انكم تبغضون قريشاً ، ولو لم تكن قريش ، كنتم اذلة ،

ان ائمتكم لكم جنة فلا تفترقوا عن جنتكم ، وانهم يصبرون لكم على الجـور ويحتملون منكم المؤونة .

فقال صعصعة : اما ما ذكرت عن قريش فانها لم تكن اكثر العرب وامنعها في الجاهلية فلا تخوفنا بها .

قال : عرفتكم الان ، وعلمت ان الذى اغراكم على هذا قلة العقول ، وانت خطيب القوم ولا ارى بك عقلاً .. ثم قال : اعظم عليك امر الاسـلام حتى لذكرني بالجاهليـة .. ألا فليخز الله اقواماً عظموا امركم ... ان قريشا لم تعز بالجاهلية والاسلام الا الله عزّ وجل وهي لم تكن اكثر العرب واشدها ، ولكن كانت اكرمها انسابا واحضها احسابا واعظمها اخطاراً واكملها مروءة، ولم تمتنـع في الجاهلية ، والنـاس يأكل بعضهم بعضاً الا بالله الذي بوأهم حرما آمنا هل تعرفون عربياً او عجمياً او اسود او احمر الا وقد اصابه الدهر في بلده وحرمته؟ الاما كان من قريش، فانه لم يردهم احد من الناس بكيدالا جعل اللهخدهالاسفل، حتى اراد الله ان يستنقذ من اتبـع دينـه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ، ثم ارتضى له اصحابا خيارهم قريش . ثم بنى هـذا الملك عليهم ، وجعل هذه الخلافـة فيهم ، وكان يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم، افتراه لا يحوطهم وهم على دينه ؟! افٍ لك ولاصحابك . لقد كنت شر قومك يا صعصعة ، حتى اذا ابرزك الاسلام ، وخلطك بالناس وحملك على الامم التي كانت عليك اقبلت تبغي دين الله عوجاً وتنزع الى الفتنة !! الا ان الشيطان قد علم انه لا يستطيع ان يرد بكم قضاءً قضـاه الله او امراً اراده الله وانكم لا تدركون بالشر امراً ابداً الا فتح الله عليكم شراً منه ..

ثم تركهم ومضى ، فلما كان بعد ذلك اتاهم فقال :ان رسول الله ﷺ كان معصوما فولاني وادخلني في امره ، ثم استخلف ابو بكر فولاني ، ثم استخلف عثمان فولاني ، ولم يولني احد منهم الا وهو راض عني ، وانمـا طلب رسول الله للاعمال اهل الجزاء من المسلمين ولم يطلب لها اهل الاجتهاد والجهل ، وان اللهذو سطوة يمكر بمن مكر به ، فلا تعرضوا لامر وانتم تعلمون من انفسهم غير ما تظهرون .. انظروا فيما ينفعكم وينفع الناس واطلبوا الخير لهم .

فقال صعصعة : لست باهل ذلك ولا كرامة لك ان تطاع في معصية الله .

قال : أليس اول ما ابتدأتكم به ان امرتكم بتقوى الله وطاعة نبيه وان تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ؟

– بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي .

قال : ان كنت قد فعلت فأتوب الى الله وآمركم الآن بتقواه وان تدلوا أئمتكم على احسن ما قدرتم عليه .

– اما نحن فنأمرك بأن تعتزل عملك فان في المسلمين من هو أحق به منك ، من كان ابوه أحسن قدماً في الاسلام من ابيك وهو أحسن فيه قدماً منك .

قال : اذا كان غيري أحسن قدماً في الاسلام فليس في زماني احد اقوى على ما انا فيه مني .. ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب ، فلو كان غيري اقوى مني لما رحمني ... واني لم احدث حدثاً ينبغي لي معه ان اعتزل عملي ولو رأى ذلك امير المؤمنين لكتب اليّ فاعتزلت عمله . فأسمعوه عندئذ ما لا يحب ، وقد رأى الفتنة تملأ قلوبهم ، وانهم سيسعرون نارها ان لم يتدبر عثمان الأمر . فقام من عندهم وكتب الى عثمان : « سيرت اليّ قوماً ليست لهم عقول وأديان ، أثقلهم الاسلام وأضجرهم العدل ، لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنة وأموال اهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ، ثم فاضحهم ومخزيهم ، فانه سعيداً ومن عنده عنهم ، فانهم لا يريدون إلا الشر .

فأمره عثمان بأن يردهم الى سعيد بن العاص بالكوفة . فردهم اليه ، فكانوا حين رجعوا ، أطلق ألسنة وأشد بغضاً .. فضج سعيد منهم بل ضجت الكوفة كلها وسارت الرسل تحمل اخبارهم من جديد الى الخليفة ، فكتب الى سعيد : اذا أتاك كتابي فابعث بهم الى عبد الرحمن ، بن خالد بن الوليد ، وكان عاملاً على حمص .

وكتب الى الاشتر واصحابه : اما بعد فاني قد سيرتكم الى حمص فاخرجوا اليها فانكم لستم تألون الاسلام واهله شراً والسلام .

فلما قرأ الاشتر الكتاب ، قال : اللهم اسوأنا نظراً الى الرعية وأعملنا فيهم بالمعصية فعجل له النقمة !

وسمع سعيد بن العاص ما قاله ، فخبّر امير المؤمنين ، وامير المؤمنين يحفظ ما يسمعه في الصدر والألم يملأ فؤاده . وسار الاشتر واصحابه الى حمص ، فأنزلهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، الساحل وأجرى عليهم رزقاً . وكان قد انضم اليهم ثابت بن قيس النخعي ، وكميل بن زياد النخعي ، وزيد بن صوحان اخو صعصعة ، وجندب بن زهير الغامدي ، وجندب بن كعب الازدى ، وعروة ابن الجعد ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وابن الكواء .

وكان ابن الكواء اذا سئل عن معاوية يقول : انه بعيد الثرى ، كثير المرعى ، طيب البديهة ، بعيد الغور ، الغالب عليه الحلم ، ركن من اركان الاسلام .

واذا سئل عن اهل المدينة قال : هم أحرص الأمة على الشر وأعجزهم عنه .

وكان يقول عن اهل الكوفة : انهم يردون جميعاً ويصدرون شتى .

ويقول عن اهل مصر : هم أوفى الناس بشرّ وأسرعهم ندامة ، واما اهل الشام فهم أطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمغويهم ..

وكثر النفي في ذلك الحين ... النفي السياسي الذي يحدث مثله اليوم وفي كل زمان ومكان . هذا رجل يرفع صوته بالشكوى . فيخرجه عمال عثمان الى بلد آخر ليخمدوا صوته فيزيد ارتفاعاً .. وهذا آخر يهامس الناس في السوق او في المسجد ، فيظن اولئك العمال انه سيفسد على الخليفة امره فيأمرون بابعاده ! حتى تحدثت الوفود واهل المدن بما يرون ، وخرجت الألسنة النامة عن سكوتها تملأ النواحي كذباً وتوغر الصدور .

وقد بلغ عبدالله بن عامر ، وقتئذ ان في عبد القيس في البصرة ، رجلاً نازلا على حكيم بن جبلة . وحكيم بن جبلة رجل لص ، يتنحى عن الجيوش وهي راجعة فيسعى في ارض فارس ، ويغير على اهل الذمة ، ويتنكر لهم ويفسد في الارض . فشكاه الناس الى عثمان ، فكتب الى عبدالله : ان احبسه فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً . ففعل عبدالله ما امره به ثم بلغه كما قرأت ، ان رجلاً نزل عليه وقد اجتمع اليه نفر ، فدعا الرجل وقال له : من انت ؟

وكان يدعى عبدالله بن سبا وهو المعروف بابن السوداء .

فقال : رجل من اهل الكتاب رغبت في الاسلام وفي جوارك .

قال : لا حاجة لي الى ذلك ، اخرج عني .

فانصرف ، حتى اتى الى الكوفة . ولكنهم اخرجوه منها الى مصر . وفي مصر جماعة لا تحب عثمان ، كما عرفت . فجعل يكاتب انصاره ، ويكاتبونه ، وتهيأت الافكار لفتنة هوجاء طائشة تلتهم اليابس والأخضر ، وبدأ الناس ، في كل اقليم ، وكل بلد ، يرون طلائعها بادية على الوجوه ، ويستمعون الدعوة اليها تتناقلها الافواه . وقد عرف القوم ، في جميع الاقطار ، ان اعداء امير المؤمنين سيجتمعون ، وقد يمثلون بين يديه في المدينة ، ليذكروا له جميع ما يفكرون فيه ، من نواحي الاصلاح في الدولة ...

***

- ٦٦ -

انقضى ذلك الشهر ، الذي جعل سنان آخره ، موعداً للذهاب الى مرو الروذ ، حاملاً الى الاحنف اخبار اليتيمة الساحرة . وكان قد ضيّع صبره ، وخاف ان يمد الموت يده الى مولاته قبل ان يعود طارق ويتلاقى الحبيبان . فلما همّ بالذهاب قال لليتيمة : قلبي يحدثني بأني سأرى طارقاً ..

– اما انا فلا اؤمن بالأحاديث التي يهامسني بها القلب ...

لقد نسي طارق ابنة شهريار وهو يبحث اليوم عن فتاة تليق به وتصلح للانتماء الى قومه ..!

– بل هو يبحث عن الفتاة التي اختارها لنفسه ولا يطيب له عيش إلا اذا اجتمع الشمل .

قالت : لو عرف اني في مرو ، لانتقل الى العراق فراراً من الخائنة التي ارادت ان تجعل السم في طعامه ، وطعام عمه وابيه .

قال : انها ذكرى مؤلمة يا مولاتي فانسي ما مضى .

– وكيف انسى ، وقد سمعت التهمة تقذف بها شفتاه : ورأيت الدموع ،

دموع القهر ، تتلألأ في عينيه .
– بلى هي دموع الحب الذي لا يبـالي بالتهم ، ولا يصدق الاكاذيب التي تنقل اليه .
– اجل ، وانه لحبٌ ذلك الذي يدفع صاحبه الى الطواف في الاقاليم باحثاً عن حسناء يتخذها زوجة له !!
قال : ماذا تقولين يا مولاتي لو عرفت غداً ان طارقاً لا يطلب في طوافه غير اليتيمة ابنة شهريار ?
– ومن يستطيع ان يثبت هذا ?
– انا ... ثم تلمسينه باليدين .
قالت : انظر عندئذ في الأمر من ناحية اخرى .
– ما هي ?
– هي ان اصفح عما بدر منه ، واسأله ، باسم الحب ، الذي جعلنـا نفساً واحدة ان يتزوج سواي !!
– وما معنى ذلك ?
– معناه اني لن اطمع بالحياة ، بعد هذا الضعف الذي انتهيت اليه ..
– بل تكون الحياة مجالاً للعيش الطيب والأمل الضاحك .
وحوّل وجهه ليمسح دموعه ثم قال : اني ذاهب الآن وسأحمل اليـك بعد رجوعي ان شاء الله اخبار الحبيب الباقي على العهد ...
وخرج دون ان يزيد كلمة وكان يقول في نفسه : الويل لي ولطارق اذا جار القضاء.وأنشب الموت في هذا الغصن النضير مخلبه الدامي .
وظل يردد قوله والخوف يملأ فؤاده حتى قدم مرو ووقف ببـاب الاحنف يستأذن عليه .

وكان الاحنف مضطرب الذهن لما يسمعه من اخبار الفتنة . فلما دخل سنان جعل يتفرس فيه ثم قال : والله انـك لسنان مولى شهريار الخراساني .. ونهض فوضع يده على كتفه وتمتم قائلاً : اني غير مخطىء فأنت هو ... فحنى الرجـل رأسه وقال : أجل اني سنان يا مولاي .

– وكيف خرجت من مرو ؟
– كما يخرج جميع الناس في كل يوم وكل ليلة .
وكان قلب الاحنف يرقص في صدره من الفرح فقال : وأين اليتيمة ؟
– في موضع قريب من مرو لا يخطر لأحد انها فيه ثم قال : أراك تسأل عن الفتاة يا مولاي ولا تسأل عن ابيها ..
– أجل فقد ضيعت يتيمتك ولم أضيع شهريار ..
– وهل وجدته يا مولاي ؟
فعرف الاحنف عندئذ ان الرجل لا يعلم شيئاً من امر مولاه فقال : نعم وجدته ولكني لم أره ...
– وفي أي بلد هو ؟
فابتسم قائلاً : من الرأي ان تدلني اولاً على البلد الذي تقيم به الفتاة ثم تعرف بعد ذلك كل شيء .
قال : لقد اتيت الآن يا مولاي لأدلك على ما ترغب فيه .
– اذن قدمت مرو من اجل هذه الغاية .
– نعم لو لم تكن هذه غايتي لما طاب لي ان استأذن عليك وأمثل بين يديك في هذه الساعة .
– وما الذي دعاك الى ذلك وقد مضى عليك اكثر من عامين وانت وراء الحجاب ؟
– رأيت الموت يمشي بخطى متثاقلة فخفت ان يضرب ضربته وانا لا استطيع الدفاع ..
قال : لا يجسر هذا الموت على الدنو منك ..
– ولكنه يجسر على الدنو من الفتاة التي افديها بدمي .
قال : ويلك وهل تذكر الموت عندما تذكر ابنة .. شهريار ؟
– أجل يا مولاي اذكره كلما ذكرتها وانا خائف من ان ينتهي الأمر بما اكره ، وبما ينغص العيش على طارق ابن اخيك .
قال : يخيل الى من يسمع قولك ان الفتاة على فراش الموت ..

- لا يا مولاي انها تروح وتجيء ولكن الموت يكمن لها في ثوبها وهي تحس ...

قال : خبرني بما جرى لها ولا تحدثني بالألغاز ... أين هي الفتاة اليوم ؟

- في مرو الاولى يا مولاي .

قال : كذبت فعبدالله وطارق لم يجدا لها في مرو أثراً .

- لقد خرج الاثنان من مرو قبل ان ندخلها نحن .

قال : تركتما هذا البلد الى منزل شهريار على الشاطىء أليس كذلك .

- بلى !

- ثم ماذا ؟

- ثم انصرفنا منه نريد البصرة ومنها الى الخليج .

- وهذا كذب ، فاليتيمة لم تذهب الى الخليج كما ذكرت .

- قلت انها ارادت الذهاب اليه ، ثم عدلت عنه ، وقد رأيت طارقاً وعبدالله ورأتهما هي ، ونحن راجعان ..

وقص عليه حكاية الخيمة ، واستخفاء اليتيمة في ذلك المنحدر خوفاً من ان تراها العيون .

قال : أتحتجب مولاتك عن الفتى وهي تحبه ؟

- نعم يا مولاي وقد آثرت الاحتجاب على الظهور ليسلم الشرف الذي أهين ولو اختنق ذلك الحب !

قال : أمرتك بأن تكون صريحاً فلم تفعل .

- بل فعلت وانا أخبر الامير الآن كل شيء .

- وأي شأن للشرف بما جرى ؟

قال : أتهمت اليتيمة بأنها خائنة ، بل أتهمت بأنها قاتلة وهي تحمل السم لتجعله في طعامك وهذا يكفي !

فوضع الأمير يده على جبينه وقال : صدقت فقد وجهت اليها هذه التهمة من قبل .

- واليوم ؟

– اما اليوم فقد ثبت لنا ان الذي سعى بها كان تماماً كاذباً ، وانها البريئة التي يجب ان تتلاشى عند قدميها التهم والظنون .

فتنهد قائلا : الحمد لله فقد نجت الآن ، والأمير وحده يستطيع انقاذها مما هي فيه ...

قال : سأقول لها اني كنت مخطئاً فيما فعلت فينتهي الأمر .

– بل تقول لها يا مولاي ان طارقاً تعجل في أمره ، وقد ندم على ما جرى وخرج الى الاقاليم يسأل عنها ليعيدها اليه .

قال : سأفعل ذلك وستعود اليها العافية ان شاء الله .

قال : أخشى ان يسبقنا اليها الموت !

– اما انا فلا اخاف هذا الموت لأن الحب سيظفر به ، ألم تقل انها في مرو ؟

– بلى يا مولاي .

– وكيف ضيّعها ماهويه وقد اوصاه عبدالله بأن يجعل عيونه في الاحياء ، من اجل هذه الغاية ؟

– لا يستطيع طارق نفسه ان يعرفها يا مولاي .

– لماذا ؟

– لأنها أمست جسماً دبّ الفناء فيه ، وهنالك شيء آخر هو انها تلبس في مرو لباس الفتيان .. ثم قال : متى يعود طارق ؟

– انه في بلاد خراسان وسيعود عندما اكتب اليه .

قال : لي سؤال آخر يا مولاي .

– سل ما تشاء .

– رأيت مع الأميرين ، في تلك الخيمة التي ذكرتها لـــك رجلين فارسيين احدهما برسي احد خصيان الملك فأي شأن لهما ؟

وكانت الدموع عندئذ تجول في عينيه . فقال الاحنف : اما الرجــل الآخر فهو خراذمهر صاحب جبل الزهاد وقد كان برسي اسيراً عنده بأمر يزدجرد !

– بأمر يزدجرد ، وبرسي من خصيان بلاطه ؟؟

– أجل فقد انتهى اليه انه امسى مسلماً فجعله في قفص .

– وكيف نجا منه ؟
– بفضل خراذمهر نفسه الذي اصبح عوناً للعرب ...
– ومولاي شهريار ؟..
قالها وسبقه الدمع ..
فقال : يرقد مولاك شهريار في وادي خواست وتجري فوق جثته التيقطعتها السيوف مياه الشتاء ..
فجعل يشهق بالبكاء ... حتى خاف اخيراً ان يغضب الاحنف ، فقال : ألا تقص عليّ يا مولاي خبر موته ؟
– اقول لك كلمة واحدة هي ان يزدجرد رأى ان يستريح منه ففعل ، وقد ذهب المسكين ضحية وفائه .
فرفع عينيه الى السماء وجعل يقول : ارحم اللهم اليتيمة الشقيـة التي دفن سرها مع ابيها ..
قال : لقد فضح موت شهريار جميع الاسرار .
– ومن باح بها يا مولاي ؟
– وصيته التي كتبها قبل ان يلفظ الروح .
– وهل يريد مولاي ان يذكر لي شيئاً منها ؟
– سأذكر كل شيء للفتاة وانت حاضر .. قل الآن بأي حي تقيمان ؟
– نقيم خارج البلد في خيام ثلاث .
قال : ترجع انت غداً عند الصباح ، وألحق بك انا بعد يومين فأرىمولاتك واحملها على الرجوع الى مرو .
– ولكنها لا تعلم اني حدثتك بهذا ..
– وتريد ان تكتمها ذلك ؟
– نعم !
– اذن سأقول لها ان الاقدار قذفت بي الى مرو وهي التي مهـدت لي سبيل اللقاء .
– اما انا فأقول لها ان طارقاً سيعود بعد بضعة عشر يوماً واني سمعت ذلك

من بعض المقربين اليك .

فوقف قائلاً : قم فانصرف ولك ان تقول ما يخطر لك .

وخرج من قاعة الجلوس ليكتب الى عبدالله ويدعوه الى التعجيل في الرجوع

وكان سنان يفكر وهو في الرواق، فيما سمعه من الاحنف ، وهو لا يستطيع ان يتبين سراً واحداً من اسرار مولاه .

* * *

- ٦٧ -

لقد عرفت اليوم يا مولاتي ما أردت ان اعرفه . وكانت الكآبة تغمر وجه اليتيمة ، والخيبة تبدو في عينيها الفاترتين ، حتى لتظن ان تينك العينين صورة بليغة من صور الالم ، فقالت : ماذا عرفت ؟

فقال سنان : لقد كان خروج عبدالله وطارق من مرو، من اجل غايةواحدة هي البحث عنك كما كنت اقول .

– انها نغمة سمعتها من قبل ويطيب لك ان تعيدها اليوم لتنقذ هذا القلب من هوة يأسه .

قال : سمعتها يامولاتي في مرو ولم اسمعها قبل اليوم .

– ممّن ؟

– من رجل قربه الاحنف اليه وهو لا يفارق مجلسه .

– اتقسم لي ؟

– اقسم بهذا الاخلاص الذي يملأ صدري اني صادق .

– وكيف يتهمني القوم ثم يخرجون في أثري بعد ذلك .

– لاتذكري هذه التهمة يا مولاتي فهي سبب البلاء .

– بل هي الموت الذي يدنو مني كما ترى ... لقد ترك ابي مرو ولم يعد واني لا اعلم احي هو ام ميت .. ثم اقبل طارق الذي وهبت له قلبي ، يحدثني بالتهم ويقول اني خائنة قاتلة كأنه يريد ، من وراء الستار ، ان يقتل في صدري هـذا الغرام الذي بحت به ، ثم تجيء انت فتقول لا تذكرى هذه التهمة فهي سبب

البلاء كأني في نظرك حجر اصم ليس له قلب ولا شعور له !!!

– يكفي ان تعلمي ان الندم استولى على طارق وهو الذي دفعه الى ترك الجيش والطواف في الاقاليم .

– ويكفي ان تعلم انت ان هذا الجرح لا يبرأ واني لا أجد الراحة الا بالموت ! !

– واذا جاء طارق غداً وجثا على ركبتيه قائلاً لك : لقد اخطأت واني مقيم على العهد ؟

– لا يرى طارق من اليتيمة ، عندما يجيء ، غير جسد واه لا قوة له ، او جثة غيّبها القبر .

– اذن فخير لطارق ان يقضي العمل كله بعيداً عن قومه من ان يعودفيرى ما تقولين . .

– اجل ، انه يذكر ، اذا رجع ، هذا الغرام الذي لا يفكر فيه اليوم .

قال : لم ارد هذا يا مولاتي !

– وماذا اردت ؟

– اردت ان اقول ، انه سيموت ، عندما يرى القضاء انتزع يتيمته من يده ، ويموت بعده ابوه عبدالله .

– بل يعيش لفتاة اخرى لا تكتنفها الاسرار ، ولا يخطر لها ان تقتله بالسم ، خدمة ليزدجرد الفارسي !

وخرجت من خيمتها قائلة : لا تحدثني بهذا بعد اليوم فأنا لا أستطيع ان احتمل . فرفع عينيه الى السماء وجعل يتمتم قائلاً : لا ينقذها غير الاحنف فأرسله يا الله .

* * *

– ٦٨ –

في السنة الرابعة والثلاثين ، خرج سعيد بن العاص من الكوفة يريد المدينة ليسأل امير المؤمنين رأيه ، في اولئك الرجال الخارجين عن الطاعة ، والذين

يكاتبون انصارهم في كل بلد ليعيبوا الخليفة ويسبوا عماله .

وكان قد جعل قبل خروجه ، بسنةوبعض اخرى ، الاشعث بن قيس عاملاً على اذربيجان ، وسعيد بن قيس على الري ، والنسير العجلي على همذان والسائب ابن الأقرع على اصبهان، ومالك بن حبيب على ماه وحكيم بن سلام الخزاعي على الموصل وجرير بن عبدالله على قرقيسيا ، وسلمان بن ربيعة على الباب ، وجعل القعقاع بن عمرو على الحرب ، وعتيبة بن النهاس على حلوان . وخلت الكوفة عندئذ من الرؤساء والقواد . فخرج رجل يدعى يزيد بن قيس وحوله الرجال الذين كاتبهم ابن السوداء اليهودي يريدون خلع عثمان . فتصدى القعقاع ليزيد قائلاً : ماذا تصنع ؟

قال : انما نستعفي من سعيد بن العاص فنحن لا نطيق ان يبقى على الكوفة .

– ومن تريدون والياً سواه ؟

– نريد ابا موسى الاشعري .

قال : اما هذا فنعم ونحن لا شأن لنا به فخبروا امير المؤمنين .

فكتب يزيد الى اعداء عثمان ، النازلين في حمص ، عند عبد الرحمن بن خالد وقد عرفت من هم . فاقبلوا وسبقهم الاشتر الى الكوفة والناس في المسجد فوقف بالباب وجعل يقول :

جئتكم من عند امير المؤمنين عثمان ، وقد تركت سعيد بن العاص يريده على نقصان نسائكم على مئة درهم ، وردّ اصحاب البلاء منكم الى ألفين ، ويزعم ان هذه الارض بستان قريش ... فاستخف الناس بما يقول ، وجعل اهل الرأي ينهون القوم فلا يسمعون لهم ولا يرجعون عما يقولون . ثم قام يزيد فنادى : من شاء ان يلحق بيزيد بن قيس لرد سعيد بن العاص فليفعل ! فبقي اشراف الناس في المسجد .

وكان عمرو بن حريث يومئذ ، خليفة سعيد ، فصعد المنبر وأمر الناس بالاجتماع والطاعة ونهاهم عن الفتنة . فقال له القعقاع : أتردّ السيل عن الجري ؟ هيهات لا والله لا يسكت الغوغاء إلا السيوف ويوشك ان تخرج من الأغماد فاصبر ..

قال : أصبر .. وتحول الى منزله .

فلما رأى القوم ان القعقاع لا يلين ، خرجوا الى موضع قريب من القادسية ، يقال له الجرعة ، ينظرون في الأمر . ثم رأوا ان يرسلوا احدهم الى عثمان يسأله ان يصلح الحال قبل ان تشتعل النار ... ولم يلبثوا حتى بعثوا بعامر بن عبدالله التميمي الذي يقال له عامر بن عبد القيس .

وكان جريئاً وصاحب رأي .

فقدم المدينة ثم دخل عليه فقال : « ان ناساً من المسلمين اجتمعوا ونظروا في اعمالك فوجدوك قد ركبت اموراً عظاماً فاتق الله وتب اليه » .

فقال عثمان لمن حوله : « انظروا الى هذا فالناس يزعمون انه يقرأ القرآن ووالله ما يدري اين الله » .

قال : « بلى والله اني لأدري ان الله بالمرصاد » .

قال : ابقَ بالمدينة ريثما ارى رأيي .

وارسل في ذلك اليوم ، الى معاوية في الشام ، وعبدالله بن سعد في مصر ، وعمرو بن العاص في فلسطين ، وعبدالله بن عامر في البصرة ، يدعوهم اليه ويستعجلهم في المجيء.

فلما اجتمعوا قال : ان لكل امرىءٍ وزراء ونصحاء ، وانتم وزرائي ونصحائي واهل ثقتي ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا اليّ ان أعزل عمالي وارجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم .

فقال والي البصرة : أرى لك يا امير المؤمنين ان تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلوا لك ولا يكون همّ احدهم الا في نفسه وما هو فيه .

وقال سعيد والي الكوفة : احسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف ، ان لكل قوم قواداً ، متى يهلكوا يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر .

فقال عثمان : ان هذا هو الرأي لولا ما فيه ...

اما معاوية فقال: اشير عليك بأن تأمر امراء الاجناد فيكفيك كل امير منهم ما قبله واكفيك أنا اهل الشام ..

وقال : والي مصر : ان الناس اهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم .

ثم قام عمرو بن العاص فقال : يا امير المؤمنين ، انك قد ركبت الناس بمثل بني امية ، فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا فاعتدل او اعتزل فان أبيت فاعتزم عزماً .

فقال : اهذا هو الجدّ منك ياعمرو ؟

فسكت عمرو حتى تفرقوا ، فقال : والله يا امير المؤمنين لأنت اكرم عليّ من ذلك ، ولكني علمت ان بالباب من يبلغ للناس قول كل رجل منا ، فأردت ان يبلغهم قولي ، فيثقوا بي ، فأقود اليك خيراً وادفع عنك شراً . وفي قول عمرو من الدهاء ما فيه .

فرد عثمان عندئذ عماله الى اعمالهم ، وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث ، وعول على ان يزيد عطاياه ليطيعوه وأمره سعيداً بان يرجع الى الكوفة . فسبقه عامر بن عبد القيس الى الجرعة وخبر قومه .

فلما انتهى سعيد اليها قالوا له : ارجع الى المدينة فلا حاجة لنا إليك .

قال : كان يكفيكم ان تبعثوا الى امير المؤمنين رجلاً يطلب إليه ذلك. قالو: لقد فعلنا ما خطر لنا فانصرف . فآثر الرجل الرجوع الى الحجاز ، والامن يبسط ظله على نزوله الكوفة والناس لا يريدون ان ينزل.. وكان وراءه مولى له على بعير ، فسمعه الاشتر يقول : ما كان ينبغي لسعيد ان يرجع . فقتله ، وسيده القائد الى الحجاز لا يعلم . ومثل سعيد بين يدي عثمان فخبره بما فعلوا .

قال : وماذا يطلبون ؟

– يطلبون البدل وانهم يختارون ابا موسى ..

قال : نفعل لهم ما يريدون .

وولىّ عليهم ابا موسى وكتب اليهم : « أما بعد فقد أمرّت عليكم من اخترتم ، ونحيت سعيداً ، ووالله لأقرضنكم عرضي ولأبذلن لكم صبري ، فلاتدعوا شيئاً احببتموه لا يعصى الله فيه الا سألتموه . ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه استعفيتم منه ، حتى لا يكون لكم على الله حجة ولنصبرن.كما امرنا حتى

تبلغوا ما تريدون . كتب كتابه ، وجعل ابا موسى اميراً ، وهو يظن ان الاصوات قد خمدت ، وان الامر قد انتهى . ولكن القـــوم لم يسكتوا ، الا لينظموا صفوفهم من جديد ، ويستعيدوا القوى وكانت الافكار قد اضطربت ، وتمشت روح الفتنة في الصدور .

واقبل الناس الى المدينة يحدثون اشرافها بأمر عثمان ويسألونهم ان يتدبروا الامر او يلجأوا الى السيف !!! وكتب بعض اصحاب رسول الله وغيرهم ، الى البعض الاخر قائلين : اقدموا فان الجهاد عندنا ... وعظم امر الناس على عثمان ونالوا منه ، وليس هنالك احد من الصحابة ينهاهم عن ذلك الا نفرٌ منهم ،بينهم زيد بن ثابت ، وأبو اسيد الساعدي ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ! ثم اجتمع القوم فكلموا علي بن ابي طالب .

فدخل علي على عثمان فقال : « الناس ورائي وقد حدثوني بأمرك ، ووالله ما ادري ما اقول لك ولا اعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على امر لا تعرفه .. انك لتعلم ما اعلم ، ما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه .. ثم قال : لقد رأيت وصحبت رسول الله ﷺ وسمعت منه ونلت صهره ، ولم يكن ابن ابي قحافة « ابو بكر » اولى بالعمل منك بالحق ، ولا ابن الخطـــاب اولى بشيء من الخير منك ، وانت اقرب الى رسول الله رحماً وقد نلت من صهره ما لم ينالاه وما سبقاك الى شيء ، فالله الله في نفسك فانك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهالة ،وان الطريق لواضح بين ، وان اعلام الدين لقائمة ، اعلم يا عثمان ، ان افضل عباد الله امـــام عادل ، وشرّ الناس عندالله ؛ امام جائر ضل واضل فأمات سنة معلومة واحيا سنة متروكة واني احذرك الله وسطوته ونقمته فان عذابه شديد أليم ،واحذرك ان تكون امام هذه الامة الذي يقتل فيفتح عليها القتل الى يوم القيامة ويتركها شيعاً لا تبصر الحق .

فقال عثمان: قد علمت الذي قلت ووالله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا اسلمتك ولا عبت عليك امراً ، اترى اني اتيت منكراً ، اذا وصلت رحمـــاً ، وآويت ضائعا ، وفعلت ما كان عمر بن الخطاب يفعل مثله ؟ انشدك الله يا علي ، أليس المغيرة بن شعبة مع القوم ؟

قال : بلى !

– ألا تعلم ان عمر ولاّه وهو نسيب له ؟

– بلى !

– وكيف تلومني اذا وليت عبدالله بن عامر في رحمه وقرابته ؟

قال : كان عمر ، يدعو اليه عامله ، اذا بلغه كلمة واحدة عنه ؛ ويبلغ به اقصى العقوبة وانت لا تفعل ذلك ، بل ضعفت ورققت على اقربائك .

– وهم اقرباؤك ايضاً ..

– نعم ان رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم .

قال : ولى عمر معاوية وانا قد وليته ...

– ولكنك تعلم ان معاوية كان يخاف عمر كما كان يخافه غلامه يرفأ ...

– واليوم ؟

– اما اليوم فان معاوية يقتطع الأمور كلها دونك ، ويقول للناس : هذا امر عثمان ، وانت تعلم ذلك ولا تقول كلمة .

قالها علي وخرج . فخرج عثمان على اثره فجلس على المنبر ثم قال : « امابعد فان لكل شيء آفة ، وآفة هذه الامة ، عيّابون طعانون ، يرونكم ما يحبون ، ويستّرون عنكم ما تكرهون وهم امثال النعام يتبعون اول ناعق ... لقد عتم عليّ ما اقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما احببتم وكرهتم ، اما انا فقد لنت لكم ، وأوطأتكم كتفي ، وكففت عنكم يدي ولساني فاجترأتم عليّ ... اما والله لأنا أعزّ نفراً واقرب ناصراً واكثر عدداً فكفوّا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم ووالله ما قصرت عن بلوغ ما بلغه من كان قبلي ولم تختلفوا عليه » .

فقام مروان بن الحكم فقال للناس :

ان شئتم حكمنا والله السيف ما بيننا وبينكم .. نحن وانتم والله كما قال الشاعر :

فرشنا لكم اعراضنا فنبت بكم   مغارسكم تبنون في دمن الثرى

قال عثمان : اسكت ودعني واصحابي . ثم نزل عن المنبر ، وألم نفسه مطل من عينيه ..فاشتد قوله على الناس وزاد حقدهم وتألبهم عليه .

***

- ٦٩ -

خرج الاحنف بنفسه يريد مرو الشاهجان . وقد انتهى اليها ،وهو متنكر، عند غروب الشمس ، ومعه غلام يقود فرسا له هي غير الفرس التي يراه الناس على ظهرها في الميادين . وكأنه كان حاضراً ، عندما ضرب سنان خيامه خارج السور ... اجل ، لقد خبره سنان ان هنالك خياماً ثلاثاً لا تبعدالواحدة من الاخرى اكثر من ذراعين . فدنا منها كأنه غريب يسأل الناس ان يجودوا عليه بوسادة يسند اليها رأسه ، وعيناه تنظران الى الاشخاص التي تروح وتجيء. وكان سنان ينتظر قدومه من ساعة الى ساعة ، وهو يفكر في الوسيلة التي يعمد إليها الاحنف للوصول إليه .

وبينا هو واقف بباب الخيمة ، واليتيمة المسكينة ، او شهريار الفتى ، واضع رأسه بين يديه ، أقبل الاحنف فقال : السلام عليك ايها الرجل .

فرفعت اليتيمة رأسهافعرفت الاحنف.فأرخت ضفائرها الى وجهها وحولت نظرها عنه خوفاً من ان يعرفها هو . ولكن قلبها كان يخفق مضطربا كما يخفق على ذكر طارق . اما سنان فكان يتكلف الابتسام وهو يقول : اهلاً بالغريب اللاجيء الى خيام الفقراء ..

قال : اتيت مرو وانا لا اعرف فيها احداً فآثرت النزول خارج السور ريثما يطلع الصبح .. وتكفيني وسادة ...

قال : ادخل ، انك ستنام في فراشي اذا طاب لك ..

– بل انام بالقرب من هذه الفرس كما افعل وأنا في الصحراء .

– لك ان تفعل وانت في الصحراء ما تشاء ، اما هنا فالامر لنا ، وضيفنا لا ينام عند فرسه ...

قال : حلفت ان لايظللني في منامي بيت !!
ـ في الشتاء والصيف ؟
ـ اجل ، حتى ابلغ الغاية التي تركت من اجلها ، بلدي واهلي .
ـ إذن هو نذر .
ـ نعم ، واني لأرجو ان يقصر الله أيامه ..
قال : يخيل اليّ ان لك ولداً ضيعته الحروب فلا تعلم أحيٌ هو أم ميت.
ـ وأي شيء اوحى اليك بهذا ؟
ـ هذا النذر الغريب الذي نذرت .
قال : كان لي ولد فضيعته انا ولم تضيعه الحروب كما قلت .
ـ وكيف ذلك ؟
ـ أحب فتاة هي اجمل النساء وجها واكملهن أدبا فلم أشأ الا ان امنعه من هذا الحب واخنق غرامه ..
ـ ولماذا فعلت ؟
ـ لانه بلغني ان لهذه الفتاة سراً وان الظنون تحوم حول هذا السر .
ـ وطردت ولدك ؟
ـ لم أطرده ، بل خرج يطوف في البلاد باحثا عن الفتاة التي خرجت قبله وانا لا اعلم ..
ـ وندمت اليوم على ما صنعت ؟
ـ اجل فقد عرفت سر الفتاة ولكن بعد ان ضيعت الاثنين .
ـ وتستطيع أن تبوح لي بما عرفت ؟
ـ خير لي ان احتفظ به فالذكرى مؤلمة .
ـ وما اسم فتاك ؟
ـ هذا ايضاً لا ابوح لك به ..
فقالت اليتيمة عندئذ وشفتاها ترتجفان : أتأذن لي ان اسألك ؟
ـ نعم ، وأنا لنتحدث في هذا الليل بما يطيب لنا .
قالت : ألا تعرف مقرّ ولدك ؟

– بلى اعرفه واعرف اليوم الذي ينتقل فيه من بلد الى آخر ..
– وكيف تقول انك ضيعته ؟
– لو كنت اجهل مقرّه لملأت البلاد عيوناً ورسلاً يحملونه اليّ ولو كان في حضن امير المؤمنين .
– وماذا إذن ؟
– انه لا يعود الى بلده والفتاة بعيدة عنه !
– وهل سألته ان يفعل ؟
– حاولت كثيراً ان احمله على الرجوع فلم يرض ،فهممت اخيراً بأن استعين بامراء الجند ليعيدوه الى ابيه !
– ولكنك قلت انك تطوف في البلاد باحثاً عنه .
– لم اقل هذا قط فأنا لم اترك بلدي من اجله بل من اجل الفتاة التي ذكرت !
قالت : تمنع فتاك من ان يحبها ويمشي وراء عاطفته ثم تخرج مر بلاد قومك لتسأل الناس عنها ؟
– اجل افعل ذلك بعد اطلاعي على السر وبعد ان عرفت انها بريئة مما نسبه اليها كاذب فارسي .
– اذن كانت متهمة ..
– وكان سرها رهيباً خفت معه ان اقذف بولدي الى هوة بعيدة الغور يخسر فيها شرفه ويضيع كرامة قومه .
فتمتمت قائلة : انها شقية جار عليه الزمان ..
ثم قالت : وليس لها اهل ؟
فتردد الامير في جوابه ثم قال : كنا نظن وتظن هي ان لها والداً .. !
فوضعت يدها على قلبها وجعلت تقول : كلمة غريبة لم افهم منها حرفا ..
– لو كنت مكاني ايها الفتى لفهمت كل شيء ...
– وهذا الذي تظن انه ابوها .. اين هو ؟
– لا تسألني عن هذا فأنا لا استطيع ان اقوله الا للفتاة نفسها ..
– وان لم يجتمع الشمل ؟

– ادفن سري في صدري وألحق بولدي حاملاً اليه خيبة الرجـــاء فيبكي غرامه وشقاءه الى الابد .

فأرخت نظرها الى الارض وهي تفكر في ذلك السر الرهيب الذي وعدها شهريار بان يبوح لها به .

اترفع ضفائرها عن وجهها قائلة له : انا اليتيمة فبح لي بسري ، ام تسكت على ما سمعت فتضيع سرها وتخسر طارقاً ؟

انه موقف لم ترَ في حياتها اصعب منه . ولكنها كانت تخاف الزمان الذي لا يصفو لأحد وتخشى ان يخرج الاحنف فيالصباح فلا يبقى بعد ذلك امل باللقاء. وهنالك الغرام المبرّح الذي يقودها الى القبر ... فرأت ان تخطو خطـــوة الى الامام ثم تنظر في امرها بعد ذلك فقالت : لي رأي ابديه لك .

قال : هات !

قالت : لو سألك احد الفتيان الان ان تبوح له بجميع ما تعلم وهو يضمن لك انه يسلم الفتاة اليك ، فماذا تقول ؟

فابتسم قائلاً : اهزأ بهذا الفتى لاني اعلم انه لا يستطيـــع ذلك .

قالت : عار على الرجل ان يهزأ بالناس دون ان يكون هنالك ما يدفعه الى هذا ..

ان الفتى الذي ذكرته لك يعرف كل شيء ..

قال : اين هو ؟

– هو هنا ..

– فجعل ينظر الى جانبيه وهد يتجاهل الامر .

فقالت : انا هو !!

فقال لسنان : هذا ولدك ؟

– نعم !

– وعلمته ان يستخف باضيافه ؟!

– بل علمته ان يستقبل الاضياف كما يستقبلهم العربي الشريف .

–وكيف يقول انه سيسلم الفتاة الي ؟

– لا ادري كيف يستطيع ان يفعل ذلك ، ولكني واثق بانه اذا وعد وفى
قال : لو عرفت ايها الفتى من انا لما استخفت بي .
كن من شئت فقد وعدت الآن وانتهى الأمر .
– وانت قادر على القيام بما وعدت ؟
– اجل ، كما انت قادر على ركوب هذه الفرس عندما تشاء .
قال : اخشى ان اطلعك على سري ثم لا أرى غير الفشل .
– ولكن النبلاء لا يكذبون وانا منهم ..
– اذن فاسأل فقد وثقت الآن ..
– ماذا يدعى ذلك الرجل الذي كانت الفتاة تظن انه ابوها ؟
– شهريار الخراساني .
– إذن هي فارسية ؟
– فارسية بالأمس ، ومسلمة اليوم .
– وما هي حكاية شهريار ؟
– حكايته انه كان من المقربين الى يزدجرد الملك وهو في بلاطه ، وكان في ذلك البلاط فتاة أحبها من قبل وأراد ان يجعلها زوجة له ، عملاً بوصية ابيها الذي قتل في الحرب . فجعل صدرها يعلو وينخفض ، وجسمها يضطرب .
والاحنف يتظاهر بانه خالي الذهن وكان يقول : على ان يزدجرد لم يرضَ ، بل احتفظ بالفتاة لنفسه وجعلها من حظاياه وهي تحاول النجاة منه ولا تقدر على ذلك .
قالت : فتاة فارسية ، وتأبى ان تكون حظية للملك ؟
– نعم ، فالحب لا يحترم الملوك والأمراء ، وهي التي أحبت شهريار كما أحبها وآثرت العيش معه على البقاء في ظل الملك ..
– وبعد ذلك ؟
– ملّها يزدجرد ، وكان يحيط حظاياه كلهن بنعمه ، ويحرمها هذه النعم ، حتى امست جلداً على عظم .
فتنهدت قائلة : مسكينة ..

– ولكنه لم يكتف بذلك ، بل منعها من ان تمثل بين يديه ، ثم تمادى في قسوته فمنعها من أن تظهر في قاعة أو رواق .

فهمت بأن تقول: انه ظالم .. ولكنها تجلدت، وحبست انفاسها لتسمع ذلك السر الهائل الذي جعل حياتها حياة عذاب وشقاء. وكان الأمير يتفرس في عينيها المختلجتين ، ويصف ببلاغة العربي، جفاء يزدجرد وظلمه، واستهتاره ولهوه وهو على العرش ، ثم قال : ومرّ عام خسر الملك فيه تاجه ، فترك المدائن فاراً من وجه العرب لاجئاً الى حلوان .

وفي حلوان وضعت جهان روز طفلة ..

فجعلت تردد : جهان روز .. جهان روز ..

فقال الاحنف : غير ان الملك لم يصبر ليرى طفلته بل غادر حلوان الى الري قبل ان تخرج الى العالم ، ثم عرف بعد بضعة عشر عاماً ان جهان روز لفظت روحها في ذلك المنزل الذي تركها فيه ..

– والطفلة ؟

– اما الطفلة فقد سلمها احد الرجال الى مرضع من نساء العرب احتضنتها عامين ، ثم احتضنها ذلك الرجل بعد ذلك ..

فقالت وصوتها يختنق : مرضع من نساء العرب ؟!

– نعم !

– واسم هذه المرضع أم عامر زوجة عبدالله بن قيس ؟

– نعم !

– واسم ذلك الرجل شهريار ؟!

– نعم !

– واسم الفتاة .. اليتيمة ؟!

– نعم وقد بقي ان تسلميها اليّ ..

فرفعت ضفائرها ، ثم نزعت تلك القلنسوة القصيرة فبان وجهها الاصفر ، وصاحت قائلة : انا هي !!

وسقطت على الارض ..

انتهى كتاب الاحنف الى اخيه عبدالله يقول له فيه :

ارجعوا فاليتيمة في مرو .

فشعر طارق ، بأن الدنيا كلها لا تتسع لفرحه ، وأحس ان الحياة تبتسم له ابتسامتها الخلابة ، بعد ذلك الجفاء .

ودعا اباه الى الرجوع قائلاً له : لقد أراد الله ان ينتهي هذا الطواف بالظفر فلم يبق إلا ان نتهيأ للرحيل ..

فبكى عبدالله وقال : ارضى من حياتي بأن يضحك لك الأمل ويفترّ لك ثغر الزمان ، وقال لخراذمهر : لقد عادت اليك الآن ابنة جهان روز فكأنك سترى أخاك .

قال : لا اصدق اني سأرى هذه الفتاة التي تحمل اليّ ذكرى ابان زرد ، وذكرى امها المنكودة الحظ .

وكانت ليلة ضحكت فيها القلوب المكتئبة والنفوس المتألمة ، وبات الجميع يتحدثون حتى بزغ الفجر . ولم يلبثوا حتى ركبوا افراسهم راجعين الى مرو ، وطارق في المقدمة وهو يلوم الاقدار التي لم تخلق لفرسه جناحين .. وكانت اليتيمة في منزل عبدالله بن قيس ، وقد رجعت اليه محمولة في هودج ، والحمّى تنهش ذلك الجسم الندي ، الذي صرعته الحادثات . أجل لقد عادت الفتاة المسكينة الى ذلك المنزل الذي خرجت منه، وهي لا تعلم، واستلقت على فراشها وعيناها مغمضتان ، والمخيلة ضائعة، والفكر شارد مضطرب . حملوها الى مرو، جسداً ضعيفاً واهياً لا يدلّك على الحياة فيه، غير الحمّى القاسية التي تضرم نارها في الاحشاء . بلى ، كان هنالك مظهر آخر من مظاهر الحياة ، هي تلك الكلمة التي كانت تردّدها شفتاها من حين الى آخر : انا ابنة الملك .

وأم عامر ، وجاريتها الامينة ، قائمتان عند فراشها ، في النهار والليل ، والاحنف نفسه ، يجلس عند رأسها بضع ساعات كل يوم ، ليمسح جبينها بالماء ، ويضع في فمها الملتهب ، بضع قطرات من العسل .. أما سنان ، فلم يكن يفارق المسجد الا ليراها ، ثم يعود اليه ليصلي ويسأل الله ان يعيد العافية الى مولاته

الملكة.. وقد مرّ عليها، وهي على هذه الحال، خمسة عشر يوماً، وشيوخ الفرس والعرب ، الذين يقومون مقام الاطباء ، يجودون عليها بما يملي عليهم الاختبار .

وقد رأوا اخيراً انها ستصرع الحمىّ ويعود اليها الرشد . فلما كان اليوم السادس عشر ، أقبل طارق ومن معه ، ولم يلبث ذلك العاشق حتى رأى سناناً فخبّره كل شيء . وجاء الاحنف يسأله ان يرفق بنفسه ويستعين بالصبر ريثما تنجو الفتاة من الموت ، الذي يكمن لها في الفراش .

فقال : أللهمّ عفواً فأنا لا استطيع الاحتمال ..

ثم دخل وركبتاه ترتجفان والدموع في عينيه.. وجثا على ركبتيه يتفرس في ذلك الوجه الذي طلـّقته النضارة وتينك العينين المغمضتين الغائرتين في محجريهما، وذلك الجبين المصفرّ البادية عليه سطور العذاب والشقاء . ثم جعل يهامس ذلك الشيخ العربي الذي يعالجها فأثبت له ان الحمى ستزول وان المريضة تحتاج الى العناية والهدوء . فسلـّم أمره الى الله واعتصم بالصبر كما قيل له ، حتى مرت ثلاثة ايام اخرى وهو لا يفارق حجرتها الا لحاجة له . فبينا هو جالس عند فراشها ، في الليلة الثامنة عشرة ، فتحت عينيها فجأة وأرسلت نظرها الى العلاء ، ثم الى الجانبين ، وتنهدت تنهّد المريض يصحو من حماه . فاستولى عليه الفرح ، ورأى ان السكوت خير من الكلام .. وكان نظرها نظراً تائهاً ما لبث حتى استقرّ ، وامسى بعد لحظة نظراً هادئاً، نظر مريض نهكته الحمى.. وهو لا يعلم اي حادث حدث له. وما هي غير ساعة حتى اضمحل ذلك الذهول واستسلمت الحمى الهوجاء استسلاماً تاماً بعد ذلك الصراع الرهيب . واذا اليتيمة تستعيد جميع القوى العاقلة وتعرف الوجوه التي كانت تعرفها من قبل ، الا طارقاً فلم تقع عليه العين لانه كان في الجانب الآخر ..

وكانت أم عامر بالقرب منها فتمتمت قائلة : أم عامر ؟!

فأومأت اليها مرضعها الصالحة بأن تسكت .

قالت : ولكني أريد ان أعلم ..

– ماذا ؟

– أين أنا ؟

– في مرو في منزل عبدالله .
– انا في مرو ؟ ومتى رجعت اليها ؟
– ستعرفين ذلك غداً فخير لك ان تستسلمي الى النوم .
– ولكني كنت نائمة ..
– بل كنت مريضة وقد شفاك الله .
– كنت مريضة وشفاني الله .. وانا في مرو الثانية .! إذن كان ما رأيته حلماً.. حلماً طويلاً مزعجاً احتملت معه جميع الآلام.. لا! لا .. لم يكن هنالك احلام بل حقيقة رائعة لمستها بيدي وانا في مرو الاولى .. فماذا تقولين ألم أكن فيها ؟

– بلى !
– وكنت فيها فتى يقال لي شهريار ..
– نعم !

– ثم جاء الاحنف وقصّ علي حكاية طويلة .. لا أذكر منها .. غير .. موت .. الرجل الذي رباني وكنت .. اظن اني ابنته وهنالك شيء آخر اذكره. هو اني ابنة الملك .. الذي قتلوه .

وضحكت كما يضحك المجنون.. ثم تفجر الدمع من عينيها بعد ذلك الضحك الغريب . فوضع طارق رأسه بين يديه وشاركها في البكاء . ثم قالت: امسحي يا أم عامر هذه الدموع التي تحرق خديّ .. ان ابي ملك فارس وأمي تلك الفتاة التي أحبها شهريار .. والاثنان ماتا . واني لا أجد في هذا العالم من أشكو اليه شقائي ، بعد موتها ..

– بل تجدين أباً هو عبدالله ، وأماً هي زوجته ، وفتىً يبذل دمه في سبيل قطرة واحدة من عينيك الساحرتين ..

فترددت قليلاً ثم قالت : ولكن هذا الفتى من نبلاء العرب فهو لا يضيع حرمته ..

قالت: سنتحدث عندما يطلع الصباح بكل شيء، فأنا اخشى ان تعود هذه الحمى الثائرة التي ذهبت الآن ..

– ويعقب الحمّى الموت وانا لا أخافه.. قلت ان الفتى الذي أحبني بالامس، لا يضيع حرمته ، ولا يستطيع ان يحبني اليوم ..

– لماذا ؟

– لاني .. ابنة الملك ، وقد كان الملك عدو قومه !.

قالت: سيقول لك غداً انه لك وانك له ، والملوك جميعهم لا يستطيعون ان يفصلوا بينك وبينه .

قالت : اذكر .. انه .. بعيد عن مرو .. وقد يعود غداً .. ليقول غير ما تظنين .. وقد لا يعود .

– ليس من الرأي يا بنية ان اقول لك الآن كل ما اعلم فاصبري الى غد كما قلت ..

– بل تقولين الآن كل شيء فأنا قد صحوت من ذهولي ، وقد علمتني الحادثات ان اصبر على كل ما أرى ، وما اسمع ..

– ولكنني لا اقدر على ذلك .

فأغمضت عينيها وجعلت تقول: وكيف يطيب العيش لابنة الملك، ومرضعها تبخل عليها بكلمة ؟! اني شقية ، وقد جربت حظي ، فالموت خير لي ..

فضيّع طارق عندئذ هدوءه وهمّ بالكلام .

فأسكتته أم عامر قائلة : لقد عاد طارق يا بنية .

فتلألأ الحب في عينيها الفاترتين ، ثم انطفأ .. وتلألأت بعده الكبرياء .. ثم قالت : لقد عاء .. ولكنه ارفع من ان يجلس عند رأس الفتاة التي أحبته حتى الموت .. وهذا هو الوفاء !

قالت : كان هنا منذ لحظة .

– أجل ، وقد انصرف ليستلقي على فراشه ، ويستسلم الى احلامه .

– بل انصرف ليخلو بلوعته ، ويسأل الله ان ينقذ من أحب .

وكان في الجدار ، سراج يعلو نوره وينخفض ، فقالت : انظري الى هذا النور.. ان روحي تتراقص في الصدر كما يتراقص نوره وأحسُ اني سألفظها بعد ساعة .

وسكتت قليلاً كأنها تستعيد القوى ، ثم قالت : وان لي حـــاجة اسألك قضاءها باسم المروءة .

– اسألي ما تشائين على ان لا تحدثيني بمثل هذا .

– اريد ان ارى طارقاً !!

– الآن ؟

– نعم ، وخير لي ولك ان لا تكتميني شيئاً .. أهو في مرو أم ماذا ؟

– بل هو في هذا المنزل .

– وتستطيعين ان تحمليه على المجيء .

– اخشى ان افعل فتسوء العاقبة ..

– اي انك تخشين ان يسمعني طارق ما أكره ..

– بل اخشى ، ان تستسلما ، انتما الاثنين ، الى العاطفة وهذا ما لا اريده ، ولا يريده احد ..

– اعدك باني اسكت عاطفتي بقوة الاحتمال ..

– لم يبق إذن إلا ان أدعوه .

ومشت الى الباب كأنها تريد الانصراف لتفعل ما ترغب فيه .

فحولت وجهها الى ذلك الباب ، فأبصرت ذلـك العاشق المسكين ، عند رأسها ، وهو يذرف الدموع ، بصمتٍ وهدوء . فخيل اليها انها تحلم، وانها ترى طيف الحبيب ..

فرفعت صوتها قائلة : ارجعي يا أم عامر فهذا طيفه !!

فهامسها قائلاً : بل هو طارق نفسه ايتها الحبيبة !

فتمشت قشعريرة الهوى في دمها وقالت: طارق نفسه عند فراشي وانا اسأل عنـه ؟

– اني هنا منذ ثلاثة ايام اضع العسل بين شفتيك المرتجفتين ..

قالت : ضع يدك على يدي لاصدق عيني .

فجعل كفيها بين كفيه ، والبكاء يتردد في صدره وقد عجز عن الكلام .

وكانت أم عامر قد خرجت ، فقالت له : في اي يوم حملوني من مرو ؟

– في اليوم الثاني والعشرين من الشهر الماضي كما خبرني سنان ونحن الآن في اليوم العاشر من ذي الحجة .

– إذن مضى على رجوعي ثمانية عشر يوماً .

– واني لاحمد الله على نعمة العافية ، ونعمة اللقاء .

– وهل تعرف من انا ؟

– انا اول من عرف ذلك ، وقد حملت وصية شهريار من جبل الزهاد الى مرو ، وقرأها ابي وانا سامع .

– وماذا تقول في نفسك ؟

– اقول ان الله اراد ان احب اكرم النساء محتداً واشرفهن نسباً ، وان يجعلني زوجاً لابنة اعظم ملك في هذا الزمان .

– ولكن هذا الملك العظيم كان عدو الاسلام .

– اجل ، وكانت ابنته مسلمة ، وكان هو مكرهاً ، بصفته ملك الفرس ، على الدفاع عن وطنه وشعبه .

– وهل يرضى ابوك وعمك وأمير المؤمنين ان تتزوج ابنة يزدجرد ، الذي سالت في بلاده دماء العرب ؟

– ان ابي وعمي سيسألانك ان ترضي بهذا الزواج .

– عثمان ؟

– لا شأن لعثمان بهذا .

– ونسيت انت الآن، ونسي الاحنف ان هذه الفتاة التي ستزف اليك، كان سلاحها السم وهي في منزل ابيك ؟

قال : ليس لنا ان ننظر الآن في هذه الوشاية الكاذبة .

قالت : اذكر لي اسم ذلك الرجل الذي سعى بي .

– انك لا تعرفينه ولو ذكرته .

– ومع ذلك فأنا اريد ان اعلم من هو .

– هو قائد من قواد ابيك يدعى سنجان وقد كان عاملاً على مرو الاولى قبل ماهويه .

ـ سمعت ماهويه يتحدث بأمره وهو في منزلنـا على المرغاب وما هي غايته من ذلك ؟

ـ ان ما يفسد علينا الامر ، ويظهر انه لم يكن يطيب له ان تمسي ابنة الملك زوجاً لمسلم .. انه حسود خائن كما ترين ، فهو الذي دفع الملك الى قتـل شهريار المسكين، بل هو الذي دفع الملك نفسه الى الموت .

ـ وعرفت ايها الحبيب كيف قتل ابي ؟

ـ لقد وصف لك هذا القتل من قبل ، فليس من الحكمة ان تسمعي حكايته مرة ثانية .

ـ يطيب لي ان تقص انت هذه الحكاية .

ـ لقد كنت في اقصى خراسان عندما قتل ..

ـ ويطيب لي ان ارى قاتليه ... !

فادرك الفتى ان الاحزان تجيش في ذلك الصدر فقال : لم يكن بين قاتليـه رجل عربي .. ووالله لو عرفت ، في ذلك الحين، انك ابنته لسألت امير المؤمنين للهـ ان يصالحه ويعيده الى عرشه !!

قالت : ان الفرس والعرب يتحدثون بأمر الملك ابي ويصفون بلاطه وتاجه ، وعظمة ملكه ، ولكني لا أرى بين هؤلاء مـن يحدثني بأمر امي المسكينة التي ماتت في حلوان .

قال : وهل تريدين ايتها الحبيبة ، ان نقضي الليل كله بحديث الاموات ؟

قالت : أتعدني يا طارق بقضاء أمر لي ؟

ـ أعدك باني ابذل حياتي لتكوني راضية .. ماذا تطلبين ؟

ـ اطلب ان أرى قبر امي اذا اراد الله ان أعيش !

ـ ان الله يريد ان تعيشي وسترين قبرها ..

ـ ثم أزور قبر أبي الذي .. جار على زوجته .. وجفاها ..

فأحس عندئذ انها تكاد تختنق ، فقال : وبعد ذلك ؟

ـ ارجع الى حلوان لأرقد حيث ترقد المرأة التي ولدتني ..

قال : لم يخطر لي انك تريدين ان تعكري صفو هذا اللقاء .

–انها كلمة طاب لي ان اقولها الان، لان لهذا القلب حديثاً خاصاً كان يحدثني به ، منذ تركت مرو الى هذا اليوم ..

– ذلك حديث أملاه الفشل وخيبة الرجاء بالامس .

– بل يمليه عليّ هذا الضعف الذي تراه .. لقد خلقت ايها الحبيب لأموت وانا في زهرة العمر ، واني لأكره هذا الموت الذي يبعدني عنك !!

فتمتم قائلاً : اما هذا الضعف فسيزول بعد شهر ، واما الموت ، فالله الذي جمع شملنا سينقذك منه .

ثم قال وهو يكفكف الدمع : أسألك باسم جهان روز ان تكفي عن هذا فالقلب لا يستطيع ان يحتمل .

فرددت شفتاها بضع كلمات لم يسمعها الفتى ، ودخل الاحنف عندئذ ،يتبعه عبدالله وسنان وبرسي وخراذمهر . ووراءهم ام عامر التي نقلت اليهم ان الفتـاة عادت إليها الحياة .

وكان البشر على الوجوه وقد انحنى الاحنف يقول لها . لو نقل اليّ القوم ان الجيش العربي استولى على عرش قيصر، لما كان ذلك اطيب وقعاً من هذه البشرى التي حملتها أم عامر . وقال عبدالله : هنيئاً لآل قيس التميمي بأميرة فارس .

فابتسمت لهما ابتسامة الشكر وجعلت تنظر الى سنان القائم عند قدميها ، والى برسي الذي ذكرت عندئذ انه رسول شهريار . اما خراذمهر فلم تعلم من هو ولكنها شعرت بعاطفة عذبة تخفق في صدرها ، عندما ارسلت نظرهـا اليه . والتفتت الى طارق كأنها تسأله عنه ، فقال: هذا خراذمهر ، عم جهان روز وقد كان من كبار رجال الدولة .

فمدت يدها اليه قائلة : ارضى بكلمة واحدة تصف لي بها تلك الام التي هي ابنة اخيك .

قال : كانت احسن الملكات وجهاً واطهرهن خلقا وكان الناس يقولون ، قبل ان تدخل البلاط : انها لؤلؤة المدائن .

– هل كنت مقيما بالبلاط يا عمّ ؟

– لا ، بل كان لي ولأخويّ ، رستم وابان زرد ، ثلاثة قصور بالقرب منه ،

ولكننا لم نقم بها بعد ان أمست جهان روز من وصائف بوران الملكة .

فأومأ الاحنف الى القوم بالخروج وهو يقول : حسبنا ان الاميرة صحت من حمّاها فلننصرف الان .

وقال لطارق : اعلم يا بني انها تحتاج الى الراحة ، فقال : سأقضي الليل في هذا المكان دون ان اقول كلمة .

وكانت هي تقول : من يعلم فقد ينقضي العمر بانقضـــاء هذا الليل فتنتقل عندئذ ، ابنة الملك الفارسي ، من مرو الى حلوان ، محمولة على ظهر ناقة . .

وخيّل الى الجماعة انها تهذي ، فخرجوا وكان عبدالله يهامس الاحنف قائلاً : لقد رأيت مخالب الموت على جبينها الزاهي فهي لا تعيش .

فقال : لا تنسَ انالشباب والغرام يفعلان العجائب، وستشفى ان شاء الله، وتزف الى طارق بعد شهرين . .

ــ اما انا فلا اؤمن بهذا والويل لطارق اذا اختطفتها يد القضاء .

وكانت الاميرة في تلك اللحظة ، تخاطب نفسها ، وتذكر امها ، وغرامها ، كأنها في حلم ، وطارق يسألها ان تلجأ الى النوم وهي لا تسمع له ،ولعلها لمتكن لسمع ما يقول . !

* * *

- ٧١ -

كان عبدالله بن سبأ ، الذي قرأت شيئاً عنه ، يهوديا من أهل صنعـاء ، وكانت امه سوداء ، وقد اسلم في ايام عثمان ، ثم تنقل في بلاد المسلمين ، والضلال يملأ قلبه . بدأ بالحجاز ، ثم انتقل منه الى البصرة فاخرجه عبدالله بن عامر منها كا مرّ ، فأتى الكوفة ، ولم يلبث حتى رحل الى الشام . ولكنه لم يرَ في الشام ما يحب ، فخرج الى مصر ، وجعل ينشر في مصر تعاليمه فيقول : العجب ممن يصدق ان عيسى يرجع ، ولا يصدق ان محمداً يرجع ، وقد قال الله عزّ وجل : « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » فمحمد أحق بالرجوع من عيسى

ووضع لهم الرجعة كما رأيت ، فقبل ذلك منه .

ثم قال لهم بعد ذلك : انه كان لكل نبي وصي وعلي بن ابي طالب وصي محمد وان عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، فانهضوا لهذا الامر ، وابدأوا بالطعن على امرائكم واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وتجعلوهم أنصاراً لكم .. وبث دعاته في مصر ، ثم أرسل كتبه الى جميع الذين كانوا من رأيه في بلاد العرب ، وجعل هؤلاء يكاتبون انصارهم ويذكرون عيوب الولاة والعمال حتى ملأوا الارض كتباً أوغروا فيها الصدور وهيأوا النفوس للثورة الجامحة . وانت ترى انهم كانوا يريدون غير ما يظهرون .. كانوا يبغضون عثمان، وينكرون عليه ايثاره اهل قرابته على رجال الفضل من المسلمين ، ويعيبونه لضعفه وتردده في قضاء امور الامة ، التي هو خليفتها ورئيسها الاكبر وانتهى الى اهل المدينة ، ما يتحدث الناس به في كل قطر .

فاتوا عثمان فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟

قال : لا والله ما جاءني الا السلامة .

فخبروه بما سمعوه ، فقال : انتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا عليّ .

– نشير عليك ان تبعث رجالاً ممن تثق بهم الى الاقاليم يحملون اليك أخبارها .

فدعا محمد بن مسلمة فارسله الى الكوفة ، وارسل اسامة بن زيد الى البصرة ، وعمار بن ياسر الى مصر ، وعبدالله بن عمر الى الشام . وبعث برجال آخرين الى الاقاليم الاخرى . وصبر حتى رجعوا جميعاً قبل عمار بن ياسر رسول الخليفة الى مصر ، فقال لهم : ما رأيتم ؟

قالوا : ان الامراء يقسطون بين الناس .

واستبطأ الناس عماراً حتى ظنوا انه قد قتل ، وبينا هم يظنون ، ورد على عثمان كتاب من والي مصر عبدالله بن سعد يقول له فيه : ان عماراً رسولك ، قد استماله قوم بمصر ، وانقطعوا اليه ، منهم عبدالله بن السوداء وخالد بن ملجم ، وسودان بن حمران ، وكنانة بن بشر .

فكتب عثمان الى اهل الامصار : اني آخذ عمالي بموافاتي في كل موسم ، فلا

يرفع علي شيء ، ولا على احد من عمالي الا أعطيته ، وقد رفع اليّ اهل المدينة ان اقواما يشتمون واقواما يضربون ، فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم ليأخذ حقه حيث كان، مني او من عمالي .فلما قرىء كتابه على الناس في الاقطار بكى الناس ، ودعوا له .

ثم رأى ان يستقدم الولاة ، كما فعل في المرة الأولى ، فقدموا جميعاً ، الا أبا موسى الاشعري الذي لم يدعَ . وادخل معهم في المشورة، سعيد بن العاص وعمرو ابن العاص ، وقال لهم : ما هذه الشكاية والاذاعة ؟ اني والله لخائف ان يكون القوم صادقين فيما نسبوه اليكم .

فقالوا: بعثت رسلك فحملوا اليك الخبر اليقين.. لا والله ما صدق القوم ولا بروا ، ولا نعلم لهذا الامر أصلاً وما هو الا اذاعة لا يحل الاخذ بها والانتهاء اليها .

قال : فما الرأي ؟

فقال سعيد : هذا امر مصنوع يلقى في السر فيتحدث به الناس في مجالسهم ثم تردده الالسنه في الامصار .

– وما دواء ذلك ؟

– طلب هؤلاء القوم ، ثم قتل الذين يخرج هذا من عندهم .

– وانت يا ابن سعد ماذا تقول ؟

فقال عبدالله : خذ من الناس الذي عليهم واعطهم الذي لهم فانه خير من ان تدعهم .

وقال معاوية : اما انا فقد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم الا الخير وهذان الاميران أعلم بناحيتيهما ..

قال : فما ترى ياعمر ؟

– ارى انك قد لنت لهم ، وتراخيت عنهم ، وزدتهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى ان تلزم طريقة الخليفتين قبلك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين .

قال : قد سمعت ما أشرتم به عليّ ولكل امر باب يؤتى منه، ان هذا الامر

الذي اخافه كائن ، وان بابه الذى يغلق عليه ، اللين ، الا في حدود الله ، علم الله اني لم آل الناس خيراً ووالله ان رحى الفتنة لدائرة؛ فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها ، كفكفوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم . وكانوا يومئذ في مكة ، فلما خرج عثمان راجعاً الى المدينة ، خرج معاوية والامراء معه ، فلما كانوا في بعض الطريق رجز الحادي :

قد علمت ضوامر المطيّ وضمرات عوج القسي
ان الامير بعده عليّ وفي الزبير خلف رضيّ
وطلحة الحامي لها وليّ

فقال أحد القوم : كذبت يا حادي ، فالامير والله بعد عثمان هو صاحب البغلة ، وأشار الى معاوية ، فطمع معاوية بالخلافة ، منذ ذلك اليوم . فلما قدم عثمان المدينة ، دعا علياً وطلحة والزبير وعنده معاوية ، فقال معاوية :

انتم اصحاب رسول الله وولاة امر هذه الامة لا يطمع في ذلك احد غيركم ، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع ، وقد كبر وولى عمره وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبتم فيه من شيء ، فهذه يدي لكم به ولا تطمعوا الناس في امركم فوالله لئن طمعوا في ذلك لا رأيتم منها ادباراً .

فقال عليّ : ما لك وهذا لا أم لك !

قال : دع أمي فانها ليست بشرّ أمهاتكم، قد اسلمت وبايعت النبي، واجبني عما اقول ..

فقال عثمان : صدق ابن اخي ، واني لمخبركم بأمري وامر ولايتي ان الخليفتين اللذين كانا قبلي ، ظلما انفسهما وان رسول الله ﷺ كان يعطي قرابته ، وانا في رهط اهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدي في شيء من ذلك المال ، فان رأيتم ذلك خطأ فردوه فأمري لأمركم تبع .

قالوا : أصبحت وأحسنت ولكنك أعطيت عبدالله بن خالد بن اسيد خمسين الفا ، واعطيت مروان خمسة عشر الفاً .

قال: اني اخذ ذلك منهما. فقبلوا وخرجوا راضين. فلما همّ معاوية بالانصراف الى الشام ، قال لعثمان : انطلق معي الى الشام قبل ان يهجم عليك من لا قبَل

لك به فان القوم هناك على الطاعة .

قال : انا لا ابيع جوار رسول الله بشيء وان كان فيه خيط عنقي .

– اذن ابعث اليك جنداً منهم يقيم بالمدينة .

قال : لا اضيق على جيران رسول الله .

قال : اخاف عليك الفتنة يا أمير المؤمنين .

قال : الله حسبي ونعم الوكيل .

فانصرف معاوية ، فمر على نفر من المهاجرين فيهم علي وطلحة والزبير وعليه ثياب السفر ، فسلـّم وتوكأ على قوسه ثم قال : قد علمتم ان هذا الامر كان الناس يتغالبون عليه حتى بعث الله نبيه واكرم به من اتبعه ثم امسى الامر شورى بينهم واني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وودعهم ومضى .

فقال علي : كنت أرى في هذا خيراً .

فقال الزبير : والله لم يكن قط اعظم في صدرك وصدورنا منه اليوم .

وكان الخارجون عن طاعة عثمان ، قد عولوا بعد خروج امرائهم الى مكة ، على ان يخرجوا هم ، من اقاليمهم في يوم واحد ، ويسيروا الى المدينة . ولكن الامر لم يتهيأ لهم كما ارادوا .

فلما رجع الامراء ، عادوا الى التراسل ، وتعاهدوا على اللقاء عند المدينة ، ليسألوا عثمان عن اشياء .. وكانوا يتظاهرون بانهم سيخرجون الى الحج .

وفي مصر ، محمد بن ابي بكر ، ومحمد بن ابي حذيفة ، يحرضـــان القوم على عثمان ويدفعانهم الى خلع طاعته . حتى خرج اهل مصر ، في خمسمائة رجل ، وقيل في الف ، عليهم اربعة قواد ، هم عبد الرحمن بن عديس ، وكنانة بن بشر ، وسودان بن حمران ، وقيترة السكوني ، وعلى الجميع الخافقي بن حرب . وكان معهم ابن السوداء ..

وخرج اهل الكوفة ، في مثل هذا العدد ، وقوادهم زيد بن صوحان ، والاشتر ، وزياد بن النضر ، وعبدالله بن الاصم احد بني عامر بن صعصعة ، وعليهم جميعاً عمرو بن الاصم .

ثم جاء دور أهل البصرة ، ففعلوا كما فعل اهل الكوفة ومشى في طليعتهم ،

حكيم بن جبلة ، وذريح بن عباد ، وبشر بن شريح ، والحطم بن ضبيعة ، واميرهم حرقوص بن زهير السعدي ، ومشت وراءهم طوائف من الناس لا قواد لهم ولا نظام .

فلما كانوا من المدينة على ثلاث مراحل ، تقدم ناس من اهل البصرة فنزلوا موضعاً يقال له ذو خشب ، وكان هواهم في طلحة بن عبيدالله ، اي انهم كانوا يريدون ان تكون الخلافة له .

وتقدم ناس من اهل الكوفة وكان هواهم في الزبير بن العوام ، ونزلوا مكاناً يدعى الأعوص .

واقبل فريق من اهل مصر وكان هواهم في علي وتركوا عامتهم بذي المروة .

ومشى ، فيما بين اهل مصر واهل البصرة ، زياد بن النضر وعبدالله بن الاصم وقالا لهم : لا تعجلوا ، حتى ندخل المدينة وننظر في امر اهلها فقد بلغنا انهم قد تهيأوا لنا ، فوالله ان كان هذا حقاً واستحلوا قتالنا فأن امرنا لباطل .

قالوا : اذهبا !

فذهبا فدخلا المدينة فلقيا ازواج النبي ، وعلي بن ابي طالب ، وطلحة والزبير فقالا : انما نحن على الطاعة وما جئنا الا لنستعفي من بعض عمالنا .

وطلبا اليهم ان يأذنوا للناس في الدخول فلم يرضوا وأبوا جميعهم ان يدخل القوم المدينة على هذه الصورة ، فرجعا الى اصحابها . فاجتمع نفر من اهل مصر فأتوا علياً ، ونفر من اهل البصرة فأتوا طلحة ، ونفر من اهل الكوفة فأتوا الزبير . وكان كل فريق منهم يقول : إن بايعوا صاحبنا فقد بلغنا الغاية ، والا فنحن نفرق جماعتهم ونفاجئهم حتى يستولي عليهم الخوف .

وأتى المصريون علياً وهو في جيش عند احجار الزيت وعليه عمامة حمراء يمانية وقد تقلد السيف . وكان قد ارسل ابنه الحسن الى عثمان ، ليكون من حراسه . فسلموا عليه وخبروه انهم جاءوا ليبايعوه . فصاح بهم وطردهم ، فانصرفوا عنه .

واتى البصريون طلحة فقال لهم مثل ذلك وكان قد ارسل ابنه الى عثمان ،

وكذلك فعل الزبير مع اهل الكوفة .

فرجعوا جميعهم ، وتفرقـــوا عن ذي خشب ، وذي المروة ، والاعوص ، ليخدعوا بذلك اهل المدينة فيتفرق جيشهم . وكانت غايتهم ان يرجعوا جميعاً الى المدينة ويدخلوها كما يدخل الجيش الفاتح . فلما فعلوا ذلك ، تراجع النـــاس في المدينة الى منازلهم وقام في اذهانهم ان اهل الاقاليم قد رحلوا . ولكنهم لم يشعروا الا والتكبير حول المدينة ، فقد نزلها القوم من كل ناحية واحاطوا بعثمان وكانوا يقولون : من كفّ يده فهو آمن .

وصلى عثمان بالنـــــاس اياماً لا يمنعونه ولا يمنعون احداً من الكلام ولكنهم كانوا يمنعون الناس من الاجتماع . ولزم اهل المدينة بيوتهم لا يخرجون منهـــا الا والسيوف في الايدي .

ثم خطر لعلي بن ابي طالب ان يسأل القوم عن امرهم ، فقال : ما ردكم بعد ذهابكم ؟

فقالوا كلهم قولا واحداً كأنما كانوا على ميعاد .

قال : يظهر ان هنالك عهداً .

قالوا : افترض ما شئت فلا حاجة لنا الى هذا الخليفة فليعتزل !

ومع ذلك فقد كان عثمان يصلي بهم وهم يصلون خلفه ..

ولم يـــتردد في ارسال الرسل الى عماله يأمرهم بأن يتعجـــلوا في المجيء ليذودوا عنه .

وهذا بعض ما جاء في كتابه : اما بعد فأن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً ففعل ما أمره الله به ، ثم مضى وخلف بنـــا كتابه فيه الحلال والحرام . ثم كان الخليفتان ابو بكر وعمر رضي الله عنهما ، اجمع اهل الشورى على ان يأمروني بعد عمر ، على غير علم مني ولا مسألة ، فعملت فيهم ما يعرفون وانا متبّع غير مبتدع ، فلما انتهت الامور ، وانتكث الشر بأهله ، بدت ضغائن واهواء ، وقام اصحابها يعيّبون عليّ اشيـــاء مما كانوا يرضون فصبرت لهم نفسي وكلفتها عنهم منذ سنين ، وانا ارى واسمع ، ولكنهم ازدادوا جرأة على الله عز

وجلّ حتى اغاروا علينا في جوار رسول الله وحرمه ، فمن قدر على اللحاق بنا فليفعل .

وانتهى كتابه الى الولاة ، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري في جيش ، وبعث عبدالله بن سعد معاوية بن خديج ، وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو ، وقام في مصر والكوفة والبصرة والشام ، رجال ينتصرون لعثمان ؛ ويسألون وجوه الناس وعامتهم ان يكونوا عونا له .

وكانوا يقولون : يا أيها الناس ، ان الكلام اليوم وليس غداً ، وان النظر يحسن اليوم ويقبح غداً ، وان القتال يحل اليوم ويحرم غداً ، انهضوا للدفاع عن خليفتكم .

فلما كان يوم الجمعة ، بعد نزول القوم المدينة ، خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال : يا هؤلاء ، الله الله ، فوالله ان اهل المدينة ليعلمون انكم ملعونون فامحوا الخطايا بالصواب فان الله يمحو السيء بالحسن .

فقام محمد بن مسلمة فقال : انا اشهد بذلك . فأخذه حكيم بن جبلة فاقعده .

وقام زيد بن ثابت فاقعده محمد بن ابي قيترة وقال قولاً ثار القوم باجمعهم بعده وحصبوا الناس حتى اخرجوهم من المسجد ، ثم حصبوا عثمان نفسه ، فصرع عن المنبر مغشياً عليه .

فحملوه الى داره ، واستقل نفر من اهل المدينة مع عثمان ، منهم سعد بن ابي وقاص والحسين بن علي ، وزيد بن ثابت ، وابو هريرة ، فارسل اليهم عثمان ان يكفوا عن القتال فانصرفوا .

ولم يكن المصريون يطمعون ، بان يساعدهم من اهل المدينة الا ثلاثة رجال ، هم محمد بن ابي بكر ، ومحمد بن ابي حذيفة ، وعمار بن ياسر وكانوا يراسلونهم .

وكان عبدالله بن سعد ، قد خرج من مصر يريد المدينة ، ليضع يده في يد امير المؤمنين ، فبلغه وهو في بعض الطريق ، ان المصريين رجعوا الى المدينة ، فحصروا عثمان وان محمداً بن ابي حذيفة ، استولى على مصر ، ودان له اهلها ،

وان محمداً بن ابي بكر خرج الى الحجاز ، فعاد الرجل الى مصر فمنع من الدخول فأتى فلسطين واقام بها لا ينقل منها قدماً حتى قتل عثمان .

واقبل علي وطلحة والزبير فدخلوا على امير المؤمنين بعد ان حملوه مغشياً عليه من المسجد . وكان عنده نفر من بني امية بينهم مروان بن الحكم .

فقال علي : ما لك يا امير المؤمنين ؟

فقالوا جميعهم : أهلكتنا يا علي وصنعت هذا الصنيع والله لئن بلغت الذي يريد لتذوقن المرّ .. ! فقام علي فخرج مغضباً وخرجت الجماعة وراءه ، وعوّل على ان لا يخرج من منزله ولو دعاه عثمان . فرأى عثمان ان يسترضيه ، فجاء الى بيته ليلا فقال : يا ابن العم ، ان قرابتي قريبة ، ولي عليك حق عظيم ، وقد جاء ما تراه ، من هؤلاء القوم ..

قال : وماذا تريد ؟

قال : لك عند الناس قدر وهم يسمعون منك ، فانا احب ان تركب اليهم فتردهم عني فان في دخولهم عليّ توهيناً لأمري وجرأة على مقام الخلافة .

– وعلى اي شيء اردّهم عنك ؟

– على ان اصير الى ما اشرت اليه ورأيته لي من قبل .

قال : كلمتك مرة بعد اخرى وكنت تعدني انك فاعل ما اشير عليك به ، ثم ترجع عن وعدك ، وهذا ما فعل مروان بن الحكم ، وعبدالله بن عامر ، ومعاوية ، وعبدالله بن سعد ، فانك اطعتهم وعصيتني .

قال : اعصيهم واطيعك ...

وكان عليّ ، ذا خلق عالٍ ووجدان طاهر ، فقال : سأفعل ذلك غداً .

وأمر الناس عند الصباح ، فمشى معه من المهاجرين والانصار ثلاثون رجلاً ، منهم محمد بن مسلمة ، وسعيد بن زيد ، وابو الجهم العدوي ، وجبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن عتاب بن اسيد ، وابو اسيد الساعدي ، وزيد بن ثابت ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك . فأتوا المصريين في معسكرهم ، وعمد علي الى فصاحته وبلاغته يحدث القوم ويدعوهم الى العدول عما هموا به ، ويسألهم باسم الاسلام ، ان يحترموا مقـــام الخلافة ،

ويحقنوا الدماء ويلجأوا الى الحسنى . وساعده في الامر محمد بن مسلمة ، فتردد القوم اولا ثم لانوا ، وعاهدهم ابن عديس على انه يعود بقومه الى مصر ، ثم قال لمحمد : أتوصينا بحاجة ؟

قال : تتقي الله وترد قومك عن خليفتهم فقــــد وعدنا عثمان بان يرجع عما تتهمونه به ..

قال : افعل ان شاء الله .

وقام من ساعته فدعا قومه الى الرحيل ، فعاد علي ومن معه فخبر عثمان ثم خرج من عنده . فمكث عثمان يومه لا يفعل شيئاً .

ودخل عليه مروان بن الحكم عند الصباح فقال له : يا امير المؤمنين ، تكلم واعلم الناس ان اهل مصر قد رجعوا وان ما بلغهم من الخليفة كان باطلا قبل ان يأتيك ما لا تستطيع دفعه .

فأبى عثمان ان يخرج وكان يقول : لا افعل .

قال : تقضي عليك حرمة الخلافة بان تخطب الآن ، وتخبر النــــاس برجوع المصريين فتصير خطبتك في البلاد قبل ان يجيء اليك المسلمون من جميع النواحي فتشتعل نار الفتنة وتمسي عاجزاً عن ان تردهم ..

ولم يزل به حتى خرج فجلس على المنبر ثم قال : اما بعد فان هؤلاء القوم من اهل مصر كان بلغهم عن امامهم امرٌ فلما علموا انه باطل رجعوا الى بلادهم ..

فناداه عمرو بن العاص من ناحية المسجد قائلا : أتق الله يا عثمان فانــك قد ركبت اموراً وركبناها معك ، فتب الى الله نتب . !

قال : وانك هناك يا ابن النــــابغة ؟ قلت والله جبتك منذ عزلتـــك عن الولاية ..

فنودي من ناحية اخرى : تب الى الله واظهر التوبة يكف الناس عنك ..

فرفع يديه عندئذ واستقبل القبلة فقال : اللهم اني أول تائب تاب اليــــك . ونزل فرجع الى منزله .

وكان عمرو بن العاص ، يطعن على عثمان ، منذ عزله عن مصر ، وكان يأتي علياً فيحاول ان يوغر صدره على الخليفة ، ويأتي طلحة والزبير ، في الوقت نفسه

فيفعل مثل ذلك ، ويعرض للحجاج في حجهم فيخبرهم بما صنع عثمان وبما يصنعه كل يوم . وكان له ارض بفلسطين يقال لها السبع ، فلما حصر عثمان رحل اليهـــا ونزل في قصر له يقال له العجلان ، حتى انتهت اليه الاخبار جميعها وهو لا يغادر ذلك القصر .

* * *

لم يشأ علي ، الا ان يكون الخليفة ، اكثر صراحة في توبته ، ليرضى الناس عنه ، ويرجعوا الى طاعته .

فأتاه فقال : قلت في خطبتك انك اول تائب ولم تزد على هذا كلمة .

– وكيف افعل ؟

– تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ، ويشهدون عليه ، ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والامانة ، فان البلاد قد تمخضت عليك كما رأيت ، وانا لا آمن ان يجيء ركب آخر من الكوفة والبصرة فتقول يا علي اركب اليهم فان لم افعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بحقك .

فقام عثمان ، فاعطى الناس من نفسه التوبة ، وقال : ايها الناس ، ما عاب ، من عاب منكم شيئاً اجهله ، وما جئت شيئاً الا وانا اعرفه ، ولكن منتني نفسي وضل عني رشدي ، ولقد سمعت رسول الله يقول : من زلّ فليتب ومن اخطأ فليتب ، فانا اول من اتعظ ، استغفر الله مما فعلت ، واتوب اليـه . فاذا رجعت الى منزلي فليأتني اشرافكم فليروني رأيهم فوالله لئن ردني الحق عبداً لاستنّ بسنة العبد ، ولأذلنّ ذل العبد ، وما عن الله مذهب الا اليه ، فوالله لأعطينكم الرضا ولأنحينّ مروان وذويه ولا احتجب عنكم .

فرق الناس له وبكى من بكى منهم ، ثم قام سعيد بن زيد فقال : الله الله في نفسك يا امير المؤمنين فافعل ما قلت .

فلما انتهى الى منزله ، وجد مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ونفراً من بني امية ، في مجلسه ولم يكونوا قد شهدوا الخطبة .

فلما جلس قال مروان : يا امير المؤمنين أتكلم ام أسكت ؟

فقالت نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان : بل اصمت فانهم قاتلوه وانه قد قال مقالة لا ينبغي ان يرجع عنها .

فانتهك مروان حرمة مولاه بقوله : ما انت وذاك، فوالله قد مات ابوك وما يحسن يتوضأ !!

قالت : مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء ولا تكذب على ابي ، وان اباك لا يستطيع ان يدفع عن نفسه ، اما والله لولا انه غمّ امير المؤمنين وانه ينـاله غمه لأخبرتك بما لن اكذب عليه ...

فأعرض عنها قائلاً : يا امير المؤمنين ، اتكلم ام اسكت ؟

فاجابه ذلك الخليفة الضعيف قائلاً : تكلم ...

فقال : بأبي انت وامي ، والله لوددت ان مقالتك هذه كانت وانت ممتنع فكنت اول من رضي بها وأعان عليها ، ولكنك قلت ما قلت وانت خائف ، فوالله لأقامة على خطيئة ويستغفر منها ، اجمل من توبة تخوّف عليها ، وانت ان شئت تقربت بالتوبة دون ان تعترف بالخطيئة ، وقد اجتمع الان بالباب امثال الجبال من الناس .

قال : اخرج اليهم فكلمهم فانا استحي ان افعل .

فخرج مروان الى الباب ، والناس يركب بعضهم بعضاً فقال : ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب... جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من ايدينا ... اخرجوا عنا والله لئن رمتمونا ليمرّن عليكم منا امر لا يسرّكم ... ارجعوا الى منازلكم فانا والله ما نحن بمغلوبين على ما في ايدينا ...

فرجع الناس واتى بعضهم علياً فخبره الخبر ، فاقبل على عبد الرحمن بن الاسود بن عبد يغوث فقال له : أحضرت خطبة عثمان ؟

قال نعم

– وحضرت مقالة مروان للناس ؟

فقال : اي عباد الله، اني إن قعدت في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي، وان تكلمت لعب به مروان وساقه الى حيث يشاء بعد كبر السنّ ...

وقام مغضباً حتى دخل على عثمان فقال : اما رضيت من مروان وما رضي

مروان منك ، الا بتحرفك عن دينك ومن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يشاء ربه ... والله ما مروان بذي رأي في دينه وفي نفسه ، وأيم الله لأراه يوردك ، وما انا عائد بعد اليوم لمعاتبتك أذهبت شرفك وغلبت على رأيك ...

فلما خرج ، دخلت على الخليفة زوجته نائلة فقالت : قد سمعت قول علي لك ولقد اطعت مروان يقودك حيث شاء .

قال : فما اصنع ؟

قالت : تتقي الله وتتبع سنة صاحبيك ابي بكر وعمر فانك متى اطعت مروان قتلك ، وليس له عند الناس قدر وهيبة . وانما تركك الناس لمكانه منك فارسل الى علي فاستصلحه فان له قرابة وهو لا يعصى .

فارسل عثمان الى علي فلم يأته بل قال لرسوله بصوت مرتفع عال : قل له ما انا بداخل عليك ولا عائد . وبلغ مروان ما قالته نائلة فيه ، فجلس بين يدي عثمان يحاول ان يقول اشياء ، فأسكته قائلاً : لا تذكرها بحرف فأسوّد وجهك فهي انصح لي منك . فكف مروان عندئذ عما هم بقوله ، وانصرف عثمان الى منزل علي ، في ظلام الليل كما فعل في المرة الاولى ، وقال له : لقد مضى ما مضى واني غير عائد الى ما رأيت ، فقال : بعدما تكلمت على منبر رسول الله ، واعطيت من نفسك ثم دخلت بيتك فخرج مروان الى الناس يشتمهم ويؤذيهم وهم على بابك ؟؟!

قال : رأيك ؟

قال : لم يبق لي رأي .

فنهض قائلاً : قطعت رحمي يا عليّ وخذلتني وجرأت الناس عليّ .

قال : والله اني لاذود عنك ، ولكني كلما جئت بشيء اظنه لك رضى ، جاء مروان بشيء آخر فسمعت قوله وتركت قولي . فانصرف وهو يتعثر بخيبته ، ويستعين بالله على الامر الذي انتهى اليه .

* * *

لقد قرأت فيما مر سبب مسير الناس الى المدينة لقتل عثمان، وهم يتظاهرون بانهم ذاهبون الى الحج . ولكن السبب الذي قرأت ، تقدمته اسباب ، وتبعته اسباب ، لا يتسع المجال لذكرها كلها في هذه الفصول . أجل كانت هناك اسباب كثيرة اتخذها الناس وسيلة الى الجرأة عليه والاستخفاف به ثم الى قتله . وانه لاستخفاف غريب ذلك الذي اقدموا عليه ..

قال الطبري وابن الاثير ومعظم المؤرخين :

حملوا الى عثمان ابلاً من إبل الصدقة ، فخطر له ان يهبها لبعض بني الحكم ، من بني أمية ، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف ، فأخذها وقسمها بين النـاس وعثمان في الدار لا يقول كلمة .

وكان اول من اجترأ على عثمان، على خليفة الرسول وسيد العرب جميعها، جبلة ابن عمرو الساعدي ، اجترأ عليه بالمنطق وهو في نادي قومه .

مرّ عثمان في ذلك النادي فسلم ، فردّ القوم ، فقال جبلة : كيف تردون على رجل فعل هذا وفعل يعدد هذا .. وجعل لهم اعماله عملاً عملاً ثم قال له :

والله لاجعلن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن هذه البطانة الخبيثة التي جعلتها حولك .

فقال عثمان : وأي بطانة ؟ اني لم اتخير الناس .

فقال : مروان تخيرته .. وابن عامر وعبدالله بن سعد تخيرتهما ومنهم من نزل القرآن بذمه واباح رسول الله دمه .. فأجترأ عليك الناس منذ ذلك الحين .

وخطب يوماً وبيده عصا كان النبي وابو بكر وعمر يخطبون عليها ، فأخذها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته .

وكتب فريق من وجوه اهل المدينة ، من الصحابة وغيرهم الى من بالآفاق منهم :

ان اردتم الجهاد فهلموا اليـه فان دين محمد قد افسده خليفتكم فأقيموه . فأختلفت قلوب الناس ، ثم جاء المصريون واهل البصرة والكوفة فردّهم عليّ

ومحمد بن مسلمة كما رأيت. ولكنهم لم ينتهوا الى البويب، حتى رأوا رجلا يقال له أبو الأعور السلمي على بعير من ابل الصدقة .

فقال له كبيرهم عبد الرحمن بن عديس : أين تريد ؟

قال : اريد مصر .

وكان معه رجل من اهل الشام ، من خولان ، فقال عبد الرحمن ..

هل معك كتاب ؟

قال : لا !

– وفيما أرسلت وهذا جمل الخليفة ؟

– لا علم لي ..

قال : ليس معك كتاب ولا علم لك بما ارسلت ان امرك اذن يدعو الى الشك، وقال لرجاله : فتشوه ، ففعلوا فوجدوا معه كتاباً في وعاء من رصاص ، ارسله عثمان الى عبدالله بن سعد والي مصر ، وقد جاء فيه : اما بعد فاذا اتاك كتابي هذا فانظر فلانا وفلانا واضرب اعناقهم ، وفلانا وفلانا فاحلق رؤوسهم وعاقبهم بالجلد والحبس والصلب .

وسمى له وجوه القوم على رأسهم ابن عديس. فلما رأوا ذلك نادى مناديهم: ارجعوا الى المدينة فقد خان عثمان . ورجعوا ، والحقد في الصدور ، والسيوف في الايدي .

وبلغ وفود الاقاليم ، امر الكتاب ، فرجعوا جميعهم حتى بلغوا المدينة ، فثار اهلها لهذا الخبر الغريب ، وارتفعت اصوات القوم من كل ناحية تعيب عثمان .

ثم جاء علي ومحمد بن مسلمة فقالوا لهما : هذه حكايتنا مع الخليفة فادخلا معنا اليه .. فدخل الرجلان ، ومروان في المجلس ... فاستأذنا للمصريين ، فقال مروان : دعني اكلمهم يا امير المؤمنين .

قال : اسكت ، ما انت وهذا الأمر ، اخرج عني . فخرج مروان ودخل رؤساء القوم ، فقال عليّ : لقد وجد المصريون ، مع أبي الأعور السلمي ، كتاباً منك الى عاملك في مصر، تأمره فيه بأن يقتل بعضهم ويجلد البعض الآخر وهذا

هو الكتاب فما تقول ؟

فقرأه فقال : اقسم بالله ما كتبته ولا علم لي به ... !

فقال محمد بن مسلمة : صدق امير المؤمنين ، هذا من عمل مروان .

فقال ابن عديس : لقد جعلت عبدالله بن سعد عاملاً لك على مصر ، ففعل بالمسلمين واهل الذمة ما فعل واستأثر بالغنائم كلها لا يعطي احداً منها شيئاً، فاذا سألناه عن ذلك قال : ورد علي بذلك كتاب من أمير المؤمنين ..

فسكت عثمان ولم يجب ، ثم قال : وقد انتهى الينا انك تحرم الناس وتعطي قومك ، وقد سلطتهم على امور الخلافة حتى انهم يفعلون ما يطيب لهم دون ان يسألوك او يشاوروك ... وقد خرجنا من مصر ونحن نريد قتلك ، فردّنا محمد وعلي وضمنا لنا انك ستبقى عند حسن الظن فرجعنا . ولكن عثرنا على هذا الكتاب تأمر به عبدالله بان يقتلنا ...

قال : لا علم لي به ...

قال : وأبو الأعور ؟

– انطلق ايضاً بغير علمي .

– وجملك ؟

– اخذه من الدار بغير امري ..

قال : وخاتمك ؟

قال : نقش عليه وانا لا أعلم !

فقال علي ومحمد : صدق امير المؤمنين .

فقال ابن عديس : ومن كتب الكتاب ؟

– لا ادري !

– قال : يجترأ عليك ، ويبعث غلامك على جمل من نوق الصدقة ، ويوضع خاتمك في كتاب يرسل الى عاملك بهذه الأمور العظيمة وانت لا تعلم ؟ !

قال : نعم !

قال : اذن فأنت اما صادق او كاذب ، فأن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما امرت به من قتلنا بغير حق ؛ وان كنت صادقاً فقد استحققت ان تخلع نفسك

لضعفك عن هذا الأمر ، وغفلتك وخبث الرجال الذين قربتهم اليك ولا ينبغي لنا ان نترك امر الخلافة بيــد رجل تقطع الأمور دونه ، فاخلع نفسك كما خلعك الله .

قال : لا انزع قميصاً البسنيه الله ولكني أتوب .

– لو كان هذا اول ذنب تبت منه قبلنا ، ولكننـــا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك او نقتلك او تلحق ارواحنا بالله تعالى ، وان منعك اصحابك واهلك قاتلناهم حتى تبلغ الغاية

قال : اما ان اتبرأ من خلافة الله فالقتل أحب اليّ من ذلك ، واما قولــكم نقاتلون من يدافع عني فاني لا آمر احداً بقتالكم ومن قاتلكم فبغير امري ولو اردت ان اقاتلكم لكتبت الى امراء الجند فقدموا عليّ او لحقت ببعض اطراف البلاد ..

وكثرت الاصوات في الخارج ، فخرج علي الى منزله وخرج المصريون وراءه .

فكتب عثمان عندئذٍ الى الولاة يأمرهم بارسال الجنود اليه ، وجمع اهل مشورته وسألهم الرأي . فقال بعضهم : ارسل الى علي واطلب اليه ان يردهم ويعطيهم ما يرضيهم ، حتى يأتيك الجند ..

انهم لا يقبلون منى التعلل وقد كان مني في المرة الأولى ما كان .

قال مروان: اعطهم ما سألوك، وطاولهم فانهم قوم بغوا عليك ولا عهد لهم .

فقال : ادعوا لي علياً .

فأقبل علي فقال له : لقد رأيت ما كان من النـــاس ولست آمنهم على دمي فارددهم عني فأني اعطيهم ما يريدون من الحق ..

قال : النـــاس الى عدلك احوج منهم الى قتلك ، وقد كنت اعطيتهم أولاً عهداً فلم تفِ به ، واني لمعطيهم الحق عليك .

قال : اعطهم فوالله لأفين لهم .

فخرج علي فقال للناس : انما طلبتم الحق وقد اعطيتموه وقد زعم الخليفة انه منصفكم من نفسه .

فأجابوه قائلين : قبلنا ، فاستوثق منه لنا فانا لا نرضى بقول دون فعل .

فدخل عليه فخبّره ، فقال : اضرب بيني وبينهم أجلاً فاني لا اقدر على ان أردّ ما كرهوا في يوم واحد .

قال : اما ما كان في المدينة فلا أجل فيه ، واما ما كان في غيرها ، فأجله وصول أمرك .

قال : نعم ، أجّلني لما في المدينة ثلاثة أيام .

فاجابه علي الى ذلك وكتب بينهم كتاباً على ردّ كل مظلمة ، وعزل كل عامل لا يريدونه .. فكف الناس عنه ، فجعل يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح واتخذ له جنداً .

فلما انقضت الايام الثلاثه ولم يغير شيئاً مما وعد به ثار الناس ، وخرج عمرو ابن حزم الانصاري الى المصريين ينقل اليه ما سمعه .

فاقبلوا يطلبون اليه عزل عماله ورد مظالمهم فقال : ان كنت مستعملاً من أردتم وعازلاً من كرهتم فلست شيئاً والأمر امركم !

قالوا : ان لم تفعل خلعناك او قتلناك .

فأبى قائلاً : لا أنزع ما البسنيه الله .

فحصروه ، واشتد عليه الحصار ، فأرسل الى علي وطلحة والزبير فحضروا. فاشرف عليهم وهم بين القوم وقال : يا اهل المدينة ، استودعكم الله واسأله ان يحسن عليكم الخلافة من بعدي، ثم قال: مهلاً انه لا يحل الا قتل ثلاثة، رجل زنى بعد زواجه ، أو كفر بعد ايمانه أو قتل نفساً بغير حق وانكم اذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفع الله الاختلاف الى الأبد ..

فارتفعت اصوات تقول : اخلع نفسك . فسكت ، ثم دخل داره وأمر اهل المدينة بالرجوع واقسم عليهم ، فرجعوا الا الحسن بن علي ، وابن عباس ، ومحمد ابن طلحة ، وعبدالله بن الزبير وانصاراً لهم . .

واجتمع حول الدار ناس كثير ، فلما مضت من الحصار ثماني عشرة ليلة ، قدم فريق من الاقاليم يقولون : ان الجند قد تهيأ وسيجيء. وفي هذا تشجيع لأنصار عثمان . فحال المصريون ومن معهم عندئذ، بين الناس وبين الخليفة ومنعوه كل شيء حتى الماء ..

فأرسل الى علي سراً ، والى طلحة والزبير وازواج النبي يقـــول : انهم قد منعوني الماء فان قدرتم على ان ترسلوا اليّ ماء فافعلوا .

فكان علي وام حبيبة زوج النبي ، اول من اجابه ، فجاء علي في آخر الليل فقال : ايها الناس ان الذي تفعلونه لا يفعله المؤمنون، فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء والمادة فان الروم وفارس اذا أسرت عدواً تطعمه وتسقيه .

قالوا : لا والله !

وجاءت ام حبيبة على بغلة لها ، فضربوا وجه بغلتها فقالت : ان وصايا بني امية عند هذا الرجل فأحببت ان اسأله عنها لئلا تهلك اموال الايتام والارامل..

فقالوا : كاذبة . !

وقطعوا حبل البغلة بالسيف فنفرت وكادت تسقط عنها فتلقاها النـــاس فأخذوها وذهبوا بها الى بيتها .

وبلغ طلحة والزبير ما لقي علي وام حبيبة . فلزما بيتيهما وبقي عثمان يسقيه ا ل حزم والناس غافلون عنه .

ودخل عبدالله بن عباس على عثمان في فجر يوم ، فقال له عثمان : ادنُ واسمع كلام القائمين بالباب .

فدنا فسمع بعضهم يقول : ما تنتظرون ؟ وكان البعض الآخر يقول : لعله يرجع فيفي بما وعد .

وبينما هما واقفان ، مرّ طلحة فقال : اين ابن عديس ؟

فقام ابن عديس فجعلا يتهامسان . ثم رجع ابن عديس فقال لاصحابه :

لا تتركوا احداً يدخل على عثمان او يخرج من عنده !

فقال عثمان لابن عباس : هذا ما امر به طلحة اللهم اكفني طلحة فأنه أغرى هؤلاء وألبّهم عليّ والله اني لأرجو ان يكون منها صفراً وان يسفك دمه . .

فأراد عبدالله عندئذ ان يخرج فمنعوه، حتى أمرهم محمد بن ابي بكر فأذنوا له.

ورأى اهل مصر ان جنود الامصار سيجيئون ، وان الدائرة ستدور عليهم وعلى كل من حمل معهم سيفاً . فطافوا بين الصفوف قائلين : لا يخرجنـــا من هذا الامر الذي وقعنا فيه الا قتل هذا الرجل .

وعمدوا الى باب المنزل يريدون ان يقتحموه ، فتصدى لهم الحسن ، وابن الزبير ، ومحمد بن طلحة ، ومروان ، وسعيد بن العاص ومن معهم من ابنـــاء الصحابة وكادت تشهر السيوف .

فزجرهم عثمان قائلاً : انتم في حل من نصرتي . فأبوا ، ففتح الباب ، فلما رآه المصريون رجعوا . فأقسم الخليفة على اصحابه ان يدخلوا ، ففعلوا واغلق الباب.

فقام رجل من أسلم يدعى تيار بن عياض ، وكان من الصحابة فنادى عثمان وبينا هو يناشده ان يعتزل رماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله .
فقالوا لعثمان عندئذ : ادفع لنا قاتله لنقتله .

قال : لم أكن لأقتل رجلاً يدافع عني وانتم تريدون قتلي ..

فلما رأوا ذلك وثبوا الى الباب فلم يمنعهم احد منه والباب مغلق لا يقدرون على الدخول . فجاؤا بنار فأحرقوه .. وثار اهل الدار ، وعثمان يصلي لا يشغله عن الصلاة ما يسمعه من اصوات التهديد والوعيد حول منزله .

فلما فرغ ، تناول المصحف وجعل يقرأ ، ثم قال لمن عنده :

ان رسول الله قد عهد الي عهداً فانا صابر عليه .. ان هؤلاء لم يحرقوا الباب الا وهم يطلبون ما هو أعظم من ذلك ... ثم قال للحسن بن علي :

ان اباك الآن لفي همّ عظيم من أمرك ، فاستحلفك بالله ان تخرج اليه ...

فتقدم مع رفاقه يقاتلون ولم يسمعوا له .

وبرز المغيرة بن الأخنس بن شريق ، وكان قد تعجل في الرجوع من الحج مع عصابة له لينصروا عثمان ، وجعل يرتجز... ثم خرج الحسين ومحمد بن طلحة، وسعيد بن العاص ، وعبدالله بن الزبير ، ومروان . فلما ابصر االقوم مروان ، تصدّى له رجل من بني ليث يدعى البياع ، فتضاربا ، فأصيب مروان في عنقه وسال دمه. فقام عبيد بن رفاعة ليجهز عليه فقالت له فاطمة ام ابرهيم بن‌عدي، وكانت قد ارضعت مروان : ان كنت تريد قتله فقد قتل ، وإن كنت تريد ان تهشم جسده فهذا قبيح ..

فتركه فأدخلته بيتها ، وما هي الا لحظة حتى قتل المغيرة بن الاخنس ، ثم اقتحموا الدار من المنازل التي حولها . دخلوهـــا من دار عمر بن حزم ، حتى

غصّت بهم والناس القائمون بالباب لا يشعرون . ثم ندب القوم رجلاً ليقتل امير المؤمنين ... فدخل عليه فقال : اخلع نفسك يا عثمان وندعك .

قال: والله لست خالعاً نفسي حتى يكرم الله اهل السعادة ويهين اهل الشقاء.

فخرج ولم يشهر في وجهه السيف ..

فقالوا له : ما صنعت ؟

قال : والله لا تذهب الفتنة الا اذا قتل ولا يحل لنا قتله .

فادخلوا عليه رجلاً من بني ليث ، فقال له عثمان : لست بصاحبي لان النبي دعا لك ان تحفظ يوم كذا وكذا . فرجع عنه ثم فارق قومه .

ودخل عليه رجل من قريش فقال: ان رسول الله استغفر لك يوم كذا وكذا فلن تهرق دماً حراماً ، فرجع كما رجع الليثي وفارق اصحابه .

واقبل في تلك الساعة عبدالله بن سلام ينهاهم عن قتله فقال: يا قوم: لاتسلّوا سيف الله فيكم فوالله ان سللتموه لا تغمدوه ، ويلكم ان سلطانكم اليوم يقوم بالسوط ، فان قتلتموه لا يقوم الا بالسيف ويلكم ان مدينتكم محفوفة بالملائكة فان قتلتموه لتتركنها ، فقالوا له : يا ابن اليهودية ما انت وهذا ؟ فانصرف عنهم ، وكان آخر من دخل عليه ، محمد بن ابي بكر ، ففاجأه الخليفة بقوله : أعلى الله تغضب ؟ هل لي اليك ذنب أو لك حق اخذته منك ؟

فأخذ محمد لحيته وقال : قد اخزاك الله يا نعثل « النعثل الكبير الضخم وهو لقب عثمان »

قال : لست بنعثل ولكني عثمان وأمير المؤمنين .

قال : ما اغنى عنك معاوية وعبدالله بن عامر وعبدالله بن سعد ؟؟

قال : يا ابن اخي ، ان اباك لم يكن ليقبض على لحيتي .

قال : لو رآك ابي تعمل هذه الاعمال انكرها عليك والذي اريد بك اشد من قبضي عليها .

قال : استنصر الله عليك واستعين به.

فتركه عندئذ وخرج ، « وهنالك من يقول انه طعن جبينه بسهم كان في يده » .

فلما خرج ورأى القوم انه لم يجسر على قتله ، ثار قيثرة وسودان بن حمران السكونيان ، والغافقي امير المصريين ودخلوا عليه والمصحف في يده ، فضربه الغافقي بحديدة كانت معه ، وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف ثم استقر بين يديه وسالت عليه الدماء .

ثم همّ سودان بضربه ، فأكبت عليه زوجته نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها فبرى السيف اصابعها . وضرب عثمان فقتله . وقيل ان الذي قتله كنانة بن بشر النجيبي . ودخل عندئذ غلمان عثمان ، مع اهل الدار لينصروه فرأوا ان سودان قد قتله ، فضرب أحدهم سودان من الوراء فسقط قتيلاً .
ووثب قيثرة فقتل ذلك الغلام ، ودار القوم عندئذ فأخذوا ما وجدوه في منزل أمير المؤمنين القتيل حتى تناولوا ما على النساء .
واخذ رجل يقال له كلثوم بن نجيب ، ملاءة نائلة ، فضربه غلام لعثمان فخر ميتاً والملاءة معه ...

ثم تنادى القوم : ادركوا بيت المال . ولم يكن في بيت المال غير غرارتين .
فلما سمع اصحابه قولهم قال احدهم : النجاة فان القوم انما يريدون الدنيا .
واقبل عمرو بن الحمق ، من قواد مصر ، يريد ان يأخذ حصته من دم الخليفة المسكين .. ! فوثب الى الداخل، وطعنه تسع طعنات وكان يقول: اما الطعنات الثلاث الاولى فلله تعالى ، واما الست الاخرى فلما كان في صدري عليه ... !
وجاء عمير بن ضابىء فكسر ضلعاً من اضلاعه وهو يقول : سجنت ابي حتى مات في السجن.

وارادوا بعد ذلك ان يقطعوا رأسه . فوقعت نائلة وام البنين عليه وجعلتا تصيحان وتضربان الوجوه ، فقال ابن عديس للقوم : كفى فقد انتهى كل شيء .
وكان قتله يوم الجمعة ، لثماني عشرة خلت من شهر ذي الحجة في السنة الخامسة والثلاثين للهجرة . وكانت خلافته اثني عشر عاماً الا بضعة ايام وقتل ، وهو في الثانية والثمانين من العمر .

***

بقيت جثة عثمان ، ثلاثة ايام لا تدفن . فسار حكيم بن حزام القـــرشي ، وجبير بن مطعم ، الى علي بن ابي طالب وطلبا اليه ان يأذن في دفنه . ففعل ، وقد شيع الجثة الى القبر ، طائفة قليـــلة من اهله ومن القوم ، فيهم ابن الزبير والحسن بن علي ، وابو جهم بن حذيفة ، ومروان بن الحكم ، وكان ذلك بـــين المغرب والعشاء . حملوا الجثة الى حائط من حيطان المدينة يسمى حش كوكب وهو خارج البقيع ، وصلى عليه جبير بن مطعم . وكان بعض الانصار قد همّوا بأن يمنعوا الصلاة فخافوا من الفتنة .

وقيل : شهد دفنه ، علي وطلحة وزيد بن ثابت ، وكعب بن مالك وغـــير هؤلاء من وجوه الناس ، ودفن في ذلك الحائط .

فلما تولى معاوية امر الخلافة ، امر بذلك الحائط فهدم ، وادخل في البقيـع ، وامر الناس فدفنوا امواتهم حول قبره حتى اتصل الدفن بمقابر المسلمين .

قال حسان بن ثابت الانصاري من قصيدة :

أتركتم غزو الدروب وراءكم وغزوتمونا عند قبر محمد
فلبئس هدي المسلمين هديتمُ ولبئس امر الفــاجر المتعمد

ومنها :

وكأن اصحاب النبي عشية بُدُن تذبح عند باب المسجد
ابكي ابا عمرو لحسن بلائه امسى ضجيعاً في بقيـع الفرقد

وكان حسان شاعراً كبيراً يحب عثمان ، وقد بكاه كثيراً ، ورثاه ومدحه كثيراً يشاركه في ذلك المديح ، كعب بن مالك الانصـــاري ، وتميم بن ابي بن مقبل ، وغيرهما ، وهنالك من الناحية الاخرى ، شعراء يهجون عثمان ، ويذكرون خطيئاته ، كما كان حسان ومن حوله يذكرون فضله .

على ان حسان ، لم يقصر شعره على الرثاء والبكاء ، بل تعدى فيه حد المديح الى اشعال النار ، نار الفتنة ، فكان له في ذلك شعرٌ اوغر به الصدور .

من ذلك قوله :

من سرّه الموت صرفاً لا مزاج له فليـــأت مأسدة في دار عثمانا

صبراً، فدى لكم امي وما ولدت قد ينفع الصبر في المكروه احيانا
فقد رضينا باهل الشام نافرة وبالامير وبالاخوان اخوانا
اني لمنهم وان غابوا وان شهدوا ما دمت حياً وما سميت حسانا
لتسمعن وشيكا في ديارهم الله اكبر يا ثارات عثمانا ...!
يا ليت شعري، وليت الطير تخبرني ما كان شأن عليٍّ وابن عفانا

وقال الوليد بن عقبة، بن ابي معيط، يحرض اخاه عمارة على ان يطلب بدم عثمان :

ألا ان خير الناس بعد ثلاثة قتيل النجيبيّ الذي جاء من مصر
فان يك ظني بابن امي صادقاً عمارة لا يطلب بذحل ولا وتر
يبيت واوتار ابن عفان عنده مخيّمة بين الخورنق والقصر

فأجابه الفضل بن عباس يهجو عثمان من قصيدة :

ألا ان خير الناس بعد محمد وصي النبيّ المصطفى عند ذي الذكر

« وهو يعني علياً »

وأول من صلّى وصنو نبيه واول من اردى الغواة لدى بدر
فلو رأت الانصار ظلم ابن عمكم لكانوا له من ظلمه حاضري النصر
كفى ذاك عيباً ان يشيروا بقتله وأن يسلموه للأحابش من مصر

وقال الحباب بن يزيد المجاشعي عم الفرزدق الشاعر :

لعمر ابيك فلا تجزعن لقد ذهب الخير الا قليلا
لقد سفه الناس في دينهم وخلّى بن عفان شراً طويلا
أعاذل كل امرىء هالك فسيري الى الله سيراً جميلا

***

- ٧٤ -

قتل عثمان، فبقيت المدينة خمسة ايام، وأميرها الغافقي بن حرب، أمير المصريين، والناس يلتمسون من يجيبهم الى القيام بأمر الخلافة، فلا يجدونه. لجأ

طلحة الى منزل له، وخرج سعد بن ابي وقاص والزبير من المدينة ، وهرب سعيد ابن العاص، والوليد بن عقبة ، ومروان بن الحكم الى مكة ولحق بهم بنو امية الا من لم يستطع الهرب .

فاتى المصريون علياً يسألونه ان يرضى بالخلافة فأبى ، وأتى الكوفيون الزبير فلم يرضَ ، وأتى البصريون طلحة ففعل فعل الاثنين .

اجل ، كان القوم مجتمعين على قتل عثمان، ولكنهم اختلفوا فيمن يلي الخلافة بعده . فأرسلوا الى سعد يسألونه فقال : اني وعبد الله ابن عمر بن الخطاب ، لا حاجة لنا اليها .

فقال بعضهم : لئن رجع الناس الى اوطانهم بغير خليفة ، لم نأمن الاختلاف وفساد الأمة، والفتنة الطائشة : فجمعوا اهل المدينة فقالوا لهم : يا اهل المدينة: انتم اهل الشورى ، وانتم تولوّن الخليفة وحكمكم محترم من الامة فانظروا رجلاً تولونه ونحن لكم تبع . ثم قالوا : موعدنا غداً ، فوالله لئن لم تفرغوا من الامر لنقتلنّ غداً ، علياً وطلحة والزبير ، ومن يتبعهم من وجوه الاسلام . فأقبل الناس الى منزل علي فقالوا له: انت ترى ما نزل بالاسلام وما ابتلينا به وقد جئنا لنبايعك .

قال : دعوني والتمسوا غيري فانّا مستقبلون امراً له وجوه وله ألوان ، لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت عليه العقول.

قالوا : ألا ترى الاسلام، الا ترى الفتنة، ألا تخاف الله؟ فأطرق ملياً ثم قال: اني ان أجبتكم فعلت ما أعلم ، وان تركتموني فانما أنا كأحدهم الا اني من اسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه .

وافترقوا على ان يتوسعوا في المشورة ، فلما كان الليل قالوا: اذا دخل طلحة والزبير في المبايعة استقام الامر ، فبعث البصريون الى الزبير ، حكيم بن جبلة ، ومعه نفر . فقالوا له: تبايع علياً ? واتى الاشتر طلحة فقال له مثل هذا القول، والسيف في يده . فلما طلعت شمس اليوم الثاني ، اقبل الناس يقولون لعلي : ما نحن براجعين حتى نبايعك .

قال : اختاروا غيري .

قالوا : لا نعلم احداً أحق به منك ، واقدم سابقة ، واقرب قرابة من رسول الله ، وما نختار غيرك .

قال: اذن في المسجد فان بيعتي لا تكون خفية. فخرجوا الى المسجد ، وعلى علي ازار وعمامة خزّ ونعلاه في يده !! وهو يتوكأ على قوس .

فبايعه الناس ، وكان اول من بايعه طلحة بن عبيدالله ، وبعض المؤرخين يقولون انه بايعه وهو مكره . وكان بيد طلحة شلل ، فنظر اليه حبيب بن ذؤيب قائلاً : انا لله وانا اليه راجعون ، أول يد بايعت امير المؤمنين يدٌ شلاء فلا يتم هذا الأمر . ثم جاء القوم بالزبير يدعونه الى المبايعة ، فتمتم قائلاً : اني انما ابايع كرهاً .

وجاؤوا بسعد بن أبي وقاص يقولون له بايع فقال : لا افعل حتى يبايع الناس والله ما عليك يا علي مني باس .

فقال علي : خلوا سبيله .

ثم جاء عبدالله بن عمر بن الخطاب فقال مثل قول سعد .

فقال علي : ائتني بكفيل . .

قال : لا أجد كفيلا .

فقال الاشتر : دعني اضرب عنقه ..

قال : دعوه فانا كفيله ...!

وبايعت الانصار ، الا طائفة قليلة ، منها حسان بن ثابت ، وكان شاعراً لا يبالي ما يصنع ... وزيد بن ثابت وكان عثمان قد ولاه الديوان وبيت المال ، وكعب بن مالك وكان عاملا على بعض الصدقة وقد ترك له عثمان ما اخذه من القوم ، ومسلمة بن مخلد ، وأبو سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد ، وكعب بن عجرة ، وعبدالله بن سلام وصهيب بن سنان ، وسلمة بن سلامة ، واسامة بن زيد ، وقدامة بن مظعون ، والمغيره بن شعبة ، وجميعهم من انصار عثمان .

والنعمان بن بشير ، هو الذي حمل اصابع نائلة التي قطعت بالسيف وقميص عثمان الذي كان يلبسه عندما قتل ، ولحق بالشام . فكان معاوية ، يعلق ذلك

القميص وفيه الاصابع ، فاذا رأى ذلك اهل الشام ، ازدادوا غيظاً وحقداً على علي وانصار علي . . .

ثم جيء بقوم كانوا يترددون في المبايعة ، فقالوا : نبايع على اقامة كتاب الله في القريب والبعيد ، والعزيز والذليل ، وبايعت العامة وجميع من في المدينة ، الا اولئك الذين قرأت اسماءهم ، فوق هذه السطور . فلما انتهى الامر ، وقف علي يخطب ، وهي اول خطبة خطبها قال : ان الله عز وجل انزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا الخير ودعوا الشر . الفرائض ، الفرائض ادوها الى الله سبحانه يؤدكم الى الجنة ، المسلم من سلم الناس من لسانه ويده الا بالحق، اتقوا الله في عباده وبلاده انكم مسؤولون عن البقاع والبهائم اطيعوا الله ولا تعصوه واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون .

ونزل فانصرف الى منزله ، فلحق به طلحة والزبير في جماعة من الصحابة فقالوا له : يا امير المؤمنين ، انا قد اشترطنا إقامة الحد وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم عثمان . . .

فقال : لست اجهل ما تعلمون ، ولكن القوم اليوم فوضى ، وقد انضم اليهم عبيدكم وغلمانكم وثابت اليهم اعرابكم فهل ترون الآن اني قادر على شيء ؟

قالوا : لا !

قال: والله لا ارى الا رأياً ترونه ان شاء الله، فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق ثم عودوا .

واشتد على قريش ، وحال بينهم وبين الخروج من المدينة . وانما دعاه الى ذلك ، هرب بني امية الذي اوغر صدره . وكان بعض الناس يقولون عندما تفرقوا : خير لنا ان نصبر كما قال علي .

ويقول البعض الاخر : والله ان علياً لمستغن برأيه وامره عنه ولا نراه الا سيكون على قريش اشدّ من سواه .

وكثرت الاراء حول ذلك التضعضع الفكري والثورة الهائجة ، وحدث الناس علياً بأمر عماله ، هذا يسأله ان يعزلهم وهذا ينصح له بألاّ يفعل .

وسمع المغيرة بن شعبة بذلك ، فدخل على علي فقال : ان لك حق الطاعة

والنصيحة ، وان الرأي اليوم ، يضمن لك الهدوء والراحة في غد .. ابقِ معاوية اميراً على الشام ، واقرر عبدالله بن عامر وجميع عمال عثمان على اعمالهم حتى اذا اتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت او عزلت .

قال : انظر في ذلك .

قال : اذا أبيت ان تصغي إلي فانزع من شئت الا معاوية فان فيه جرأة وهو سيد الشام ، ولك عذر في اثباته فقد ولاّه الشام ، عمر بن الخطاب ..

قال : لا والله لا استعمل معاوية يومين !

فخرج المغيرة ، ثم عاد في اليوم الثاني ، فقال : اشرت عليك امس ، بان تبقي عمالك ريثما يبايعك الجيش ، او تعزلهم وتترك معاوية ، اما اليوم فانصح لك بان تنحيهم جميعاً فقد كنت مخطئاً امس ، فيما رأيت ... وانهم لاضعف من ان يرتفع لهم صوت ، اذا فعلت . قالها وانصرف، دون ان يسمع جوابا .

وكان ابن عباس يهم بالدخول الى مجلس علي ، وقد رأى المغيرة خارجاً منه، فلما انتهى اليه قال : ماذا قال لك المغيره يا امير المؤمنين ؟

قال : طلب اليّ امس ان ابقي معاوية وجميع العمال ليبايعني القوم في كل ناحية فأبيت ذلك عليه ، فعاد اليّ الان، يسألني ان اعزلهم وقد ندم على ما قاله من قبل .

فقال ابن عباس : اما المرة الاولى فقد نصح لك ، واما اليوم فقد غشّك .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : ان معاوية واصحابه اهل دنيا ، فمتى ابقيت لهم الولاية ثبتوا على الطاعة ولم يبالوا بمن ولي الخلافة، ولكنك اذا عزلتهم قالوا: اخذ ابن ابي طالب الخلافة بغير شورى ، وهو الذي قتل عثمان ، ثم يوغرون عليك الصدور فيثور اهل الشام واهل العراق وانا لا آمن طلحة والزبير ان يخرجا عن طاعتك.

– وبماذا تشير ؟

– بأن تثبت معاوية ، فاذا بايعك فعليّ انا ان انزعه من كرسيه ..

قال : والله لا اعطيه الا السيف ثم قال :

وما ميتة ان متها غير عاجز بعار اذا ما غالت النفس غولها

قال : انك يا امير المؤمنين رجل شجاع ولكنك لست صـــاحب رأي في الحرب ، اما سمعت رسول الله يقول : الحرب خدعة ؟

قال : بلى !

قال : والله لئن اطعتني لأصدرنهم بعد ورد ، ولأتركنهم ينظرون في دبر الامور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان ولا إثم عليك .

قال : لا ابالي بمعاوية وانصاره !

قال : اطعني ، فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً .

قال : تشير علي بهذا وانا لا ارى رأيك ، أفلست انت أولى بالطاعة ؟

قال : اني أول من اطاع .

ـ اذن تسير الى الشام فقد وليتك .

قال : ما هذا برأي ، ان معاوية رجل من بني امية وهو ابن عم عثمان وعامله ولست آمن ان يضرب عنقي ولكن اكتب اليه وأكثر له من الوعود .

قال : لا والله لا كان هذا أبداً .

فخرج ابن عباس وهو يقول في نفسه : ستنشر الفتنة جناحيها في كل فضاء ، فلا حول ولا قوة الا بالله .

* * *

- ٧٥ -

الامام علي

هو علي ، بن ابي طالب ، واسم ابي طالب عبد مناف ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصي ، الذي بنى ، بذكائه ، وهمته ، وعظمة نفسه ، هذا البيت العربي الكريم . فهو اذن ، ابن عم الرسول العظيم ، لان ابا طـالب والد علي ، وعبدالله والد النبي ، اخوان . وام علي ، فاطمـــة بنت أسد ، بن

هاشم بن عبد مناف ، فهو اول خليفة ابواه هاشميان ، ولم يل الخلافة ، على ما يقول ابن الاثير ، رجل ابواه هاشميان ، غير علي ، والحسن ابنه ، ومحمد الامين ابن هارون الرشيد، لان امه زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، من سلالة هاشم .
وكان علي اسمر ، ثقيل العينين عظيم اللحيـــة ، كثير شعر الصدر ، ولم يكن طويل القامة ، بل هو فوق الربعة ، ومن احسن الناس وجهاً . واول زوجـة تزوجها فاطمة بنت الرسول ، ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده ، وكان له منها الحسن والحسين، وزينب الكبرى، وام كلثوم الكبرى، وذكر انه كان له منها ولد اخر يقال له محسن توفي وهو صغير . ثم تزوج بعد فاطمة ، ام البنين بنت حزام الكلابية فولدت له العباس وجعفراً ، وعبدالله وعثمان ، قتلوا جميعهم مـــع اخيهم الحسين .
وتزوج ليلى بنت مسعود بن خالد من بني تميم ، فولدت له عبدالله وابا بكر قتلا مع الحسين ، وقيل ان عبيدالله قتله المختار بن ابي عبيد ، ولا بقية لهما .ومن زوجاته ، اسماء بنت عميس « من بني خثعم ، ولدت له محمـــداً الاصغر ويحيي الذي قتل ايضاً مع الحسين ، ولا عقب لهما . ومنهن الصهباء بنت ربيعة ، مـن بني تغلب ، وله منها ولدان ، هما عمر ، ورقية ، وقد عـاش عمر خمساً وثمانين سنة ، واستولى على نصف ميراث ابيه ، ومات بينبـع . وتزوج امامة بنت ابي العاص بن الربيع ؛ وامها زينب بنت الرسول وقد ولدت له محمداً الاوسط .وله ولد آخر هو محمد الاكبر ، الذي يقال له ابن الحنفية ، امه خولة بنت جعفر من بني حنيفة . وكان له بنات من امهات لم تذكر اسماؤهن ، منهن ، ام هانىء، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة وام كلثوم الصغرى ، وفاطمة، وخديجه ، وام الكرام وام سلمة ، وام جعفر وجمانة ونفيسة .
فجميع ولد علي ، اربعة عشر ذكراً، وسبع عشرة امرأة ، والنسل منهم، للحسن والحسين ، ومحمد ابن الحنفية والعباس ابن الكلابية ، وعمر ابن الصهباء التغلبية .
ولد علي في مكة ، داخل البيت الحرام في اليوم الثالث عشرمن شهر رجب من السنة الثالثة والعشرين قبل الهجرة ، ولم يذكر المؤرخون رجلاً ولد قبله في البيت الحرام .

وكان ابو طالب ، رجلاً جليلاً بعيد الصوت ، له الكلمة المحترمة في قريش والمنزلة العالية في مكة . وهو الذي كفل النبي وتولى امر تربيته ، بعـــد موت جده عبد المطلب ، والنبي لم يبلغ التاسعة من عمره .

ولم يكن علي قد ولد بعد ، فلما ولد ، كان الرسول في زهرة شبابه ، فأحاطه بعنايته وعطفه ، وأحبه الحب الصادق حتى انه كان يدعوه اخاه .

وعلي من اولئك الفتيان الاذكياء ، اصحاب الهمة والوفاء والشرف ، وكان له خلق طاهر عالٍ رفعه الى ذروة المجد ، وجعله مظهراً بليغاً من مظاهر العظمة والرقي . أجل ، نشأ الامام علي ، كبيراً في نفسه ، كبيراً في نبالته ، كبيراً في وجدانه ، لم يعرف له قومه خطيئة ، ولم يدنس له عرض ، ويكفي هذا الامام ، انه رافق النبي في دعوته وجهاده ، وهدوئه وحربه ، فأمسى المثل الصالح الذي لهدلت به العرب على مر الاجيال .

ولم يكن ابو طالب كثير المال ، فلما اصاب مكة جدب ، كان النبي يتاجر بمال خديجة ، بين الشام والحجاز ، فأتى عمه العباس ، وهو اغنى اعمامه ، فقال له : يا عم ، ان اخاك ابا طالب كثير العيال ، فانطلق بنا نخفف عنه .. تأخذ انت ولداً ، وآخذ انا آخر . وانطلقا ، فأخذ محمد علياً ، وأخذ العباس جعفراً وتركا لأبي طالب ولده الثالث الذي يقال له عقيــل . ولم يزل علي عنــد النبي ، حتى اظهر الدعوة ، وعلي في الثالثة عشرة من العمر ، فـآمن بدعوته وصدقه ، ولزمه في الرواح والمجيء .

واختلف المؤرخون والعلماء ، في أول من اسلم ، بعــد خديجة . قـــال بعضهم : أول ذكر آمن هو علي .

وروي عن علي انه قال : انا عبدالله واخو رسوله وانا الصديق الاكبر ، لا يقولها بعدي الا كاذب مفترٍ ، صليت مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين .

وقال ابن عباس : أول من صلّى علي .

وقال جابر بن عبدالله : اظهر النبي دعوته يوم الاثنين ، وصلّــى علي يوم الثلاثاء . وقال زيد بن ارقم : علي اول من اسلم مع النبي .

وقال عفيف الكندي : كنت تاجراً ، فقدمت مكـــة ايام الحج ، فأتيت

العباس ، فبينا نحن عنده ، خرج رجل فقام تجاه الكعبة يصلي ، ثم خرجت امرأة تصلي معه ، ثم خرج غلام ففعل مثلما فعلا ، فقلت ياعباس : ما هذا الدين ؟ قال : هذا محمد ابن اخي يزعم ان الله ارسله وان كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه وهذه امرأته خديجة آمنت به ، وهذا الغلام علي بن ابي طالب وايم الله ما اعلم على ظهر الارض احدا ، على هذا الدين ، الا هؤلاء .

علي في نظر الرسول

قلنا ان علياً لزم النبي ، ورافقه في مراحل دعوته ، فلما كانت الهجرة ، كان علي في الثالثة والعشرين ، وقد خبر الزمان وأهل الزمان وصيّره ايمانه ، والتجاريب التي رأى ، رجلاً جباراً في دينه ، عظيما في اخلاقه ، طاهراً في وجدانه ، صلب العود في مبدئه وشرفه .

ولقد قرأت ، في روايتنا هند والمنذر ، اخبار ذلك الصراع الهائل الذي قام بين النبي وقريش ، والذي قضى على النبي بان يهجر مكة ، الى المدينة ، عندما تآمر عليه ابناء عشيرته ، اقبلت قريش الى منزل محمد تريد الايقاع به ، فأمر محمد علياً بان يبيت على فراشه ، ويلبس برداً له اخضر ، وخرج هو والناس على بابه ينظرون الى الداخل فيرون علياً في الفراش وهم يحسبونه النبي . فلما كان اليوم الثاني عرفوه ، فقالوا : لو خرج محمد لخرج علي معه .

وقام في اذهانهم أن محمداً باق فلم يخرجوا في طلبه . وكان النبي قد أوصى علياً عند خروجه ، بان يؤدي عنه امانته ثم يلحق به مع أهله . ففعل الفتى ما امره به ، ثم خرج من مكة يستعين بالظلام على الفرار ويكمن محتجباً عندما تطلع الشمس حتى قدم المدينة ، وقد ورمت قدماه من المشي ، وسالت منها الدماء . فلما رآه النبي بكى ، وازداد حبه ، ثم جعل يجاهر الناس بأنه يؤثر علياً على سائر الصحابة . دعا الناس مرة فاجتمعوا ، فأخذ بيد علي وقال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » وقال في موقف آخر : « علي مني وانا من علي ، ولا يؤدي عني الا علي »

وقال مخاطباً علياً : « انت اخي في الدنيا والآخرة »
وقال له ايضاً . اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هرون من موسى غير انه لا
بي بعدي »
ان في هذه الالفاظ يقولها نبي الاسلام العظيم ، فخراً لعلي وآل علي ، يتلألأ
على جباههم الى الأبد .

شجاعته

وعلي شجاع باسل ، شهد الغزوات مع النبي بعدالهجرة ، الا غزوة تبوك،
وكان فيها جميعها أثبت قدما واطول سيفا من سواه . علىان غزوة «المصطلق»
خلقت له عدواً قويا لايستهان به هو عائشة زوج النبي ، ابنة ابي بكر الصديق.
تحدث الناس كذبا بأمر عائشة بعد تلك الغزوة . ورددت الافواه عنها بعض
الاقاويل التي لايتسع لها المجال الآن .. فاستشار النبي اصحابه فيما يقال ، فاثبتوا
جميعهم براءتها الا عليا فانه قال : «يارسول الله لم يضيق الله عليك ، والنساء
سواها كثير فطلقها » . وبلغ ذلك عائشة فحفظته له وتمشى الحقد في صدرها منذ
ذلك الحين، ثم ظهر ذلك الحقد في فجر خلافته كما سيجيء

زهد علي وعدله وعظمة نفسه

والزهد والاستخفاف بمظاهر الحياة الخلابة وعظمة النفس ، من طبع هذا
الخليفة العظيم الذي كان ركنا من اركان الاسلام . وهذه اعماله وخطبه واقواله
امام خلافته وقبلها تشهد انه الملك الراقي الذي حمل حياته كلها لواء الاخلاق وكان
سيد الزاهدين.
كان ابو رافع مولى الرسول ، عاملاً لعلي على بيت المال ، وكان علي قد رأى
في بيت المال لؤلؤة ، فدخل يوما فرآها على ابنته وقد تزينت بها ، فقال لأبي
رافع : من اين لها هذه ؟ .. لأقطعنّ يدها .
قال : انا والله يا امير المؤمنين زيّنتها بها .

قال : لقد تزوجت فاطمة وما لي فراش الا جلد كبش ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه بعيرنا بالنهار وما لي خادم غير فاطمة .

وقال عاصم بن كليب : ورد على علي مال من اصبهان ، فجعله سبعة اسهم، ووجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة .. ! ثم دعا اصحاب الاسباع واقترع ، لينظر ايهم يعطى اولا ..

وقال هرون بن عنترة عن ابيه : دخلت على علي بالخورنق ، في فصل شتاء، وعليه رداء بالٍ يتقي به البرد ، فقلت : يا امير المؤمنين ، ان الله قد جعل لك ولاهلك في هذا المال نصيبا وانت تفعل هذا بنفسك ؟

فقال : والله ما هو الا ردائي الذي اخرجته من المدينة !

وقال يحيى بن سلمة : استعمل علي عمر بن سلمة على اصبهان ، فقدم ومعه مال وزقاق فيها عسل وسمن واشياء غيرها . فأرسلت أم كلثوم بنت علي الى عمر تسأله ان يبعث اليها سمناً وعسلاً ، فأرسل اليها زقين . فلما كان الغد اقبل علي واحضر المال والعسل والسمن ليقسم ، ثم عدّ الزقاق فنقصت اثنين .فسأل عمر عنهما فكتمه الامر اولا ثم باح به . فأرسل الى ابنته فأخذ الزقين منها فرآهما قد نقصا . فأمر التجار بتقويم ما نقص فكان ثلاثة دراهم فأخذها ثم قسم الجميع !!

وقال سفيان : ان علياً لم يبنِ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ..

ويقول المؤرخون : اخرج علي سيفاً الى السوق فباعه ، فقالوا له : ما هذا يا امير المؤمنين ؟

قال : لو كان عندي اربعة دراهم ثمن ازار لم ابعه !!

وكان يختم على جراب فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول : لا احب ان يدخل بطني الا ما اعلم .

وقال الشعبي : وجد علي درعاً له عند رجل نصراني ، فأقبل به الى شريح القاضي وجلس الى جانبه وقال له : هذه درعي . فقال الرجل : ما هي الا درعي ولم يكذب امير المؤمنين !

فقال شريح لعلي : ألك بينه ؟

قال : لا ، وهو يضحك . فأمر شريح الرجل بأن يأخذ الدرع .

فتناولها ومشى قليلاً ثم عاد فقال : اشهد ان هذه احكام الانبياء .. امير المؤمنين يمثل بين يديّ قاضيه وقاضيه يقضي عليه ؟! اني اعترف بان الدرع له ، وقد سقطت منه عند مسيره الى صفين .

قال ذلك ثم اسلم ، ففرح علي باسلامه ووهب له الدرع وفرساً له ، وشهد معه قتال الخوارج .

وقيل : رأى الناس علياً يحمل في ملحفته تمراً قد اشتراه بدرهم . فقالوا له : يا امير المؤمنين الا نحمله عنك ؟

فقال : ابو العيال احق بحمله .

وذكر الناس الزهاد في مجلس الخليفة عمر بن عبدالعزيز ، فقال عمر : ازهد الناس في الدنيا علي بن ابي طالب .

أجل كان علي ازهد الناس ، ولكن كان في زهده وزهد عمر بن الخطاب ما يضيع في بعض المواقف هيبة الخلافة ويحجب جلال الملك . ولكنه خلق عالي كانت الخلافة نفسها أضعف من ان تؤثر فيه وكان الملك أعجز عن ان ينال منه .. وانها لعظمة خالدة تلك التي تملي على خليفة المسلمين وسيد الشرق ان يقضي العمر راضياً بالعيش الضيق ، ومجال السعة والرفاه رحب وسهل عليه .

* * *

- ٧٦ -

كان الاحنف بن قيس ، قد قدم المدينة وهو يريد الحج ، وعثمان بن عفان في محنته التي قرأت ، وقد ثار عليه الناس . ولمس الاحنف بيده ، نار تلك الثورة الهوجاء ، ورأى حقد اهل الكوفة والبصرة ومصر ، باديا على الوجوه ، فقام في ذهنه ان الخلافة ستخرج من يد عثمان ، وقد ينتهي امر الثورة بقتله . فلقي طلحة والزبير فقال لهما : لا ارى عثمان الا مقتولاً فأي رجل تريدان ان تبايعاه بعده ؟

قالا : علي بن ابي طالب .
قال : أتأمرانني به وترضيانه لي ؟
قالا : نعم !
فانطلق الى مكة ، فبينا هو بها تحدث النـاس فقالوا : قتل عثمان . وكانت عائشة ام المؤمنين بمكة فقال لها : ان الخليفة قد قتل فمن ابايع ؟
قالت : بايع علياً .
قال : أتأمرينني بذلك ؟
- نعم !
فرجع الى المدينة فبايع علياً ثم انصرف الى اهله ، وقد ايقن مما رأى وسمع ، ان بني امية يؤثرون الموت على مبايعة علي والاعتراف بخلافته . وكانت اليتيمة قد طلقتها الحمى ، ولكن ذلك الضعف الغريب القـاسي ، كان يدفعها بيديه الحديديتين الى القبر . وقد رددت الجواري والغلمان حكاية مولدها ، وتحدث النـاس بها في مجالسهم وكانوا يقولون : ستزف الى طارق ، عندما يذهب هذا الهزال ، وتعود اليها العافية .
وكانوا يرون طارقاً في منزل ابيه ، لا يفارقه الا لأمر ، واذا خطر لليتيمة ان تخرج منه عند الصباح ، او عند غروب الشمس خرج طارق معهـا يرافقه سنان ، كأن ذينك القلبين المتحدين بقوة الحب ، قلب واحد تخفق فيه عاطفة واحدة . اجل ، كانت محنة الفتى العاشق ، في فرار حبيبته ، درساً قاسياً علمه السهر الدائم على الفتاة التي أحب ، واملى عليه ، كما يملي عليه الهوى ، ان يكون أتبع لها من الظل .
وهي نفسها لم تكن تريد ان تبتعد عنه ، ولا تريد ان تنقضي ساعة واحدة دون ان تراه . فكأنها كانت تحس ان العمر قصير ، وان هذه الايام التي ترى فيها وجه الحبيب ، تمر كما يمر السحاب ... وكانت تسأله برغبة وشوق ، ان يرافقها الى حلوان لتزور قبر امها المنكودة الحظ وهو يعدها بأنه سيفعل عندما تستعيد القوى . على ان الأمل في الصدرين ، لم يكن واحداً ...
كان طارق يعلل النفس بالمنى ، وصفو العيش ، بعد الزواج وكانت اليتيمة تفكر في الموت ، تفكيراً مستمراً جعل الدنيا في نظرها دار عذاب وشقاء ..

حتى انها كانت تستلذ ذلك التفكير . وقد كتمت طارقاً ما في نفسها، واستعانت بارادتها الثابتة على خنق لوعتها الدامية فلم يستطع طارق ان يقرأ في عينيها الفاترتين ، غير الامل الضاحك ، ولم يرَ غير الابتسامة العذبة تغمر ثغرها الفتان ...

كله هوى وامل ، وكلها هوى ويأس ، وهذا اليأس ، هو الذي يقذف بها الى الهوة بل هو الموت نفسه .. وانه لموت خفي .. ينشب فيها مخالبه كل يوم . والاحنف ومن حوله ، وسنان ومن حوله ، لا يرون لهذا الموت اثراً ولا يبصرون شبحه الرهيب، الا عبدالله بن قيس، فقد كان يرى غير ما يرون وكانت اللوعة تملأ قلبه ، عند تصوره ان القضاء سيصرع اليتيمة، وقد يصرع طارقاً بعد ذلك . والزمان يمر .. والداء ينهش جسم الملكة الصغيرة التي جار عليها الدهر .

* * *

- ٧٧ -

مضى علي في امره ، ولم يبال بأولئك الذين نصحوا له ، بان يبقي معاوية على الشام ريثما يبايعه . وكان يقول : لا اداهن في ديني .

فلما دخلت السنة السادسة والثلاثون ، اختار عماله وبعث بهم الى الامصار : جعل عثمان بن جنيف اميراً على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة ، وعبيد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على مصر ، وسهل بن حنيف على الشام .

فخرج هؤلاء الامراء من المدينة في يوم واحد يريدون البلاد التي بعث بهم اليها .. فلما انتهى سهل بن حنيف، امير الشام الى تبوك، لقيته خيل ، وتصدى له اصحابها فقالوا : من انت ؟

قال : أمير ..

– على اي شيء ؟

– على الشام .

قالوا: ان كان عثمان قد بعثك فاهلاً بك، وان كان قد بعثك غيره فارجع.
قال : أوما سمعتم بالذي جرى ؟
– بلى ، فارجع ولا تزد ..
فرجع الى علي وهو يتعثر بخيبته .
واقبل قيس بن سعد ، أمير مصر ، الى مكان يدعى ايلة ، فعرض له قوم من اهل مصر يسألونه عن اسمه ، وعن غرضه .
فقال : اني اطلب من آوي الى عثمان فانتصر به .
قالوا : من انت ؟
– قيس بن سعد .
فأذنوا له في المضي ، فمشى حتى دخل مصر .
وافترق المصريون عندئذ فرقاً : فرقة اتبعت علياً فكانت مع قيس ، وفرقة اعتزلت وهي تقول : اذا قتل قيس قتلة عثمان فنحن معه والا فنحن على عهدنا حتى نبلغ الغاية ، فكتب قيس الى امير المؤمنين يصف له ما رآه . وكان عثمان ابن حنيف قد دخل البصرة دون ان يرده احد، ولم يكن لأميرها عبدالله بن عامر رأي في دخوله . على ان البصريين افترقوا كما افترق اهل مصر . هذه جماعة مع علي ، وهذه من انصار عثمان تطلب بدمه ، وهنالك قوم آخرون ينتظرون ما يصنعه اهل المدينة فيصنعون مثلهم .

واما عمارة بن شهاب ، فقبل ان ينتهي الى الكوفة ، لقيه طليحة بن خويلد، وكان عثمانيـــاً ، فقال له : ان القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً ، فارجع الى من ارسلك فان ابيت ضربت عنقك !! فلم يتردد الرجل في الرجوع وكان يقول : الحذر من الخطر خير من الشر .

وانطلق عبيد الله من عباس الى اليمن ، فلما دخلها، خرج منها عامل عثمان، يعلى بن منبه ، بعد ان جمع خراجها كله ، وحمله راجعاً الى مكة . وخرج من الناحية الاخرى عبدالله بن عامر ، وهو يحمل من اموال البصرة الشيء الكثير. فلما رجع من رجع وانتهت الاخبار الى علي ، دعا طلحة والزبير وقال لهما : ان الامرُ الذي كنت احذره قد وقع ، وانها فتنة كالنـــار ، كلما سعرت ازدادت

وسأمسك الامر ما استمسك فاذا لم اجد بداً ، فآخر الداء الكيّ . ثم كتب الى ابي موسى الاشعري في الكوفة والى معاوية يدعوهما الى الطاعة ، فكتب اليه ابو موسى بطاعة القوم وذكر له اسماء انصاره واسماء انصار عثمان .

وكان رسول علي الى معاوية سبرة الجهني. فاخذ معاوية كتابه ولم يجبه بشيء

وكان سبرة كلما طلب الجواب لا يسمع من معاوية غير هذه الابيات :

أدم ادامة حصن او خذا بيدي   حربا ضروساً تشب الجزل والضرما
في جاركم وابنكم اذ كان مقتله   شنعاء شيَّبت الاصداغ واللما
أعيَ المسود بها والسيدون فلم   يوجد لها غيرنا مولى ولا حكما

حتى اذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان ، في شهر صفر ، دعا معاوية رجلاً من بني عبس يدعى قبيصة فدفع اليه قرطاساً مختوما عنوانه : من معاوية الى علي وقال له : اذا دخلت المدينة فاقبض على اسفل القرطاس . ثم اوصاه بما يقول وامر عندئذ رسول علي بان يرجع .

فخرج الرجلان حتى قدما المدينة في ربيع الاول . فدخلها العبسي كما امره معاوية وقد رفع القرطاس بيده .

فتبعه الناس وهم ينظرون اليه وقد عرفوا ان معاوية لا يعترف بخلافة علي ولا يعتزل امارة الشام .

واقبل الرسول الى مجلس امير المؤمنين ودفع اليه القرطاس فلم يجد كتابا ، فقال له : ما وراءك ؟

قال : آمنٌ انا ؟

قال : نعم ان الرسول لا يقتل .

قال : ورائي قوم لا يرضون الا بالقوَد . « القوَد القصاص ، وان يقتل القاتل بالقتيل » .

قال : ممن ؟

– من خيط عنقك ! وقد تركت ستين الف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وقد البسوه منبر دمشق .

قال : مني يطلبون دم عثمان ؟ اللهم اني ابرأ اليك من دم عثمان ... اخرج!

قال : وانا آمن ؟

– وانت آمن .

فخرج العبسي ، وصاحت « السبئية » وهي الفرقة التي تنتمي الى عبدالله ابن سبأ قائلة : هذا الكلب رسول الكلاب فاقتلوه .

فقال الرجل : يا آل مصر ، يا آل قيس ..

فمنعته مصر وجعلوا يقولون له : اسكت ، فيقول : لا والله، لا يفلح هؤلاء ابداً ، انتهت والله أعمالهم ووالله ما امسوا حتى عرف فيهم الذل ..

واحب اهل المدينة عندئذ ، ان يعلموا رأي علي في معاوية ، وقد بلغهم ان الحسن ابنه دعاه الى القعود وترك الناس ، فارسلوا اليه زياد بن حنظلة التميمي ، وكان من جلسائه فدخل عليه وجلس ساعة وهو لا يتكلم فقال عليّ : يا زياد تيسر ...

قال : لاي شيء يا امير المؤمنين ؟

– لغزو الشام

قال : الرفق أولى

فلم يسمع له علي . فخرج زياد وهو يقول للناس : السيف يا قوم .

فعرفوا ان معاوية اراد ان يسعرها حرباً يقضي بها على الخليفة ومن حوله ، من جنود وانصار . ودخل الزبير وطلحة يستأذنان امير المؤمنين في الحج ... فأذن لهما .. فرحلا في تلك الساعة ولحقا بمكة . وكان علي يظن انهما سيكونان مع رجالهما عونا له .

* * *

– ٧٨ –

بين بني هاشم وبني امية ، عداوة قديمة نشأت في العهد الجاهلي الاخير .

ولي هاشم جدّ ابي طالب امر الكعبة ، بعد ابيه عبد مناف بن قصي وكانت له السقاية والرفادة كما قرأت في روايتنا حسناء الحجاز . وكان لهاشم أخ يدعى

عبد شمس ، والاثنان توأمان ، وقد ولدا ، واصبع احدهما ملتصقة بجبهة الاخر .

فلما كبرا ، ولمع هاشم في الحجاز ، وتولى امر الكعبة ، حسد امية بن عبد شمس ، عمه هاشماً ، وجاهره بالعداوة ، ثم اراد ان يمد يده الى الامارة لينتزعها منه . ولكنه عجز عن ذلك ، فشمتت به قريش ، ثم اشتدت المنافرة والجفاء بين الاثنين حتى تحدثت العرب بامرهما ، وانتقلت العداوة من الآباء ، الى البنين والحفدة . ومعاوية ، اعظم رجال بني امية وابعدهم صوتاً ، وهو داهية السياسة الذي لا يجارى ، وصاحب الابتسامة الخلابة الدائمة ، والحلم « السياسي » الذي ضربت به الامثال . وقد تغلغل في صدره حب المجد ، وطمح ببصره الى مقعد الخلافة لا يبالي بالوسيلة التي يبلغ بها ولايته ، ولا يهتم إلا للمعالي ، يمشي اليها على جثث الابرياء ، ويغوص ، من اجلها في بحر من الدماء . فلما بويع علي ، عظم عليه الامر ، فجعل يوغر صدور اهل الشام ، ويدفعهم الى الطلب بدم عثمان ، زاعما ان علياً هو الذي امر رجال الفتنة بان يقتلوه . وعلق على المنبر في المسجد قميص ذلك الخليفة القتيل واصابع نائلة التي قطعت بالسيف ليزداد اهل الشام غيظاً وجداً في امرهم ، ويحفظوا لعلي في الصدور ذلك الحقد الغريب الذي لا تمحوه الحادثات . ثم خرج عن طاعة علي ، ورد رسوله ذلك الرد القبيح الذي رأيت ، وهو واثق بان ذلك النزاع ، بينه وبين امير المؤمنين ، سينتهي امره الى ما يحب . وبدأ منذ تلك الساعة يبذل دهاءه وماله ويسترضي الامراء الذين آثروا الهدوء على الدخول في الفتنة حتى كثرت حوله الرجال يفدونه جميعهم بالمهج . ولم يبق الا ان يضع يده بيد عمرو بن العاص المقيم بفلسطين ثم يجرد الاثنان السيف في وجه الخليفة الهاشمي

* * *

- ٧٩ -

لم يتردد علي في امره ولم يكن بحاجة الى رجل باسل يدفعه الى ساحة القتال . كانت الشجاعة من صفات الخليفة الصالح كما عرفت وقد قام في ذهنه ان الخلافة

ستتزعزع اذا امسى القوم فوضى واذا هو قعـــد عن الدفاع . فلما خرج زياد بن حنظلة من مجلسه كما مر كتب الى عماله في البصرة والكوفة ومصر ان يندبوا الناس الى الشام، ثم دعا اليه عبدالله بن عباس ليجعله على الجنــاح الايمن من جيشه وجعل عمر بن ابي سلمة على الجناح الايسر وابا ليلى بن عمرو بن الجراح ؛ ابن اخي ابي عبيدة بن الجراح، على المقدمة ودفع اللواء الى ولده محمد بن الحنفية واستخلف على المدينـــة قثم بن عباس . ولم يول احداً من اولئك الرجال الذين خرجوا على عثمان .

ثم دعا وجوه المدينة فقال : ان في سلطان الله عصمة امركم فاعطوه طاعتكم غير مستكره بها او لينقلن عنكم سلطان الاسلام ثم لا ينقله اليكم ابداً .. انهضوا الى هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتـــكم لعل الله يصلح بكم ما افسد أهل الاقاليم .

وبينما القوم على ما رأيت ، بلغ الخليفة ان طلحة والزبير وعائشة ، سخطوا عليه في مكة، ودعوا الناس الى الاصلاح. فقال: سأصبر ما لم اخف على الجماعة، واكف ان كفوا واقتصر على ما بلغني . ثم بلغه بعد ايام انهم يريدون البصرة ، فقال : ان فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين . وتهيأ للخروج اليهم .

وكانت عائشة هي التي تحرض القوم ، وتنفخ في الصدور روح الثـــورة ، فكأنها لم تنس تلك الكلمة التي قالها علي للنبي .. خرجت من مكة وعثمان محصور وهي تريد المدينة ، فلقيها رجل من اخوالها من بني ليث يقال له عبيد بن سلمة فقالت له : ماذا جرى ؟

قال : قتل عثمان

– ثم صنعوا ماذا ؟

– اجتمع القوم على بيعة علي بن ابي طالب .

فلمـــا سمعت ذلك قالت : ليت السماء انطبقت على الارض .. ردّوني .. ردّوني ..

ورجعت الى مكة وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوماً والله لاطلبنّ بدمه. فقال لها عبيد : وكيف ذلك وانت اول من حرّض الناس عليه وكنت

للولين : اقتلوا نعثلاً فقد كفر ...

قالت : سألوه ان يتوب ثم قتلوه .. وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الاول . فقال لها :

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وانت امرت بقتل الامام وقلت لنا انه قد كفر
فهبنا اطعناك في قتله وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا عفة «يزيل الشبا ويقيم الصغر»
ويلبس للحرب اثوابها وما من وفى مثل من غدر

فانصرفت وهي لا تبالي حتى انتهت الى مكة، فقصدت الحجر فجلست عنده ثم اجتمع الناس حولها فقالت : ايها الناس، ان الغوغاء من اهل الامصار وعبيد اهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالامس ، ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه، وقد استعمل امثالهم قبله، فوعدهم بان يصنع لهم ما طلبوه، فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً عمدوا الى العدوان فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام واخذوا المال الحرام . والله لأصبع من اصابع عثمان خير منهم ..

فقام عبدالله الحضرمي وكان عامل عثمان على مكة فقال : انا اول من يطلب بدمه .. وتبعه بنو امية الذين هربوا من المدينة ثم تبعهم بعد ذلك سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وجميع بني امية . وقدم عليهم بعد حين عبدالله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن منبه الاموي من اليمن ومعه ستماية بعير وستماية الف درهم .

ثم قدم طلحة والزبير ، فلقيا عائشة فقالت : ما وراءكما ؟

قالا : هربنا من المدينة وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون انفسهم .

– وما الرأي ؟

– نذهب الى الشام .

فقال ابن عامر : قد كفاكم معاوية الشام فاذهبوا الى البصرة فان لي بها صنائع ولهم في طلحة هوى . واجمعوا على المسير ، فجهزهم يعلى بن منبه بستماية بعير وستمائة الف درهم وجهزهم ابن عامر بمال كثير ونادى مناديها : ان ام المؤمنين وطلحة والزبير راحلون الى البصرة ، فمن اراد اعزاز الاسلام والطلب بدم عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت !

فخرجوا من مكة ، ولحقهم الناس فكانوا ثلاثة الاف رجل . وبعثت ام الفضل ، بنت الحرث ام عبدالله بن عباس رجلاً من جهينة يقال له ظفر ، الى علي يحمل اليه الخبر . فلما كان القوم قيد مرحلتين ، اذّن مروان بن الحكم ، ثم جاء حتى وقف عند طلحة والزبير فقال : على ايكما اسلم الخلافة ؟

فقال عبدالله بن الزبير : على أبي ..

وقال محمد بن طلحة : على ابي ..

وهذا معناه ان الطلب بدم عثمان كان صورة يحتجب وراءها اهل المطامع ، وان طلحة كان يريد الخلافه ، كما كان يريدها الزبير ، ولكن الامر لم يتم لهما .

وكان معاذ بن عبيد يقول بعد ذلك : والله لو ظفرنا لاقتتلنا.. ما كان الزبير ليرضى بطلحة وما كان طلحة ليرضى بالزبير ...

ثم خلا سعيد بن العاص بطلحة والزبير فقال : لمن تجعلان الامر ان ظفرتما ؟

قالا : نجعله لأحدنا ، ايّنا اختاره الناس .

قال : بل تجعلونه لولد عثمان فانكم خرجتم تطلبون بدمه .

قالا : نترك شيوخ المهاجرين ونجعلها لايتام ؟

فقال : لا اراني اسعى الا لاخراجها من بني عبد مناف ..

ثم رجع ، ورجع بعض الامراء بينهم المغيرة بن شعبة وكان يقول : من كان ههنا من ثقيف فليرجع .. ومضى القوم حتى قاربوا البصرة ، فاقبل عمير بن عبدالله التميمي وقال : اذا اردت الدخول فراسلي احداً من وجوه المدينة او فليدخل بن عامر فان له بها صنائع .

ففعلت ما اشار عليها به ، وكتبت الى رجال من اهل البصرة ، والى الاحنف

ابن قيس ، وصبرة بن شيمان ، وهو من رجال الحرب، والى غيرهما من الامراء . واقامت بالحفير تنتظر الاجوبة . وكان عبدالله بن عامر ، رسولها الى الناس ، يدعوهم من وراء الستار ، الى نصرة الحق ...!!

فلما انتهى الخبر الى عثمان بن حنيف ، عامل علي ، دعا عمران بن حصين وأبا الاسود الدؤلي وقال لهما : انطلقا الى هذه المرأة واسألاها عن الغاية التي قدمت البصرة من اجلها .

فخرجا اليها وهي في الحفير فقالا : ان اميرنا بعثنا اليك لنسألك عن مسيرك. قالت . ما مثلي يكتم بنيه الخبر .. ان الغوغـــاء غزوا حرم رسول الله واحدثوا فيه فاستحقوا لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل امام المسلمين، فخرجت اعلم الناس ما فعل هؤلاء وما ينبغي لهم من اصلاح الأمر .. هذا شأننا، معروف نأمركم به ، ومنكر ننهاكم عنه .

فانصرفا فأتيا طلحة ، قائلين : ما أقدمك ؟

قال : الطلب بدم عثمان .

قالا : ألم تبايع علياً ؟

قال : بلى ، والسيف على عنقي .

فأتيا الزبير فقال لهما مثل قول طلحة . فرجعا الى عثمان وابو الاسود يقول :

يا ابن حنيف قد أتيت فانفر وطاعن القوم وجالد واصبر

وابرز لهم مستلئماً وشمّر

فقال عثمان : انا لله وانا اليه راجعون ، دارت رحى الاسلام ورب الكعبة .

فقال عمران : اي والله لتعركنكم عركاً طويلا .

قال : اشر عليّ .

قال لقد اعتزلت انا فاعتزل انت .

– بل امنعهم حتى يأتي امير المؤمنين .

فانصرف الرجل الى بيته وقام عثمان بالامر . ثم اتاه هشام بن عامر فقال : ان هذا الامر الذي تريد ، صدع لايجبر ، فارفق بالقوم حتى يأتي أمر علي .

فأبى ، ونادى بالناس وامرهم بلبس السلاح والاجتماع في المسجد لينظروا في أمر عائشة .

ثم دسّ الى الناس رجلاً كوفياً فقام فقال : ان هؤلاء القوم ، ان كانوا جاؤوا خائفين ، فقد أتوا من بلد تأمن فيه الطير ، وان كانوا قد جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان فاطيعوني وردوهم .

فقال ابن سريح السعدي : وهل زعموا انّا قتلة عثمان ؟ انهم انما اتوا يستعينون بنا على الذين قتلوه منا ومن غيرنا . فعرف ابن حنيف عندئذ ان لعائشة بالبصرة انصاراً ، فتجلد ، وجعل يتهيأ للدفاع

* * *

– ٨٠ –

خرج علي مع انصاره من المدينة ، وهو يتعجل في زحفه ليدرك جيش عائشة في الطريق ، قبل ان ينتهي الى البصرة . فلقيه عبدالله بن سلام فقال : يا امير المؤمنين ، لاتخرج من المدينة فوالله ان خرجت منها لايعود اليها سلطان المسلمين ابداً .

فسبّه القوم ، فقال علي : دعوه فهو من اصحاب رسول الله .

وسار حتى بلغ الربذة ، فقيل له ان القوم سبقوه فبعث بمحمد بن ابي بكر الصديق ومحمد بن جعفر ، الى الكوفة وكتب الى اهلها : اني اخترتكم على الامصار وفزعت اليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله اعواناً وانصاراً وانهضوا الينا فنحن نريد الاصلاح لتعود هذه الامة اخواناً . وارسل الى المدينة فأتاه ما يريده من دابة وسلاح ، فخرج من الربذة ، وعلى الجيش من ذكرنا من القواد ، وهو على ناقة حمراء يقود فرساً له . فلما كان بموضع يقال له فيد ، مثل بين يديه رجل يدعى عامراً الشيباني ، فقال له علي : خبرني بما تعلم من امر الكوفة .

فجعل الرجل يصف له القوم ، فقال : اسألك عن ابي موسى الاشعري .

قال : ان اردت الصلح يا امير المؤمنين فأبو موسى صاحبه ، وان اردت القتال فليس بصاحبه .

فقال : والله ما اردت الا الصلح .

وانتقل من فيد الى « الثعلبية » فلقيه رجل قادم من البصرة ، فدعاه اليه فقال : متى تركت البصرة ؟

– منذ بضعة ايام يا امير المؤمنين .

– ومن تركت فيها ؟

– جيش عائشة ام المؤمنين ، عليه طلحة والزبير وغيرهما .

– وهل دخل المدينة ؟

– نعم: دخلها من المربد، ووقف في اعلاه، حتى خرج عثمان بن حنيف فيمن معه من الرجال .

– وبعد ذلك ؟

تكلمت عائشة واصحابها فدعوا الناس الى أخذ قتلة عثمان واقامة كتاب الله ...

– وماذا فعل البصريون عندئذ ؟

– افترقوا فرقتين ، احداهما مع عائشة والاخرى مع عثمان وقد سمعت جارية ابن قدامة السعدي يقول لعائشة : والله لقتل عثمان اهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ، انه قد كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكت سترك وابحت حرمتك فارجعي الى المنزل الذي خرجت منه .

فجعل علي يقول : صدق والله الرجل ، لقد كان لأم المؤمنين ستر فهتك .. ثم قال : واقتتل الناس ؟

– اجل يا امير المؤمنين وقد قتل من البصريين خلق كثير ، وتم الامر في البصرة لطلحة والزبير ..

فأطرق الامام وهو يعبث بلحيته ، ثم رفع رأسه ونور الايمان والثقة بالله يتلألأ في عينيه وجعل يقول :

لا يريد الله ان يتم لطلحة والزبير امر .. اذكر لي اسماء القواد والانصار الذين قتلوا .

قال : اذكر لك سيد الابطال حكيم بن جبلة العبدي قائد الفرسان ، وابنه

الاشرف واخاه الرعل بن جبلة .

– وقتل ابن حنيف .

– لا ولكنهم قبضوا عليه وارسلوا الى عائشة ، يستشيرونها في امره فقالت لهم : اقتلوه ، فقامت امرأة في القوم فقالت نشدتكِ الله فيعثمان وصحبته لرسول الله ، فقالت عائشة عندئذ : احبسوه ، ولكن مجاشع بن مسعود لم يكتف بذلك بل امر القوم بان يضربوه وينتفوا لحيته وحاجبيه واشفار عينيه فضربوه يا مولاي اربعين سوطاً وفعلوا ما امرهم به ثم اطلقوه .

– واين هو الآن ؟

– لا اعلم يا مولاي فانا لم اره بعد ذلك وقد قيل لي ان طلحة والزبير قتلا جميع الرجال الذين اشتركوا في قتل الخليفة عثمان .

فتمتم قائلاً : اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير .

وسار من ساعته يريد مكانا يقال له الآساد ، ثم انتقل منه الى ذي قار ، وفي ذي قار اتاه عثمان بن حنيف وليس في وجهه شعرة فقال : يا امير المؤمنين ، بعثتني ذا لحية فجئت اليك وانا امرد .

قال : أصبت اجراً وخيراً ، ان الناس وليهم قبلي رجلان فعملا بالكتاب والسنة ثم وليهم ثالث فقالوا وفعلوا ثم بايعوني وبايعني طلحة والزبير ولم يلبثا حتى نكثا بيعتي وألبا عليّ ... اللهم احلل ما عقدا ولا تبرم ما أحكما .

واقام بذي قار ينتظر رسوليه الى الكوفة ، وهما محمد بن ابي بكر ، ومحمد ابن جعفر . ولم يقم طويلاً حتى اقبلا ، فقال : ماذا فعلتما ؟

فقال ابن جعفر : ان ابا موسى لا يريد الخروج .

قال : أعد عليّ قوله .

قال : كان يقول : كان الرأي بالأمس ليس اليوم ، وانما هما امران ، القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا وواللّه ان بيعة عثمان في عنقي وعنق صاحبكما ، فان لم يكن بد من قتال ؛ لا نقاتل احداً ، حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا .

فقال علي للأشتر : انت صاحبنا في ابي موسى فاذهب انت وابن عباس

واصلح ما افسدت . فسار الرجلان الى الكوفة ، واستعانا على ابي موسى بنفر من اهلها ولكنه آثر الحياد على الدخول في الامر . فرجعا ولم يخرج معها احد من الناس . فنظر امير المؤمنين الى ولده الحسن قائلاً له: نبعث بك انت الى الكوفة مع عمار بن ياسر وانا لنريد ان ترجع وراءك جيش من أهلهـــا ... قم فارحل الساعة .

فانطلقا ، وعتب الحسن ابا موسى قائلاً : كيف تمنع الناس ونحن لم نرد الا الاصلاح ؟ فقال : ان المستشار مؤتمن وقد سمعت رسول الله يقول : انها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والمـــاشي خير من الراكب وقد جعلنا الله اخوانا وحرم علينا دماءنا واموالنا. فغضب عمار وسبّه، وثار بعض الرجال ، هذا يقول : اطيعوا امير الموءمنين، وهذا يقول : انها فتنة فاغمدوا سيوفكم والزموا بيوتكم . حتى قام القعقاع بن عمرو ، فارس الميادين ، يدعو الناس الى الخروج والطاعة ، وتبعه فريق من اصحاب النفوذ والجاه ، يقولون مثل قوله ، بينهم عدي بن حاتم طيء ، وهند بن عمرو ، وحجر بن عدي ، وغير هوءلاء .

فاقبلت الجماعات عندئذ تتهيأ للرحيل حتى بلغ عددها اثني عشر الفاً من الرجال عليهم مشاهير القواد . ومشوا يريدون علياً في ذي قار .

فلما انتهوا اليه، رحب بهم وقال : يا اهل الكوفة ، انتم قتلتم ملوك العجم وفضضتم جموعهم حتى صار اليكم مواريثهم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من اهل البصرة ، فان يرجعوا ، فذاك الذي نريد ، وان يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدأوا بالظلم ، واننّا لا نترك امراً فيه الصلاح الا آثرناه على ما فيه الفساد ان شاء الله

ثم دعا القعقاع فارسله الى البصرة وقال : القَ طلحة والزبير وادعهما الى الالفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة . فاتى القعقاع البصرة وبدأ بعائشة فقال : اي أم الموءمنين ، اي شيء حملك الى هذه الناحية ؟

قالت : الاصلاح بين الناس .

قال : ابعثي الى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما .

فبعثت اليهما فجاآ فقال لهما: اني سألت ام الموءمنين عن سبب مجيئها فقالت الاصلاح فما تقولان انتما ، أمتابعان ام مخالفان ؟

قالا : متابعان .

قال : خبراني ما وجه هذا الاصلاح ، فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، وان انكرناه لا يصلح .

قالا : قتلة عثمان فان هذا ان ترك كان تركا للقرآن .

قال : قتلتما قتلة عثمان من اهل البصرة ، وانتم قبل قتلهم اقرب الى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة الاف واعتزلوكم وخرجوا من بينكم .

فقالت عائشة : فماذا تقول أنت؟

— اقول ان هذا الامر دواؤه التسكين ، فان انتم بايعتمونا كانت علامة خير وتباشير رحمة، وان ابيتم كانت علامة شر وذهاب هذا المال فآثروا العافية وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له.. وايم الله اني لأقول هذا القول وانا خائف ان لا يتم هذا حتى يأخذ الله حاجته من هذه الامة .

قالوا : اصبت واحسنت فارجع ، فان قدم علي وهو على مثل رأيك صلح الامر وانتهينا منه .

فرجع القعقاع فخبر علياً، فأعجبه ذلك واشرف القوم على الصلح، واقبلت وفود العرب من اهل البصرة الى علي ، يسألون اخوانهم اهل الكوفة الرأي ويعلمونهم ان القتال لا يخطر لهم وان غايتهم الاصلاح .

ثم دخلوا على امير الموءمنين فخبروه بخبرهم وجعل هو يسألهم عن طلحة والزبير فقال احدهم وهو يدعى جرير بن شرس : اما الزبير فيقول انه بايعنا كرهاً ، واما طلحة فينشد الاشعار ويقول :

لا أبلغ بني بكر رسولا فليس الى بني كعب سبيل
سيرجع ظلكم منكم عليكم طويل الساعدين له فضول

فخطب فيهم ثم قال :

اني راحل غداً فارتحلوا ولا يرتحلن أحد أعان على عثمان بشيء ... وجعل

الناس يتحدثون بامر الصلح . وهنالك جماعة لا تريده وانمـا تريد الحرب . وقد اجتمع رجالها ، بعد خروج وفد البصرة ، وجعل كل منهم يبدي رأياً حتى قام ابن السوداء فقال :

يا قوم ، ان عزكم في تلاحم الصفوف ، فاذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تجعلو مجالاً للنظر . وتفرقوا على هذا الرأي وعلي ومن حوله لا يشعرون به .

فلما كان اليوم الثاني ، مضى امير المؤمنين ، وسار الناس وراءه ، حتى نزل على عبد القيس ، وهم بين البصرة وذي قار فانضموا اليه جميعهم ومشى من هناك يريد البصرة . وكانت عائشة ، وصاحباهـا قـد خرجوا على رأس الرجال الى مكان يجاور قصر عبدالله بن زياد ، وقد انتهى امير المؤمنين اليه . وكان ذلك في شهر جمادى الاخرة من السنة السادسة والثلاثين .

* * *

- ٨١ -

عندما انتهى كتاب عائشة الى الاحنف بن قيس ، تدعوه فيه الى الحرب تحت لوائها والطلب بدم عثمان ، دفعه الى طارق ابن اخيه فجعل يقرأ ، وشفتا الاحنف تضطربان وجسمه يهتز ، وقـد شعر بان الامر الذي ورد في ذلك الكتاب ، افظع أمر عرض له في حياته .

وكان عندئذ في منزل عبدالله ، وليس في ذلك المنزل غير أهـله ، واليتيمة منهم ، وقد امست جلداً على عظم . وكان طارق ، منذ استيقظت الفتنة ، حتى قتل عثمان وبويع علي ، يهم بان يسأل عمه عن ذلك الفريق من رجال الصحابة ، امرى اي رجل يختار . ولكنه كان يميل الى علي وهو لا يعرفه ، ويؤثره على جميع الرجال الذين ذكرت اسماؤهم له .

وقد عز عليه ان يرد معاوية رسول أمير المؤمنين ويستخف بأمره ، وكان يقول في نفسه : لو كنت علياً لجعلت ابن ابي سفيان عبرة لكل مسلم . فلمـا اطرق الاحنف في تلك الساعة وتجهم جبينه عرف الفتى ان عمه يتردد في الامر

ولا يريد ان يغضب عليـــاً او يغضب زوجة النبي . وصبر لحظة ثم قال : ماذا رأيت يا مولاي ؟

فرفع رأسه قائلاً: رأيت خطراً لم أر مثله من قبـــل ولم يخطر لي ان عائشة ومعها الزبير وطلحة ، سيخرجون من الحجـــاز على رأس جيش ويطلبون بدم عثمان !

– ولكنهم فعلوا الآن وانتهى الامر .

– أجل فعلوا ذلك وهم يعلمون ان علياً احق الناس بالخلافة ، واقربهم الى رسول الله ، واسبقهم الى الاسلام .

– تقول هذا يا عم وتتردد في أمرك ؟

– نعم ، فأني ان خذلت ام المؤمنين ومن معهـــا كان ذلك شديداً ، واذا قاتلت ابن عم رسول الله كان ذلك اشد .

فاراد ان يقرأ اسرار عمه : فقال:ولكن القوم ينتصرونلدين الله، ويريدون ان يثأروا بذلك القتيل المظلوم الذي لفـــظ روحه والمصحف في يده ، وانك لتجد معاوية من اتباعهم وقد هزأ برسول علي فجعل يهز رأسه ويقول: اعرف يا بني اشياء لا تعرفها انت وليس من الرأي ان تعلم اليوم ما نعلمه نحن من امور المسلمين .

– لماذا ؟

– لاني اخشى ان يستهويك أمر علي أو امر عائشة وهذا ما لا اريده .

قال : أعدك بأني افعل ما تشير عليَّ به .

قال : خير لي ان اكتمك ما في نفسي ، وتسلم من ان ابوح لك بكل ما اعلم وتخسر حياتك .

قال : لست من رجال الحرب يا مولاي ؟

– بلى ، ولكن كنا نحارب الاجنبي ونحاول ان نستولي على بلاده .

فقال عبدالله : اما انا فلي رأي آخر هو ان اطلع طارقاً على كل شيء فقـــد يكون له في ذلك هوى ، اسأل يا بني . .

قال : اسألك عن طلحة والزبير أهما على باطل ام على حق ؟

- انهما على باطل ، وهما يحاربان من اجل غاية واحدة يخفيها الواحد منهما عن الآخر وأكاد ألمسها بيدي الاثنتين .

- وما هي هذه الغاية ؟

- الخلافة !

- يطمعان فيها ؟

- اجل يا بني ، ولو استطـــاعا ان يجلسا على العرش فوق جثث النـــاس لفعلا ...

- والطلب بدم عثمان ؟؟

- ان هذا الطلب مظهر كاذب لا يفكران فيه ، الا لأنه وسيلة يكثر معها انصارهما من بني أمية واتباعهم ، وشرك يسقط فيه اولئك المترددون في الطاعة والذين لم يبايعوا أمير المؤمنين، ثم قال: لقد كان الاثنان يستطيعان ان يدافعا عن عثمان وهو حي ، ويمنعا رجال الفتنة ، وهم من رجالها ، من ان يقتلوه .

- ولكن لم يخطر لهما ان الامر سينتهي بقتله .

- بل خطر لهما كل شيء ، وكان كل منهما يظن ان الخلافة ستنقـــاد اليه صاغرة ولكن المسلمين رأوا علياً فآثروه عليهما ، فتظاهرا عندئذ بانهما ينتصران للدم البريء ، وهما انما ينتصران للمطامع المتغلغلة في الصدرين .

- وعائشة .

- اما عائشة فقد حقدت على علي لكلمة قالها للرسول بعد غزوة المصطلق وهي تستغل اليوم موقف المسلمين ، ولو كنت الآن قريباً منها لسألتهـــا ان لا تنسى قول النبي لعلي : « لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا كافر . »

قال : ارى انك تؤثر علياً على سواه يا مولاي .

- نعم ، وستفعل كما افعل عندما تعلم ان هذا الخليفة الذي يحاربونه ليس في الدنيا كلها ازهد منه، فهو الخليفة الذي باع سيفه في السوق ليشتري بثمنه إزاراً له ، وقد قضى حياته ، في عز الاسلام ومجده ، ولم يلبث ثوباً جديداً ، ولم يتخذ له ضيعة وهو القادر على اقتناء الاموال والقصور والعبيد، كما فعل عثمان وكما يفعل معاوية اليوم. أضف الى ذلك انه اوسع النـــاس اطلاعاً وعلماً واثبتهم جنـــانا

واعفهم نفسا .

قال : لقد احسست الآن ان حب علي يتمشى مع دمي .

– وهذا ما اريده؛ فعلي سيد الناس، واني لواثق بان النصر سيتم له على رغم طلحة والزبير اللذين حسداه .

فقال لعمة : ماذا تقول الآن يا مولاي ؟

– اقول ان ما حدثك به ابوك صحيح لا شك فيه .

– وما هو رأيك في الامر ؟

– أرى ان نرحل الى البصرة ونقيم بها ريثما تضمحل هذه الغمامة السوداء ويقوم السلام مقام السيف .

قال : سمعت الآن ان أمير المومنين احق الناس بالخلافة .

– اجل !

– اذن فأي شيء يمنع الاحنف بن قيس ورجـــال عشيرته ، ان ينضموا الى صفوفه في ساحة الحرب ؟

– يمنعهم من ذلك ان زوجة النبي على رأس اعدائه .

– ولكنهـــا ليست على حق ، وعلي امام المسلمين فعلى كل مسلم يهتم لأمر الاسلام ، ان ينتصر له .

– سننتصر له بعد حين يا بني .

– وكيف ذلك ؟

– ان عائشة ستعتزل الحرب عندما ترى ان رجالها لا يستطيعون ان يثبتوا في وجه الامام .

– وماذا يحدث بعد ذلك ؟

– يقوم معاوية من الناحية الاخرى فيشهر على الخليفة السيف ، وتكون عائشة داخل بيتها لا تخرج منه .

– وعندئذ ؟

– يحمل الاحنف عندئذ سيفه ، ويخرج الى قتال امير الشام الذي استخف بسيده ، وطمح ببصره الى العرش .

قال : لنفترض يا مولاي ان السيوف ستتلاحم في البصرة وانت فيها فماذا تصنع ؟

– ارى طلحة والزبير فأقول لهما: لا اقاتلكم ومعكم ام المومنين، ولا اقاتل ابن عم الرسول وقد بايعته .

– وتمكث ببيتك معتزلاً لا لك ولا عليك ؟

– اعتزل حتى ارى ان الخروج الى الحرب امر لا بد منه .

– ومتى ترحل الى البصرة ؟

– غداً فلم يبق لنا ما نصنعه في مرو الروذ ، ومن العار ان نقيم بها ورجال الاسلام في حرب .

فبرقت عينا اليتيمة وتمتمت قائلة : قد اتت الساعة التي ازور فيها قبر امي الملكة ...

فقال الاحنف : بل تمكثين بالبصرة فانت لاتستطيعين الرحيل .

– : ان من يستطيع الذهاب الى البصرة ، يستطيع ان ينتقل منها الى حلوان ، وانا اشعر ان العافية تعود الي ..

فقال في نفسه : اما انا فلا ارى لهذه العافية من أثر ، ثم قال : موعد هذه الزيارة الشهر القادم .

قالت : صبرت حتى مللت وضاق الصدر ...

– : ومع ذلك فانت قادرة على الانتظار شهراً آخر .

قالت : ارى الامير يعللني بالوعود ثم ينسى ما وعد .

قال : ليس لي ان احول بين الاميرة وبين ماترغب فيه ... ولكني اخشى ان يزداد هذا الضعف فتسوء العاقبة .

قالت : يخيّل اليّ ان الضعف سيزول عندما اجثو على التراب الذي ترقد امي المسكينة في جوفه ..

– . اكتفي الآن بزيارة قبر الملك ، على ان تزوري القبر الآخر عندما يصفو الجو وتتفرق الجيوش ..

قالت : ليس لي شأن مع الجيوش التي ذكرت .. إني فتاة شقية صرع الموت

امها يوم خرجت الى العالم ، وقتل ابوها قبل ان تعرفه وقبل ان تراه .. وهـذا يكفي ..

قال : لقد قضي الامر الآن .

ــ . نعم قضي الامر ولم يبق الا ان ارى عظامها البالية واسقي بدموع اللوعة والاسى تراب القبرين .

والتفتت الى طارق قائلة : رحمة قبل ان اموت . فتفجرت دموع الفتى ثم قال : استأذن مولاي في الذهاب غداً قبل الخروج الى البصرة .

ــ . الى اين يابني ؟

ــ . الى بابان فترى اليتيمة قبر ابيها الملك ، ثم نأتي البصرة ونرحل منها الى الاقاليم .

ــ . وما هي الغاية من ذلك ؟

ــ . الغاية منه ان نذهب جميعنا الى حلوان فأسأل علياً عندئـذ ان يجعلني عاملاً له عليها .

فعرفت الفتاة ان الاحنف يعللها بالمنى ، فقالت : ومن قال لك ان امـير المؤمنين يرضى بذلك ؟

ــ . ألحُّ في الطلب فيرضى .

ــ .واذا أغمض الموت عينيَّ قبل ان تفعل ؟

فنظر الى اخيه كأنه يسأله رأيه ، فقال عبدالله : لي كلمة اقولهـا لك في الرواق . فنهض الاثنان حتى انتهيا الى الخارج ، وكان عبدالله يقول : يجب ان يوضع حدٌّ لما نرى .

قال : ماذا ؟

ــ . نزوج طارقاً ثم يذهب مع زوجته الى بابان وحلوان وينتهي الامر .

ــ . وكيف تزوجه فتاة سيضع الموت يده عليها بعد حين ؟

ــ . خير له ان تموت بعد الزواج من ان تموت قبله ، ومع ذلك فالموت بيـد الله وقد تعيش مئة عام .

قال : ليس لنا ان ننظر في هذا الآن .. اني اخشى ان انغص على الفتى عيشه بعد زواجه .

ـ . وانا اخشى ان انغص عليه هذا العيش بعد ايام فمن الرأي ان نزفها اليه ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء .

فقال : ادعُ طارقاً .

فلما اقبل قال له الاحنف ، ألم تقل لي من قبل انك لا تتزوج اليتيمة الا بعد ان يشفيها الله ؟

ـ . بلى !

ـ . ولكن اباك يريد ان يتم الزواج اليوم .

فتنهد ثم قال : اخاف ان تمتد ايام هذا الضعف فأملّ الانتظار .. اني من رأي ابي فليكن الزواج اليوم .

فكره ان يذكر الموت امامه فقال : ولا تخاف ان يعود المرض فتزداد ضعفاً ؟

فرفع عينيه الى السماء قائلاً : لقد سلمت امري الى الله القادر على كل شيء .

ـ · وتريد اليتيمة ما تريده انت ؟

نعم يامولاي !

فأطرق الاحنف ملياً ثم قال : اذن يتم الزواج في هذا الليل وتذهب مع زوجتك عندما تشاء ، الى حيث تشاء ، على ان تعودا الى البصرة فتسألا عنا عاملها عثمان بن حنيف .

ودخل الجميع عندئذ وقال عبدالله : ستمسين في هذه الليلة زوجة لطارق ثم لسيرين بعد ذلك الى بابان وحلوان .

فحنت اليتيمة رأسها ولم تقل كلمة . ولكنها كانت تذرف الدموع .

* * *

- ٨٢ -

اصبح امير المؤمنين على ظهر فرسه ، ومضى معه الناس حتى نزل على بني عبدالقيس فانضموا اليه . ثم سار من هناك فنزل مكانا يقال له الزاوية وانتقل منه بعد ايام يريد البصرة . وكان طلحة والزبير وعائشة قد خرجوا الى ضواحي

المدينة . فلما نزل الجيشان تركت طائفة من بني بكر بن وائل وعبد القيس ، حيث عائشة ولجأت الى علي . فقال الناس : من كان هؤلاء معه لايغلب !

وكان رجل يدعى ابا الجرباء يقول للزبير : ان الرأي ان تبعث الف فارس الى علي قبل ان يصل جيشه كله ، فقال له : ارجو ان يتم لنا الصلح فـابشروا واصبروا .

وطلب الاعور بن بنان المنقري الى علي ان يهاجم القوم ، فقال : لا فلعل الله يجمع شمل هذه الامة ..

قال : فان لم يجيبونا ؟

قال : تركناهم ما تركونا .

– . وان لم يتركونا ؟

– . دفعناهم عن انفسنا .

ثم خطب قائلاً : ايها الناس امسكوا عن هؤلاء القوم ايديكم وألسنتكم .

وبعث الى عائشة حكيم بن سلامة ، ومالك بن حبيب يقولان لها ولصاحبيها : ان كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفّوا حتى ننزل وننظر في هذا الامر .

فقالوا : نحن على العهد .

ومرت بضعة ايام لاقتال فيها ، ثم جاء الأحنف بن قيس فمثل بين يدي عائشة وعندها الزبير وطلحة فقال : لأي امر جئتم ؟

قالوا : نطلب بدم عثمان .

فقال يا ام المؤمنين ويازبير وياطلحة نشدتكم الله، أقلت لكم من تأمرونني ابايع، فقلتم بايع علياً ام لا؟

قالوا : نعم ولكنه بدّل وغيّر .

قال : لا اقاتلكم ومعكم ام المؤمنين ولا اقاتل علياً وهو ابن عم رسول الله وقد امرتموني ببيعته ولكني اعتزل .

قالوا : اعتزل .

وكان نازلا مع قومه ، في موضع يبعد عن البصرة فرسخين .

فخرج من مجلسهم واتى علياً فقال : ان قومنا بالبصرة يزعمـــون انك اذا ظفرت بهم غداً قتلت رجالهم وسبيت نساءهم فهل صدقوا في هذا ؟

فهز رأسه قائلاً : هذا لا يحل الا لمن تولى وكفر ، وهم قوم مسلمون .

قال : اخبرني يا امير المؤمنين واحدة من اثنين ، اما ان اقاتل معك واما ان اكف عنك عشرة آلاف سيف .

ـ : ولكنك عاهدت القوم على الاعتزال .

قال : ان من الوفاء لله قتالهم ..

قال : اذن فاكفف عنا السيوف التي ذكرت .

فرجع الاحنف الى الناس فدعاهم الى القعود ونادى :

يا آل خندف ..

فاجابه ناس منهم .

ثم نادى : يا آل تميم !

فاجابه ناس ، ثم نادى : يا آل سعد . فلم يبق سعدي الا اجابه . فاعتزل بهم واقام ينظر الى ما يفعله الناس . وتراءى الجيشان ، فخرج الزبير وطلحة على فرسيهما وعليهما السلاح ، فقيل لعلي : هذا طلحة وهذا الزبير .

فركب فرسه حتى داناهما فقال : لعمري قد اعددتما سلاحاً وخيلاً فهـل اعددتما عند الله عذراً ؟؟ اتقيا الله ، ألم اكن اخاكما في الدين تحرمان دمي واحرم دمكما فاي شيء أحل لكما دمي الآن ؟

فاجابه طلحة قائلاً : أوغرت الصدور على عثمان ..

فقال : أتطلب انت يا طلحة بدم عثمان ، ؟ لعن الله الذين قتلوه .. أجئت بزوجة رسول الله تقاتل بها وخبأت زوجتك في البيت ؟ أما بايعتني ؟

ـ : بايعتك والسيف على عنقي !

فقال للزبير : ما أخرجك ؟

قال : انت ، ولا أراك لهذا الامر اهلا ولا أولى به منا .

قال ألست له اهلا بعد عثمان ؟ لقد كنا نعدك من بني عبدالمطلب حتى كبر ابنك عبدالله ابن السوء ففرق بيننا .

ثم قال : لا تذكر يوم مررت مع رسول الله ببني غنم فنظر اليّ وضحك وضحكت فقلت له : لايدع ابن ابي طالب زهوه فقال لك : ليس بمزه وانـــك ستقاتله وانت ظالم له . ؟

فتردد في الجواب ثم قال : نعم ، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا ، والله لاقاتلك ابداً .

فانصرف علي الى اصحابه فقال لهم : اما الزبير فقد اعطى الله عهداً ان لا يقاتلكم .

ورجع الزبير الى عائشة فقال : ما كنت في موقف منذ عقلت ، الا وانا اعرف فيه امري ، غير موقفي هذا .

قالت : فما تريد ان تصنع ؟

- : اريد ان ادعهم واذهب .

فقال له ابنه عبدالله : جمعت بين هذين الجيشين ، حتى اذا تلاقيا اردت ان تترك قومك وتذهب؟! ولكنك خشيت رايات ابن ابي طالب وعلمت انها تحملها فتية انجاد وان تحتها الموت الاحمر فجبنت وآثرت الذهاب على البقاء .

قال : حلفت ان لا اقاتله .

قال : كفر عن يمينك وقاتل .

فأعتق الزبير غلاماً له ولم يذهب . ونزلت عائشة في احد المساجد ، بالقرب من الجيشين ، والناس لايذكرون الا الصلح ووضع الحرب . وسارت رســـل طلحة والزبير الى علي ، ورسل علي اليهما يتحدثون بأمر الصلح ، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها ، للسلام الذي اشرفوا عليه . اما الذين اثاروا امر عثمان ، فباتوا بشر ليلة وكانوا يتشاورون حتى اجمعوا على الحرب دون ان يشعر بهم احد . وقبل ان يبزغ الفجر ، خرجوا فرضعوا السلاح في اهل البصرة ، فثار القوم ، فقال طلحة والزبير : ما هذا ؟

فقالوا لهما : طرقنا اهل الكوفة ليلا .

فقالا : قد علمنا ان علياً غير منته حتى يسفك الدماء ...

وسمع علي اصوات المحاربين ، فقال : ماذا جرى ؟

فأجابه رجل من رجال عبدالله بن سبأ قائلا : ما شعرنا الا والقوم قد فاجأونا بالسيف

فقال : قد علمت ان طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ...

وارسل الى الجيش ان يتهيأ للقتال . وكان كعب بن سور من رجال عائشة ، فاقبل حتى لقيها في المسجد ، فقال :

ادركي فقد أبى القوم الا القتال لعل الله ان يصلح بك . فركبت جملاً يقال له عسكر ، وقد ألبسوا هودجها الدروع . فلما برزت بين البيوت وقفت . فاقتتل الناس قتالاً شديداً حتى كان العصر .

وبينا عائشة واقفة ، سمعت ضجة شديدة فقالت : ما هذه الاصوات ؟

قالوا : ضجة الجيش .

– . بخير او بشر ؟

– . بشرٍّ .. فالجيش يفرُّ الآن وقد خرج الزبير منه .

فتجلدت قائلة : وطلحة ؟

– : اصيبت رجله بسهم وكان ينادي : اليَّ اليَّ عباد الله ، الصبر الصبر .

– : ووقع عن فرسه ؟

– : نعم وسمعت القعقاع بن عمرو يقول له : يا ابا محمد انك لجريح وانك عما تريد لعليل فادخل البيوت ، فدخل ودمه يسيل وهو يقول : اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى ، وكان خفه قد امتلّا دماً فقال لغلامه :

ابلغني مكاناً أنزل فيه ، فانزله في دار خربة وهو فيها الآن .

واطافت الخيل بجمل عائشة ، فلما رأى ذلك قومها ، وكانوا قد هموا بالفرار ، رجعوا ، ودارت رحى الحرب من جديد .

فقالت عندئذ لكعب بن سور قاضي البصرة : خلِ عن الجمل وتقدم بالمصحف فادعُ الناس اليه .

وناولته مصحفاً ، فحمله واستقبل القوم وعائشة تقول : الله الله اذكروا الله والحساب . ولكنهم لم يسمعوا لها ، بل ارسلوا سهامهم الى كعب فقتلوه ، وجعلوا يرمون الجمل والهودج وهي تنادي فيأبون الا الاقدام .

فصاحت قائلة : ايها الناس العنوا قتلة عثمان واشياعهم .. واقبلت تدعو ، فضج الناس بالدعاء ، فسمع علي فقال : مـــاذا جرى ؟ قالوا : عائشة تلعن قتلة عثمان .

قال : اللهم العن قتلة عثمان .

وتلاحمت الصفوف عندئذ وكثر القتل ، وكانت الحرب سجالا بين الجيشين، يلمع النصر لحظة فوق اهل الكوفة ، ثم تتلألأ انواره فوق اهل البصرة . حتى كثرت السيوف حول علي . وكان ابنه محمد ابن الحنفية يحمل الراية ، فدفعه من الوراء قائلا : احمل يا محمد !

فتقدم الفتى خطوتين فعرضت له الاسنة ..

فاخذ علي الراية من يده وقال : يابني ، بين يدي ... ومشى الى الامام . وحملت ربيعة ومضر والازد واهل اليمن ، وارتفعت اصوات الاستغاثة وسقطت الاجسام تحت حوافر الخيل ، فرأى علي ما لم يره من قبل ، في ميادين الحرب .

وقام في ذهنه ان القوم لا يتراجعون إلا اذا صرع الجمل ، فقال : من يحمل على الجمل ؟ فوثبت طائفة من الفرسان وانطرحت الجثث حول ذلك الجمل الذي دعيت الواقعة باسمه ، هذا يأخذ بزمام الجمل فيقتل فيتناوله آخر فيقتل حتى قتل سبعون رجلا من قريش ، بينهم محمد بن طلحة .. وعلي ينادي : اعقروا الجمل فانه ان عقر تفرقوا . فضربه رجل فسقط فتفرق الناس .

واقبل القعقاع وزفر بن الحرث الكلابي فحملا الهودج ، وهو كالقنفذ لما فيه من السهام ، ولجأ اصحاب عائشة الى الهرب .

فأمر علي منادياً فنادى : ايها الناس ، لاتتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا منزلا ، وامر بان يحملوا هودج عائشة من بين القتلى .

ثم قال لاخيها محمد بن ابي بكر ، وهو من رجاله : اضرب على اختك قبة وانظر في امرها .

فأدخل محمد رأسه في الهودج ، فقالت : من انت ؟

قال : أبغض اهلك اليك ...

قالت : ابن الخثعمية ؟

– . نعم !

قالت : الحمد لله الذي عافاك ..

وقال لها عمار بن ياسر : كيف رأيتِ ضرب بنيك اليوم يا اماه ؟

قالت لست لك بأم .

قال : بلى وان كرهت .

فقالت وصوتها يرتجف : فخرتم ان ظفرتم ، واتيتم مثل الذي نقمتم ، والله لن يظفر من كان هذا دأبه .

ثم جاء علي فقال : كيف انت ؟

قالت : بخير .

قال : يغفر الله لك .

قالت : ولك .

واقبل الليل ، فأدخلها اخوها محمد البصرة ، وانزلها في دار عبدالله بن خلف الخزاعي ، على صفية بنت الحرث . وكان طلحة قد مات، وقد مر به، قبل موته رجل من اصحاب علي ، فقال له طلحة : انت من اصحاب أمير المؤمنين ؟

قال : نعم .

قال : امدد يدك ابايعك له ، فاني اخاف ان اموت وليس في عنقي بيعة .. اني لم ارَ شيخاً اضيع دماً مني .

اما الزبير ، فمر بعد خروجه من الساحة ، بجيش الاحنف بن قيس ، فخبر القوم الاحنف بذلك فقال : من يأتيني بخبره ؟

فأجابه رجل يقال له عمرو بن جرموز قائلاً : انا !

ولحق به فنظر اليه الزبير ثم قال : ما وراءك ؟

قال : اريد ان اسألك عن خبرك .

فقال غلام للزبير : هذا من معدّ .

قال : لا اخافه .

وحضرت الصلاة ، فقال ابن جرموز : الصلاة !

فقال زبير : الصلاة .

فلما نزلا وقف ابن جرموز وراءه ، ثم طعنه طعنة لفظ معها الروح ، واخذ فرسه وسلاحه وخاتمه وخلىّ عن الغلام . فدفنه ذلك الغلام بوادي السباع .

ورجع القاتل ينقل الخبر الى الاحنف ، فقال له : والله لا ادري أحسنت ام اسأت .

فأتى ابن جرموز علياً وقال لحاجبه : استأذن لقاتل الزبير بن العوام. فقال علي : ائذن له وبشره بالنار .

ودفع سيف القتيل الى علي ، فنظر اليه ثم قال : طالما جلىّ به الكرب عن وجه رسول الله .. خذوه الى عائشة .

واقام أمير المؤمنين بظاهر البصرة ثلاثة ايام، واذن للنـــاس في دفن القتلى وجعل يطوف بينهم ، وهو يسأل لهم الرحمة حتى مر بتلك الدار الخربة التي مات فيها طلحة .

فلما رآه وهو صريع قال : لهفي عليك يا ابا محمد ، انا لله وانا اليه راجعون ، والله لقد كنت اكره ان ارى قريشاً صرعى انت والله كما قال الشاعر :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبعـــده الفقر

وصلى عليهم جميعاً وكانوا عشرة الاف من الفئتين .

وبعد بضعة ايام ، جهز عائشة بكل ما ينبغي لها من مركب ومتاع وزاد ، وبعث معها كل من نجا ، ممن خرج معها من الحجاز ، الا من احب البقاء . وكان القوم في البصرة قد بايعوه . فاختـــار لعائشة اربعين امرأة من النساء المعروفات وامر اخاها محمداً بان يرتحل معها الى الحجاز .

فلما كان اليوم الذي خرجت فيه ، اقبل علي ، وحضر النـــاس، فخرجت فودعتهم قائلة : يا بني ، لا يعتب بعضنا على البعض الآخر . انه والله لم يكن بيني وبين علي في القديم الا ما يكون بين المرأة وبين انسباء زوجها .

فقال علي : صدقت والله ما كان بيني وبينها الا ذاك وانها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة

وخرجت يوم السبت غرة رجب ، وقد شيعها علي بضعة فراسخ وامر بنيه بان يرافقوها يوماً كاملا . وكانت وجهتها مكة ، فأقامت بها حتى كان الحج ، ثم رجعت الى المدينة .

* * *

- ٨٣ -

زفت اليتيمة الى طارق في ذلك الليـــل ، وقد كتبت البهجة سطورها على وجهي العروسين ...

على ان الناظر اليها ، كان يرى الكآبة تبدو بين هذه السطور ثم تختفي . انها لساعة هناء وساعة شقاء ..!

الزواج قد تم ، وقد كان طارق يعلل النفس به ، ولكن ذلك الضعف الجائر الذي ينهش جسم اليتيمة نهشاً ويذيب جسدها الغض ، كان مظهراً رهيبـــاً لا يطيق الفتى ان ينظر اليه .

واما اليتيمة فكانت تبتسم ، في تلك الساعة للأمل العذب ، ثم لا تلبث حتى ترخي نظرها مضطربة خائفة ، من ذلك الموت الذي ترى صورته . أجل ، كان اسم الموت في فمها ، وذكره في قلبها ، وشبحه المروّع امام عينيها الذابلتين . وهي لا تخاف الموت الا لانه يفصل بينها وبين طارق .

فلما انتهى الليل خرج الاثنان يريدان بابان ، موضع قبر الملك ، والفتى يحاول ان يضيم هم زوجته ، وهي تحاول ان تضيع همه ، بالابتسامات والتعلل بالامال الضاحكة .

وخرج الاحنف وقومه من الناحية الاخرى يريدون البصرة ، وقد فعـــل الاحنف ما فعل ، كما قرأت .

ولم تكن بابان بعيدة عن مرو الروذ . فلما امسيا فيها ، طلب طارق الى غلام من اهلها ان يدله على القبر ، ومشى الثلاثة وقد بسط الليل جناحيه ، وارخى وشاحه الاسود ، على ذلك المكان الذي يرقد فيه حفيـــد الاكاسرة ، المنكود الحظ . فجثت اليتيمة على ركبتيها عند باب القبر ، وهي تترنح كما يترنح السكران ،

وتكاد تسقط على الارض . ثم جعلت جبهتها على الباب الحجري ، وهمت بان تخاطب اباها فلم تستطع ، فقد خنقتها الدموع ، واهتز جسدها كالغصن النضير تهزه العاصفة .

فضمها طارق اليه وجعل يقول : يكفي ، فقد انتهت الزيارة ... واني اخشى ...

فتمتمت قائلة : لا تخشَ شيئاً ... ان الموت لا يفاجئني وانا في بابان ...

وانطرحت بين يديه وقد تلاشت قواها .

فقال وهو يمسح دموعه : قومي نهرب من هذه الوحشة القاتلة التي تسود القبور .

– ولكنني اريد ان اقول للملك كلمة قبل ان افارق قبره.

قال : لا يطيب للاحياء ان يحدثوا الاموات ..

فرفعت رأسها قائلة : ليس الملك ميتا بل هو حي في هذا القلب .

وادنت فمها من الحجر وهي تقول : لهفي عليك يا يزدجرد وقد قتلوك قبل ان اراك ... ولهفي على هذه الاعوام التي طويتها وانت مضطرب خائف بعيد عن عرشك ... أتقتل امي ... وشهريار الذي رباني ... واحبك ?! نعم ... احبك ... فانا لا استطيع ان انسى انك ابي وان تكن قاتلاً .

ثم نهضت قائلة : لنرحل ايها الحبيب فانا لا اصدق نفسي اني احب يزدجرد ابن شهريار ...

فمشى طارق وهو لا يقول كلمة ، وقد استندت الى ذراعه وهي ترسل الزفرات .

وباتا ليلتهما في دير هناك ، وهي تحدثه بأمر الحب ، كأن تلك اللوعة التي رافقتها منذ عرفت سرها ، لم يبق لها أثر . وطابت لهما الاقامة ببابان فلم يخرجا منها الا بعد عشرة ايام ، وقد خيل الى طارق ان النضارة تعود الى ذلك الوجه. وكان يذكر تلك الكلمات القليلة التي خاطبت بها اباها في ذلك الليل ، وقد قام في ذهنه ، انها نسيت يزدجرد ، عندما ذكرت امها وهي جاثية عند باب القبر . ولعلها ندمت على زيارة قبره ، وهو القاتل ...

* * *

بايع علياً بالبصرة ، طائفة من اصحاب النفوذ والجاه ، من جميع القبائل التي شهدت واقعة الجمل ، الا بني امية فلم يبايعه منهم احد ، بل خرجوا جميعهم يلتمسون لهم مكانا يلجأون اليه .

خرج عتبة بن سفيان ، وعبد الرحمن بن الحكم واخوه يحي - شقيقا مروان ابن الحكم، فساروا في البلاد لا يعرفون اي بلد ينزلون. فلقيهم عصمة بن أبير التميمي فقال لهم : هل لكم في الجوار ؟

قالوا : نعم !

فأجارهم وانزلهم حتى برأت جراحهم ثم سيرهم الى الشام في اربعمائة من الرجال ، خوفاً من ان يعرض لهم احد من جماعة علي .

فلما وصلوا الى دومة الجندل قالوا لعصمة :

لقد وفيت ذمتك وقضيت ما عليك فارجع .

واما عبدالله بن عامر صاحب البصرة في أيام عثمان، فقد خرج هارباً كما خرج هؤلاء حتى لقيه رجل من بني حرقوص يدعى « مري » فأجاره ثم بعث به مع رجال من قومه الى معاوية . كذلك خرج مروان بن الحكم واستجار بمالك بن مسمع واستخفى عبدالله بن الزبير في دار رجل في البصرة من الأزد يقال له وزير ، وهو من اتباع عائشة . وذلك قبل ان تخرج عائشة الى الحجاز . فقال له عبدالله : اذهب الى ام المؤمنين فاعلمها بمكاني ولكن احذر ان يعلم محمد بن ابي بكر .

فأتى الرجل عائشة فخبرها ، فقالت : عليَّ بمحمد !

فقال الرجل : لقد اوصاني عبدالله بان اكتم اخاك الخبر . فلم تعبأ بقوله ، بل بعثت محمداً فقالت له : اذهب مع هذا الرجل حتى تأتيني بابن اختك عبدالله بن الزبير ، فهو في منزله .

ففعل ما امرته به ، واقبل عبدالله الى دارها ثم رحل معها الى الحجاز وهو آمن .

وهكذا تفرق اعداء أمير المؤمنين ، يعدون له العدة ، ويتهيأون لحربه من

جديد ، وقد كان قادراً على الاحتفاظ بهم اسرى حرب ، ريثما ينتهي الامر بينه وبين معاوية .

فلمـــا فرغ من بيعة اهل البصرة ، نظر في بيت المـــال وقسم ما فيه على اصحابه .

ثم أتاه الاحنف بن قيس في بني سعد واولئـك الذين اعتزلوا معه فاراد امير المؤمنين ان يختبر رباطة جأشه . فقال له : اعتزلت يا ابن قيس ؟

فقال : لقد احسنت فيا صنعت ، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين فارفق فان الطريق الذي سلكت بعيد .

قال : وما معنى ذلك ؟

– معنـــاه انك احوج الي غداً منك بالامس .. فاعرف احساني واستبق مودتي لغد ولا تقل مثل هذا فاني لم ازل لك ناصحاً .

فضحك علي واظهر له الرضى ثم قـــال : ما رأيك لو جعلت الكوفة داراً للخلافة ؟

قال بلد طيب تجتمع فيه العرب .. وتترك المدينة ؟

– اجل فذلك خير للمسلمين .

– ومتى ترحل اليها ؟

– انظر في جميع امور البصرة حتى يستقيم لي الأمر ثم أسير الى الكوفة لانظر في امر معاوية قبل كل شيء .

– وهل تظن يا أمير المؤمنين ان معاوية يمضي في عصيانه الى النهاية ؟

– هذا ما اراه وقد بلغني انه يدعو انصاره من جميع النواحي ويقول لهم : تهيأوا للحرب بيننا وبين علي .

– وماذا تصنع وانت ترى سيوف اعدائك تشهر في وجهك ؟

– اقاتل السيف بالسيف ، واستعين بالله على هؤلاء الطامعين بالدنيا ، الذين ينفخون في الاسلام روح الفتنة والحرب .

– وهل تأذن لي ان اسألك سؤالا ؟

– افعل .

– من هو الرجل الذي توليه امر البصرة ؟

فابتسم قائلاً : أتطمع في الامارة وانت من قواد الاسلام .

– لا يا أمير الموءمنين ، اني لا اريدها ولكني اريد ان تختار لها رجلاً صادقاً في دينه ، بعيداً عن دنياه ..

قال : سأولي ابن عباس واجعل زياداً على الخراج وبيت المال .

– زياد بن ابي سفيان ؟

– نعم .

– وانت واثق من اخلاصه ؟

– اجل فهو ممن اعتزل الحرب مثلك ولم يشهد المعركة .

قال : اني اخشى هوءلاء القوم المترددين في الطاعة .

– لقد بايع زياد مع الذين بايعوا ولم تبدر منه بادرة وسأوصي ابن عباس بان يشاوره في كل امر .

ثم قال : اين اخوك عبدالله؟

– هنا يا أمير الموءمنين .

– واعتزل مثلما اعتزلت ؟ ..

– نعم ، وهو على الطاعة ، وسنلحق نحن الاثنين بأمير الموءمنين الى البلد الذي يختار ونكون من رجاله .

قال : يكفي ان يكون ورائي رجال مثل الاحنف بن قيس... تهيأ للرحيل بعد بضعة ايام ..

– وهل كتبت يا مولاي الى عاملك بالكوفة ؟

– اكتب اليه الساعة ... ونادى عبدالله بن رافع قائلاً له : اكتب .

من عبدالله عليّ أمير الموءمنين .

اما بعد فانا التقينـــا في النصف من جمادى الآخرة بالخريبة – فناء من افنية البصرة – فاعطاهم الله عز وجل سنه المسلمين وقتل منا ومنهم قتلى كثيرة واصيب من اصيب منـــا ثمامة بن المثنى وهند بن عمرو وعلبـــاء بن الهيثم وزيد بن صوحان واخوه .

ثم قال لغلامه : عليّ بزفر بن قيس .

فلما اقبل قال له : تحمل كتابي هذا الى الكوفة وتنقل بشرى الظفر الى اهلها ، وهم في المسجد وتقول لهم : سيقدم أمير المؤمنين الكوفة بعد بضعة ايام .

وامر غلمانه بان ينادوا : من كانت له حاجة فليذكرها لأمير المؤمنين قبل خروجه .

فاقبل الناس يسألون خليفتهم قضاء الحاجات حتى انه لم يبق في البصرة كلها رجل لم يذكر حاجته .

وقبل ان يغادر البصرة كتب الى جرير بن عبدالله البجلي ، وكان عاملاً على همذان ايام عثمان والى الاشعث بن قيس عامل ازربيجان يأمرهما بأخذ البيعة والمجيء الى الكوفة .

ثم رحل ولم يلبث حتى نزل الكوفة والناس فيها على طاعته ، وحوله قبائل كثيرة تهتف له .

* * *

- ٨٥ -

كان عمرو بن العاص ، قد ترك المدينة قبل ان يقتل عثمان ولجأ الى فلسطين كما قرأت . وسار معه ولداه عبدالله ومحمد .

فبينما هو جالس مع ولديه بعجلان مرّ به راكب من المدينة فقال له : ما وراءك ، قال : تركت عثمان محصوراً ..

ثم مر به راكب آخر بعد ايام فقال له : ما الخبر ؟

قال : قتل عثمان .

قال: انا أبو عبدالله.. انا قتلته وانا بوادي السباع.. ان يلِ هذا الامر طلحة فهو فتى العرب ، وان يلهِ ابن ابي طالب فهو أكره من يليه .

ثم مرّ راكب آخر فسأله قائلا : ماذا جرى في المدينة ؟

قال : بايع الناس علياً ..

فاضطرب واكفهر وجهه ثم قال : ستكون حرب من حكّ فيها قرحة نكأها .. رحم الله عثمان .. ورضي عنه .. وغفر له ... !

فقال سلامة بن زنباع الجذامي وكان حاضراً : يا معشر قريش كان بينكم وبين العرب باب فكسر فاتخذوا بابا غيره ..

واقام ابن العاص ينتظر ما يصنع الناس حتى بلغه مسير طلحة والزبير وعائشة الى البصرة . ثم خبروه بواقعة الجمل فلعن الاقدار التي مهدت لعلي سبل الظفر وجعل يفكر في امره حتى اتاه معاوية في الشام لايبايع علياً وأنه يعظم شأن عثمان . وكان معاوية احب اليه من علي .. بل كانت غايته احب اليه من الرجلين ... فدعا ابنيه وقال لهما : ما تريان .. اما علي فلا خير عنده وهو لن يشركني في شيء من امره ..

فقال ابنه عبدالله : توفي النبي صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر وهم عنك راضون ، فارى ان تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس .

وقال ابنه محمد : انت ناب من انياب العرب ، واني لا ارى ان يجتمع هذا الامر وليس لك فيه صوت ..

فقال : اما انت يا عبدالله فقد أمرتني بما هو خير لي في ديني ، واما محمد فقد امرني بما هو خير لي في دنياي وشرٌ لي في آخرتي . وكان قد عرف ، وهو الخبير الداهية ، ان معاوية لن يعود الى الطاعة ، فآثر ان ينضم اليه ، فيأخذ حصته من الغنيمة ، اذا فازت الشام ، على ان ينضم الى علي ولا يأخذ شيئا ، اذا كتب لعلي النصر .

ان علياً رجل دين وزهد لا يبالي بمظاهر المجد والعظمة الجوفاء ، ومعاوية رجل دنيا يمشي الى غايته في بحر من الدماء ..

وهذا ما يريده عمرو بن العاص ، فقال لولديه : الى الشام فلا حياة لنا اذا بقينا داخل الجدران .

وارتحل راجلا ، وهو يبكي كما تبكي المرأة ويقول : واعثماناه .. أنعي الحياء والدين .. !!

حتى قدم الشام وهو على ما رأيت ، وأهل الشام يحضون معاوية على الطلب

بدم عثمان . فجعل يقول : ايها الناس انتم على الحق ، فاطلبوا بدم الخليفة المظلوم !!

ومعاوية لا يلتفت اليه ..

فقال له ولداه : هذا معاوية لا يلتفت اليك فانصرف الى غيره ..

قال : بل اخاطبه وارى رأيه ثم انظر في الامر .

ودخل الى مجلس معاوية وعنده الناس فقال : لي كلمة اقولها لك يامعاوية ليسمعها الناس ولا اقول سواها فان سمعتها فيدي بيدك والا رجعت ...

قال : هات !

قال : عجب لك ، قدمت من فلسطين لأكون عوناً لك وانت معرض عني كأني غير موجود ..

– وماذا ايضاً ؟

– وانت تعلم اننا اذا قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة ، ففي النفس من ذلك ما فيها ، حيث نقاتل من تعلم فضله وقرابته ، ولكن انما اردنا هذه الدنيا ...

فمد اليه يده قائلاً : رضيت ، فلا تزد ... وصالحه وعطف عليه ، وبدأ الاثنان ، وهما أدهى رجال العرب ، بأن يكيدا امير المؤمنين ...

* * *

– ٨٦ –

انتهى الى الكوفة جرير بن عبدالله والاشعث بن قيس الكندي كما امرهما أمير المؤمنين . ومثلا بين يديه فخبراه انهما اخذا البيعة من اهل ناحيتهما ، وانهما على طاعته .

فقال : امكثا .

ثم اراد ان يرسل رسولا الى معاوية ، فقال له جرير : ارسلني اليه فانه صديق لي ..

فقال الاشتر لعلي : لاتفعل يا امير المؤمنين فان هواه مع معاوية ..

قال : دعه حتى ننظر ما الذي يرجع الينا به ..

وبعثه ومعه كتاب الى معاوية يعلمه فيه باجتماع المهاجرين والانصار على بيعته ، ونكث طلحة والزبير وما كان من الحرب ويدعوه الى الدخول فيما دخل فيه الانصار والمهاجرون ، حقناً لدماء الابرياء من المسلمين . فسار جرير ، فلما قدم الشام ، ماطله معاوية ودعا اليه عمرا فقال : ما رأيك في هذا يا ابن العاص ؟

قال : ارى ان تجمع اهل الشام وتلزم علياً دم عثمان وتندب القوم الى حربه بعد حين .

ففعل معاوية ما اشار به ، ودعا الناس . وكان اهل الشام ، منذ قدم النعمان ابن بشير بقميص عثمان مخضباً بدمه ، وباصابع نائلة ، يبكون عند ذلك القميص ، وهو على المنبر ، والاصابع معلقة فيه ، وقد أقسم بعضهم ان لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ، ومن ساعدهم في ذلك القتل .

فلما حدثهم معاوية بأمر الكتاب المرسل من عليّ ، قال قوادهم : ان عليا قتل عثمان ، وآوى قتلته فنحن لاننتهي عنه حتى يقتلنا او نقتله مع أصحابه .

فقال معاوية عندئذ لجرير : ارجع وخبر عليا بما سمعت ورأيت ..

فعاد جرير وقص الخبر على امير المؤمنين .

فقال الاشتر : قد كنت نهيتك عن ان ترسل جريراً وخبرتك بعداوته وغشه ولو كنت ارسلتني لكان خيراً من هذا الذي اقام عنده حتى لم يدع باباً يرجو فتحه الا فتحه ولا باباً نخاف منه الا اغلقه ...

فقال جرير : لو كنت هناك لقتلوك فقد ذكروا انك من قتلة عثمان .

قال : والله لو اتيتهم لحملت معاوية على امر اعجله فيه عن التفكير ولو اطاعني امير المؤمنين لجعلك في السجن حتى يستقيم هذا الامر ...

فسكت جرير ولم يجب ، ثم لم يلبث حتى خرج الى قرقيسياء وكتب الى معاوية يقص عليه ما جرى له فأمره معاوية بالقدوم ، وكان انصار بني امية يفدون الى الشام من كل ناحية حتى غصت بهم الاسواق .

وعلي يعرف ذلك ولم يشأ ان يمنع جريراً من الخروج ، لانه كان يريد ان يغزو معاوية بالانصار المخلصين ، حتى انتهى اليه ان جيش الشام قد تهيأ ، وان عمراً

ابن العاص اشار على معاوية بان يسير بنفسه على رأس ذلك الجيش ، ثم بلغه ان عمراً كان يقول لاهل الشام : لقد ضعف عليّ واصحابه ، وان اهل العـراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم ، واهل البصرة مخالفون لابن ابي طالب لايمشون تحت لوائه لانه قتل ابطالهم يوم الجمل ...

ثم بلغه انه يقول : لقد اتاكم علي في طائفة قليلة من قومه ، وقد قتل خليفتكم ، والله والله في حقكم ان تضيعوه ، وفي دمكم ان تبطلوه . وكان عبدالله ابن عباس قد قدم الكوفة بجيش البصرة فقال علي عندئذ لاصحابه : اتركوا الكوفة وتوكلوا على الله . وخرج مع انصاره فعسكر بالنخيلة ، ثم بعث زياد ابن النضر الحارثي في ثمانية آلاف طليعة له ، وشريح بن هانىء في اربعةآلاف، وسار هو يريد المدائن حتى دخلها ، ونهض معه من فيها من الرجال يريدون الشام .

فلما عبروا الفرات ، كان زياد وجريح قد انتهيا الى سور الروم ، ولقيهما هناك ابو الاعور السلمي في فرقة من الجيش الشامي . فارسلا الى علي فأعلماه ، فقال للأشتر : تعجل في المسير ، فاذا قدمت فانت على القوم ولكن اياك ان تبدأ اهل الشام بقتال قبل ان يبدؤوك حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع منهم ولا يحملك بعضهم على قتالهم واجعل على ميمنتك زياداً ، وعلى الميسرة شريحاً ولا ندنو منهم دنو من يريد ان ينشب الحرب ، ولا تتباعد تباعد من يهاب البأس حتى اقدم عليك ان شاء الله .

وكتب الى زياد وشريح بذلك وأمرهما بطاعة الاشتر . فسار الاشتر حتى اقبل اليهم واتبع ما امره به علي وكفّ عن القتال ، حتى كان المساء ، فحمل عليهم ابو الأعور ، فثبتوا له واضطربوا ساعة ثم انصرف اهل الشام ولم تهرق الدماء .

وعند الصباح ، خرج من جند الكوفة هاشم بن عتبة الزهري وخرج اليه ابو الاعور فاقتتل الجيشان يومها ، تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال وقد صبر بعضهم للبعض الاخر حتى غربت الشمس ، وقد قتل من رجال معاوية عبدالله بن المنذر التنوخي وكان قاتله فتى من تيم يقال له ظبيان بن عمارة .

وأخذ الاشتر يقول : ويحكم أروني ابا الأعور ! فتراجع ابو الاعور فجعل رجاله وراء المكان الذي كان فيه ، وتقدم الأشتر فصفّ اصحابه في ذلك المكان.
ثم قال لسنان بن مالك النخعي وهو فتى حدث السن : انطلق الى أبي الأعور فادعه الى البراز .

فقال : الى مبارزتي او مبارزتك ؟

قال : لو امرتك بمبارزته فعلت ؟

– نعم والله لو أمرتني ان اعترض صفهم بسيفي لما ترددت في ذلك.

قال : لقد عرفت مقامك فادعه الى الخروج إليّ !

فذهب الفتى حتى قارب اهل الشام فقال : أمنوني فانا رسول .

فأمنوه ، فمثل بين يدي أبي الأعور وقال : ان الاشتر يدعوك الى ان تبارزه فاطرق ملياً ثم قال : ان خفة الأشتر وسوء رأيه ، حملاه على إجلاء عمال عثمان عن البلاد وتشويه محاسنه ، وعلى السير اليه في داره حتى قتله فأصبح متبعاً بدمه لاحاجة الى مبارزته ؛ فهمّ بالجواب فأسكته قائلاً : ولا حاجة الى جوابك فاذهب عني ...

وصاح به أصحاب ابي الاعور يأمرونه بالانصراف .

فرجع الاشتر فخبّره فقال : نبيت ليلتنا ثم ننظر في الامر عند الصباح .

ولكنهم عندما اصبحوا لم يجدوا اثراً لأبي الاعور وجيشه،فقد تراجع الجميع الى الموضع الذي اقام به معاوية .

وبينا هم يتشاورون في الامر ، اقبل امير المؤمنين ، فقال له الأشتر : لقد عاد أبو الاعور لينضم الى معاوية وانا ارى أن الحق به .

قال : افعل ، وسأجيء في الاثر .

وكان معاوية قد سبق فنزل منزلاً واسعاً يجري فيه الماء وليس في ذلك السهل ماء غيره .

وأقبل عليه أبو الاعور يحميه ويمنعه .

وطلب اصحاب علي ، عند وصولهم ، ماء غيره فلم يجدوه ، فأتوا علياً فخبروه بهذه المصيبة ، وعطش الناس ..

فاستدعى صعصعة بن صوحان فأرسله الى معاوية يقول : سرنا مسيرنا هذا ونحن نكره قتالكم ، فقدمت الينا خيلك ورجالك فقاتلتنا مع انا كارهون لذلك ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهذه اخرى قد تجبرتم ومنعتم الناس من الماء والناس غير منتهين ، فابعث الى اصحابك ليتنحوا عن الماء لننظر فيا بيننا وبينكم وفيا قدمنا له ، فان اردت ان نترك ما جئنا إليه ونتحارب من أجل الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا .

قال معاوية لاصحابه : ما ترون ؟

قال الوليد بن عقبة وعبدالله بن سعد : نمنعهم الماء كما منعوه ابن عفان واقتلهم عطشاً قتلهم الله .

قال عمرو بن العاص : خلِّ بينهم وبين الماء فانهم لن يعطشوا وانت ريّان وعملك هذا بينك وبين الله ..

قال الاثنان : بل يمنعهم اياه الى الليل فانهم ان لم يقدروا عليه رجعوا وكانت الهزيمة .. امنعهم الماء ايها الامير منعهم الله اياه يوم القيامة ..

قال صعصعة : انما يمنعه الله الفجرة وشربة الخمر . عليك لعنة الله ، ولعن هذا الفاسق .. « وهو يعني الوليد بن عقبة » .

فشتموه وتهددوه ومعاوية يفكر في الأمر ، ثم قال : سيأتيكم رأيي يا ابن صوحان في هذا المساء . فخرج صعصعة فخبّر علياً . فلما كان المساء ، بعث معاوية الخيل الى أبي الاعور ليمنعهم الماء . فلما سمع علي ذلك قال لقومه : السيف السيف ..

فقال له الاشعث بن قيس الكندي : انا اسير اليهم .

فأذن له في ذلك ، فلما دنا منهم ، ثاروا في وجوه اصحابه ورموهم بالنبل ساعة ، ثم تطاعنوا بالرماح ، ثم عمدوا الى السيوف ومعاوية وعلي يرسلان الرجال والخيل حتى قدم أخيراً من جيش الشام عمرو بن العاص ، ومن جيش علي الأشتر ، واشتد القتال ، وكان عبدالله بن عوف الأزدي ، وهو من اصحاب علي يقول :

خلّـوا لنا ماء الفرات الجاري او اثبتوا لجحفل جـرار
لكل قرم مستميت شـاري مطـاعن برمحه كرار
ضرّاب هامات العدى مغوار لم يخشَ غير الواحد القهار

حتى تراجع اهل الشام عن الماء والذعر يملأ القلوب . وارتفعت اصوات القوم من جيش علي يقولون : والله لا نسقي اهل الشام .

فأرسل امير المؤمنين الى اصحابه : خلّـوا عنهم فأن الله نصركم ببغيهم وظلمهم ..

ففعلوا ما امرهم به ، قائدهم الظافر الصالح ، وباتوا ليلتهـم وهم ينشدون اناشيد الظفر . ثم مكث علي يومين لا يرسل الى القوم أحداً ولا يأتيه منهم احد حتى رأى اخيراً ان يبعث الى معاوية يدعوه الى الطاعة . وارسل من اجل هذه الغاية بشير بن عمرو الانصاري ، وسعيد بن قيس الهمذاني ، وشبث بن ربعـي التميمي قائلاً لهم : اذهبوا فادعوا هذا الرجل الى الله .

فقال له شبث : يا أمير المؤمنين، الا تعده بسلطان توليه اياه أو منصب يكون له فيه منزلة ، ان هو بايعك ؟

قال : انطلقوا اليه وانظروا ما رأيه .

فاتوا معاوية فدخلوا عليه وجعل بشير بن عمرو يقول : يا معاوية ، ان الدنيا عنك زائلة، وانك راجع الى الآخرة والله محاسبك بعملك ومجازيك عليـه فلا تفرّق جماعة هذه الامة ولا تسفك دماءها بينها .

فاسكته معاوية قائلاً : هلاّ اوصيت بذلك صاحبك ؟

قال : ان صاحبي احق البرية كلها بهذا الامر ، في فضله ودينه وسابقتـه في الاسلام ، وقرابته برسول الله ..

– وماذا يقول ؟

– يأمرك بتقوى الله ، وان تجيبه الى ما يدعوك اليه من الحق فانه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة امرك .

– ونترك دم ابن عفان ؟! لا والله لا نفعل ذلك ابداً .

فقال شبث بن ربعي : قد فهمت يا معـاوية ما رددت على ابن محصن، انه

والله لا يخفى علينا ما تطلب وانك لم تجد شيئاً تستغوي به النـــاس وتستميل اهواءهم الا قولك : قتل خليفتكم مظلوماً ونحن نطلب بدمه ... وقد علمنا انك ابطأت عنه بالنصر وأحببت له القتـــل لتكون لك الخلافة بعده ، فاتق الله يا معاوية ودع ما انت عليه ولا تنازع الأمر اهله .

فقال : كذبت ايها الاعرابي في كل ما ذكرت ، انصرفوا من عنـــدي فليس بيني وبينكم الا السيف .

فرجعوا الى علي يقصون عليه ما سمعوه ، فكره ان يلقى جيشه كله ، جيش الشام كله ، خوفاً من ان يكون في هذا اللقاء فناء الجيشين . فجعل يأمر الفارس البطل من اصحابه ، فيخرج الى القتال ومعه جماعة من قومه ، ويخرج اليه آخر من اصحاب معاوية فيقتتلان. حتى انقضت ايام ذي الحجة كلها وهم يفعلون ذلك. ثم دخلت السنة الســـابعة والثلاثون واقبل الشهر المحرم ، فرأى أمير المؤمنين ومعاوية ان يتركا الحرب ريثما ينقضي ذلك الشهر .

* * *

- ٨٧ -

حلوان بلد فسيح طيب الهواء ، فيه الطوائف الكثيرة من العرب والفرس ، وفيه الاسواق تغص بالنـاس من كل قطر وقد امسى بعـد الفتح ، اعظم شأناً واكثر عمراناً ، منه في ايام الاكاسرة ، وايام حفيـدهم يزدجرد . والفرس فيه ، راضون بما قسم لهم الله مقيمون على عهد الفـاتحين ، لا يحملون في وجه الاسلام سيفاً ، ولا يخرجون عن الطاعة .

حتى ليخيل اليك ، ان الشعبين شعب واحد ، في ظل الراية العربية راية الاصلاح والهـدى ، والسلام والهدوء . وانك لتجـد عشائر كاملة ، من عشائر فارس ، دخلت في الاسلام منذ عهد الفتح الاول ، وشاركت المسلمين في الحرب والسلم ، والنفوذ والسلطان .

وموقع حلوان ، موقع فتان هادىء ، البسته الطبيعة ثوباً خلاباً من الجمال ،

ووهبت له جميع اسباب الفتنـة والسحر . والنـاس يخرجون في معظم الايام ، عند المساء ليستعيدوا بالطواف حول المدينة الزاهية تلك القوى التي يذيبها العمل الشاق . وقد يمر الهزيع الاول من الليل وهم في حضن الطبيعة الضاحكة ، وقد استسلموا الى المرح واللهو .

وكان خبر خروج عائشة من الحجاز ونزولها في البصرة مع طلحة والزبير قد انتهى الى القوم . ثم انتهى اليهم بعد أيام ، ان أمير المؤمنين لحق بهم اليها ؛ ولم يلبث حتى استعاد حرمة الخلافة التي انتهكوها دون ان يكون لهم عذر. فاهتزوا فرحاً لهذا الخبر ، وظهرت الابتسامات على الثغور. وليس في ذلك ما يدعو الى العجب ، فأهل حلوان جميعهم ، عربهم وفرسهم ، انصار لعلي يبغضون من يبغـض ، ويحبون من يحب . بينهم رجل في الخمسين من عمره ، تغلل حب امير المؤمنين في صدره ، وهو لا يعرفه ، وحمل لواء الدفاع عنه ، خفـاقاً في مجالس القوم . وهو عربي يدعى صالح بن حجر، من بني رياح، وقد خسر عينه اليسرى في حرب جلولاء ، ورجله اليمنى في خانقين .

وانه ليطيب لكل فارسي وعربي، ان يحادث صالحاً عمره كله ويسمع دفاعه عن علي ، وعلي لا يحتـاج في حلوان الى من يدافع عنـه . ومنزل صالح في اول حلوان . وله فناء واسع يجلس عند بابه كل مساء ، بين المغرب والعشاء ، ليصف لغلام له ، او لجليس غيره ، زهد امير المؤمنين ، وعظمته في دينه واخلاقه . ثم يأوي الى فراشه مستنداً الى غلامه الفارسي . وقد جعل منزله ، منزلا لكل غريب ، وهو يبعث ذلك الغلام ، الى السوق ليبحث له عن الغرباء اللاجئين الى البلد ، ويدعو بعضهم اليه .

فبينا هو في مساء يوم ، على مقعده الذي ذكر لك ، رأى فتيين على فرسين لهما يدنوان منه ، وهما يتهامسان . ثم رأى اصغرهما ، فتاة تلبس لبس الرجال . وقد عرف انهما غريبان ، انتهيا الى حلوان في تلك الساعة . فرفع رأسه وجعل يبتسم لهما حتى وصلا ، فقال : أهلاً بالفتيين الغريبين ... انزلا ..

فقال الفتى : ومن قال لك اننا من الغرباء ؟

– هذه العين الباقية لي فهي تعرف وجوه جميع اهل حلوان ..

وكان طارق بن عبدالله هو الذي يخاطبه فقال : حفظ الله لك عينك التي تعرف كل هذا ... أفلا تدلنا على منزل نبيت فيه الليلة ؟

قال : اسألك عن هذه الفتاة قبل ان اجيب ..

– انها زوجتي ..

قال : خيل لي انها ملكة من ملكات الروم ...

ثم اومأ الى منزله قائلاً : هذا هو البيت الذي تنزلان فيه .

قال : اؤثر ان الجأ الى الاماكن التي تنزل فيها الناس .

– لقد اعددت بيتي لهذه الغـــاية فليس لك ان تخطو خطوة واحـــدة الى الامام ...

– واذا خطر لي ان افعل ؟

– لا اصدق انك تفعل هذا فاشراف العرب لا ينتهكون الحرمات .

فنزل عن فرسه وهو يقول : لو كان لأمير المؤمنين بيت في حلوان ودعاني الى النزول فيه لما آثرته على منزلك، انك احسن ما رأيت في هذه الرحلة وسأجعل دارك مقاماً لي .

ومد يده فأنزل اليتيمة ، ثم صافحا الرجل وهما يشكران له مروءته وأدب نفسه . وكانت الشمس قد احتجبت عن العيون ، فاستند صالح الى عصـــاه من هذه النـــاحية والى غلامه من النـــاحية الاخرى ، وتقـــدم الاثنين الى المنزل ، والابتسامة على شفتيه .

ثم أعدّ لهما احدى الغرف ، وجلس عند بابهـــا قائلاً : اما الآن فأنا اسألك عن حاجتك .

– ولا تسألني عن اسمي ونسبي ؟

– كن من شئت فانا لا ابالي وحسبي اني ارى وجهي عربيين يتلألأ عليهما الجمال والشرف .

– اما انا فأسألك عن اسمك لانه لا يطيب لي ان انزل ضيفاً على رجل لا اعرف من هو ؟

– اني صالح بن حجر ، من بني رياح ، وانا هنا منذ الفتح

– وقد خسرت في الفتح عينك ورجلك ؟

– اجل .

فتظاهر طارق بانه يجهل اسماء القواد الذين فتحوا حلوان فقال : اذن انت تعرف جميع الرجال الذين فتحوا هذا القطر .

– كما اعرف ابي وامي وقد مشيت في صفوفهم من القادسية الى المدائن ، الى جلولاء ، الى خانقين، الى حلوان .

– وكانوا كثاراً ؟

– معظم رجال العرب ابطال يحسنون قيادة الجيوش كما تعلم ، على ان القائد الاكبر الذي دخل حلوان ظافراً، كان اطولهم سيفاً واعظمهم شأناً.. وهو ينتمي الى اعز العشائر ، في بلاد نجد والعراق ...

– من هو هذا ؟

القعقاع بن عمرو التميمي ، الذي قال فيه الخليفة أبو بكر : لا يهزم جيش فيه مثل هذا .

قال : كنت صغيراً فلم أشهد حروب القعقـــــاع الذي تدعوه العرب سيد الميادين .

– ولكنك ستشهدها في هذا الزمان فالقعقاع مثل جميع الرجال من عشيرته لا يترك السيف حتى تعجز يده عن حمله .

– وتعرف تميمياً غيره ؟

– أعرف أخاه عاصماً، وعبدالله بن قيس ، وقد حاربت تحت لوائهما، واسمع الشيء الكثير عن الاحنف اخي عبدالله ... ومن تعرف انت من هؤلاء ؟

– أعرف الرجلين الاخيرين ..

– وأين رأيتهما ؟

– في مرو الروذ وفي بعض حروبهما في خراسان .. وقد قص عليّ عبدالله الذي ذكرت حكاية جرت له في هذه المدينة ليلة الفتح .

قال : أذكرها لي فقد أعرفها كما تعرفها أنت .

– انها حكاية تتعلق برجل فارسي .

– من رجال يزدجرد ؟
– نعم وقد كان مع مولاه في حلوان قبل فراره .
– وما هي الحكاية ؟
قال : أتذكر ليلة دخل المسلمون حلوان بعد فرار الملك ؟
– أذكر تلك الليلة كأنها أمس .
– وشهدت فيها مجلس الأمراء الفاتحين ؟
– أجل !
– وتذكر ان ذلك الفارسي مثل بين ايدي أولئك الامراء وسألهم ان يرحموا طفلة خسرت أمها يوم خرجت الى هذا العالم ؟
فأطرق ملياً ثم قال : لقد ذكرت الآن ..
– ماذا ؟
– ان والد الطفلة كان ذا يد واحدة .
– وماذا ايضاً ؟
– وانه كان يبغض يزدجرد بغضاً قرأه القعقاع واركان حربه في عينيه ، وقد طلب في ذلك الليل ان يدخل في دين الاسلام .
– والطفلة ؟
– أخذها عبدالله بن قيس وسلمها لزوجته لتكون مرضعاً لها .
– ووالدة الطفلة ؟
– دفنها الرجل بين الصخور القائمة جنوبي حلوان ودلنا على قبرها في اليوم الثاني وهو يرثيها بدموعه .
– والقبر باق ؟
– نعم وقد كثرت القبور حوله من جميع النواحي الا ناحية الوادي .
– اذن فأنت تعرف موضعه؟
– اعرفه ، واذكر رثاء ذلك الرجل الحزين كلما مررت بالقبر .
فتلألأت الدموع في عيني اليتيمة ولكنها لم تقل كلمة .
فقال طارق : لم يبق اذن الا ان اذكر لك حاجتي .

– ما هي ؟

– هي ان ترافقنا غداً الى القبر الذي وصفت .

– وهل كانت المرأة نسيبة لك ؟

فتملمت اليتيمة قائله : انها امي ..

فجعل ينظر اليها والى طارق وهو لا يصدق ما سمع .

ثم قال: وأنت هي الطفلة ؟

– نعم انا هي الطفلة المنكودة الحظ ..

– وزوجك ... من هو ؟

– هو طارق بن عبدالله بن قيس.

فرفع يديه الى السماء قائلاً :

أحمدك اللهم فقد وهبت لي ما كنت اسألك اياه .

فقال طارق : اكنت تسأل الله ان يعيد الطفلة الى حلوان ؟

– بل كنت اطلب اليه تعالى ان تقع عيني ، قبل ان أموت ، على عبدالله بن قيس ، او على واحد من اهل بيته ..

– ولمَ ذلك ؟

– لان عبدالله انقذني في خانقين من الموت ولم اكن استطيع قبل خروجه من حلوان ان اعترف بجميله.

وسكت قليلاً ثم قال :

اني هنا عبد من عبيدك ايها الامير ، وبيتي هذا هو لك ، فاسأل ما تشاء , افعل ما تشاء .

قال : ليس لي في حلوان غير الحاجة التي ذكرت ، فاما ان تزور اليتيمة قبر امها غداً ثم ننصرف بعد بضعة أيام ، واما ان تطيب الاقامة لها فنمكث شهراً ...

قال : اتدعى زوجتك اليتيمة ؟

– نعم فهو الاسم الذي اختاره لها الرجل الذي عرفت .

قال : يظهر انها لم تكن ابنته .

– لا .. انها ابنة رجل اعظم منه بل هو اعظمِ رجال هذا الشرق ...
– وهذا الرجل يدعى يزدجرد ؟!
– أجل يزدجرد الذي كانت فارس كلها لا تتسع لعظمته .
وقص عليه حكاية جهان روز منذ عرفها شهريار ، وحكاية اليتيمة منذ عرفها وهو على شاطىء المرغاب .

وضاق صدر اليتيمة فخرجت الى الفناء .
فقال طارق عندئذ :
أخشى ان يمد الموت يده اليها بعد هذا الشقاء الذي عرفت حكايته ... واني خائف ...
قال : ان الله القادر على كل شيء ينقذها من مخالب الموت .. على ان انصح لك بالا تحدثها بمثل هذا فالذكرى قاتلة .
فنهض قائلاً : كنت الان مكرها على ما فعلت .
ثم لحق بزوجته الى الخارج ، ولم يلبثا حتى رجعا الى الغرفة .
فقال الرجل : أين أبوك اليوم ؟
– كان يهمّ بالذهاب الى البصرة ، مع عمي الاحنف عندما تركت مروالروذ
– ودعي الى الحرب ؟
– نعم !
– وهل هو من صف عائشة ؟
فتردد قليلاً ثم قال : خيّل الي انه من انصار أمير المومنين .
فبرقت عيناه قائلا : وأنت ؟

– اما انا فلا اعرف عائشة ولا اعرف علياً ، ولكني اشعر بان هذا القلب لا يحب اولئك المتمردين الذين سعروا نار الحرب وانتهكوا حرمة الخلافة بعد ان بايعوا علياً .
قال : بارك الله فيك ، وهل تعلم ماذا جرى في البصرة ؟
– سمعت ، وانا في ظاهر الكوفة ان الفشل كان من نصيب عائشة وان طلحة والزبير قتلا .

– ذلك صحيح وقد انتهت اخبـاره الى حلوان ، ولكن القوم يقولون ان معاوية لم يبايع الخليفة وانه يتهيأ للحرب .

– ولكنه لن يكون اسعد حظاً من عائشةفهو يطلب الخلافة لنفسه كما يقول ابي ولا يبالي بهؤلاء المسلمين الذين يدفعهم الى لجة الفناء .

– وماذا تصنع انت اذا اقتتل الاثنان ؟

– احمل السيف لادافع عن خليفة رسول الله، الذي يصفونه لي بقولهم : انه اشجع المسلمين وازهدهم في الدنيا ، وأقربهم الى النبي .

قال : وانا أفكر في الخروج الى القتال يوم يتلاحم الجيشان .

– انت ؟

فارتجفت شفتاه وجعل يقول : نعم انا فقد شهدت لي الميـادين من قبـل ، واعترف قومك بنو تميم الذين هم ابطال الحرب ، بأني خلقت للسيف .

– ولكنك خسرت رجلك فلا تستطيع الركوب ..

قال : لقد فكرت في أمر آخر ابلغ معه الغاية ..

– ما هو ؟

– هو ان اختار اربعـة من الرجال الاشداء ، يحملوني في محفـة ويقفون في ناحية بعيدة ، من نواحي الميدان .

– اي انك تكتفي بان تشهد المعركة ..

– بل اشترك في القتال كما يشترك فيه انصار علي .

– وكيف ذلك ؟

– احمل قوسي ثم ارسل سهامي الى صدور اهل الشام ..

– واذا تراجعت الفرسان وانت لا تستطيع الفرار ..

– ارمي بآخر سهم لي، ثم اغمض عيني مستسلماً الى الاعداء وانا اهتف قائلاً: يعيش أمير المؤمنين !!!

واستوى عندئذ في مجلسه وجعل يصف علياً ويذكر اعماله في سبيل الاسلام حتى انقضى الهزيع الاول من الليل .

فقال له طارق : لو كان في الاسلام الف رجل يحبون أمير المؤمنـين كما تحبه

انت لحملوه على اعناقهم الى الشام وقتلوا معاوية وهو في قصره ...

قال : ان لم يقتل اليوم قتل غداً فطالب الدنيا لا يحبه الله .

ونادى غلامه قائلا : هات يدك فقد أتت ساعة الرقاد .

وابتسم لضيفيه ابتسامة الابتهاج والرضى ثم انصرف الى حجرته وهو يردد اسم علي واسم عبدالله بن قيس الذي أنقذ حياته في خانقين ، وهو تحت حوافر الخيل ...

* * *

- ٨٨ -

لقد طابت الاقامة لي بحلوان ، كما طاب لي حديث هذا الرجل . وكأن اليتيمة كانت تخاطب نفسها .. وهي ذاهلة ..

فقال طارق : ولكنك لم تعرفي حلوان بعد .

– يكفي ان فيها عظام المرأة التي ولدتني ..

وتردد في صدرها البكاء

فقال : عديني بأنك ستزورين القبر كل شهر وانا اعدك باننا سنمكث بحلوان سنة كاملة .

– من يعلم ، فقد امكث بها العمر كله .. بل أمكث الى الابد .

– وما معنى هذا ايتها الحبيبة ؟

– معناه ان هذا الجسم ستصرعه اللوعة ، فيهوي عند القبر .. ولا يبقى الا أن تستعين بالحفار فيفتح لك بابه وتجعل جثتي فيه .

– بل استعين بهذا الخنجر فأغمده في صدري كي لا اسمع مثل هذا .. انهذه اللوعة ستذهب غداً بعد أنتذرفي الدمع.

– ولكني احس بقشعريرة الموت تدب في جسدي .. وأرى امي ضحية الظلم والعظمة الجوفاء .. تفتح ذراعيها لتضمني اليها غداً عند .. الفجر .

فجعل يكفكف دموعه وهو يقول : ستضم اذن جسدين اثنين .. ويدل

الستار على هذه الحياة التي انفتحت اعيننا فيها على العذاب والشقاء .

– بل اذهب انا وتبقى انت .. ولكني اسألك بأسم هذا الحب ، ان تكتب على القبر هذه الكلمة : هنا ترقد ابنة يزدجرد في حضن امها .. ولكن لا .. لا تذكر اسم يزدجرد .. بل قل ابنة الملك وهذا يكفي .

فانطرح المسكين على فراشه وهو يندب حظه .. فمسحت دمعها ، وجعلت تناديه بالالفاظ العذبة وتقول : انها كلمة خطرت لي فلن اعود الى مثلها . وكأنها نسيت حزنها في تلك الساعة .

فتنهد قائلاً : الحياة اذا اردت الحياة ، والموت عندما تريدين الموت ... !

وسكت الاثنان .. وباتا ساكتين كأنهما نائمان حتى بزغ الفجر .

* * *

- ٨٩ -

كان الشهر المحرم شهر المفاوضات ، يبعث علي رجالا من جيشه ، ويبعث معاوية رجالا ينظرون في هذا الامر الذي انتهى اليه المسلمون ، ولكن هذه المفاوضات لم تثمر غير الفشل .

فلما كانت الايام الاخيرة من الشهر، دعا امير المؤمنين اربعة من رجال الرأي قائلا لهم : هذه هي المرة الاخيرة التي تسألون فيها معاوية ان يرجع عن ضلاله .. فان رجع فقد انتهى الامر والا فالقتال . وبين هؤلاء الاربعة عدي بن حاتم الطائي وزياد بن خصفة .

فدخلوا على معاوية فقال عدي : اتيناك ندعوك الى امر يجمع الله به كلمتنا وامتنا ونحقن به الدماء... ان ابن عمك سيد المسلمين.. افضلهم سابقة واحسنهم في الاسلام اثراً وقد بايعه الناس ولم يبق غيرك وغير من معك ، فاحذر يامعاوية فانا اخشى ان يصيبك واصحابك مثل يوم الجمل فتندم على ما كان منك .

قال : جئت يا عدي متهدداً ولم تأت مصلحاً ، انك من قتلة عثمان وانا ارجو ان تكون ممن يقتله الله به . فقال زياد : دع ما لا ينفع يامعاوية .

وقال يزيد بن قيس وهو في القوم : اتقِ الله ولا تخالفه فوالله ما رأينا في

الناس رجلا أعمل بالتقوى وازهد في الدنيا ، وأجمع لخصال الخير كلها من علي.

فقال معاوية : اما الجماعة فهي معنا ، واما الطاعة لصاحبكم فنحن لانراها لان صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وهو يزعم انه لم يقتله ، فليدفع الينا اذن قتلة عثمان ونحن نجيبكم الى الطاعة .

ثم دعا زياد بن خصفة فخلا به قائلا : يا اخا ربيعة : ان علياً قطع ارحامنا وقتل امامنا واني اسألك النصر عليه بعشيرتك ولك عليّ عهد الله وميثاقه اني اوليك امر مصر أو العراق .

قال : اني على بيّنة من امر ربي وما انعم الله عليّ فلن اكون عوناً للمجرمين ..

فقال لعمرو بن العاص : لانسمع غير جواب واحد من هؤلاء .

ثم دعا حبيب بن مسلمة ، وشرحبيل بن السمط ، ومعن بن يزيد بن الاخنس ، فقال انطلقوا الى علي فحدثوه بما تعلمون .

فخرج القوم واقبلوا الى مجلس علي فقال حبيب : اما بعد ، فان عثمان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله ، فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه فقتلتموه ، فادفع الينا قتلته ان زعمت انك لم تقتله .. ثم اعتزل امر الناس فيكون امرهم شورى بينهم ! فانتهره امير المؤمنين قائلا : اسكت ، انك لست اهلا لما تحدثنا به .

فقال شرحبيل : كلامي مثل كلام صاحبي فهل عندك جواب غير ما قلت ؟

– ليس عندي جواب غيره ، لقد ولّى المسلمون عثمان فعمل باشياء عابها الناس فساروا اليه فقتلوه، ثم جاؤوا اليّ فقالوالي: قم لنبايعك فان الامة لا ترضى الا بك، وانّا نخاف ، ان لم تفعل ان يتفرق الناس، ففعلت، فما راعني الا شقاق رجلين قد بايعاني ، هما طلحة والزبير ، وخلاف معاوية الذي لم يجعل له سابقة في دينه .. معاوية الذي لم يزل حرباً لله ورسوله هو وابوه حتى دخلا في الاسلام كارهين . وإني لأعجب من انقيادكم اليه ، وتركـكم كتاب الله وسنة نبيه واماتة الباطل . اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولـكم وللمؤمنين...

قال : تشهد ان عثمان قتل مظلوما ؟

ـ لا اقول انه قتل مظلوما او ظالما .

فقالوا جميعهم : من لم يزعم انه قتل مظلوما فنحن منه براء .

وانصرفوا راجعين الى معاوية .

فقال علي لمن حوله : لا يكن هؤلاء ، وهم على ضلال ، احرص منكم على الأمر ، وانتم على حق .

ثم انقضى الشهر ، فأمر امير المؤمنين مناديا فنادى : ياأهل الشام : لقد سألتكم ان ترجعوا الى الحق فلم تنتهوا عن طغيانكم ولم تجيبوا الى مادعوتكم اليه . ان الله لا يحب الخائنين ..

فاجتمع اهل الشام الى امرائهم ورؤسائهم ، وخرج معاوية وعمرو بن العاص ينظران في امر الجيش ، وكذلك فعل امير المؤمنين . وكان يقول لاصحابه: لاتقاتلوهم حتى يقاتلوكم ، فانتم بحمد الله على حجة ، وترككم قتالهم حجة اخرى ، فاذا هزمتموهم ، فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، واذا وصلتم الى رجال القوم ، فلا تهتكوا سترهم ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا شيئا من اموالهم ولا تهيجوا النساء وان شتمن اعراضكم ، ثم قال : عباد الله ، اتقوا الله ، وغضوا الابصار ، واخفضوا الاصوات ، واثبتوا للخيل واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، واصبروا ان الله مع الصابرين .. اللهم ، الهمهم الصبر ، وانزل عليهم النصر واعظم لهم الاجر .

وأصبح القوم فجعل علي على خيل الكوفة ، الاشتر ، وعلى المشاة ، عمار ابن ياسر وعلى جند البصرة سهل بن حنيف ، وعلى مشاتها قيس بن سعد وهاشم ابن عتبة المرقال ومعه الراية. وكان الاحنف واخوه عبدالله في الجيش فتركها ، وترك طائفة من الابطال احراراً في القتال .

وبعث معاوية الى الجناح الايمن ، ابن ذي الكلاع الحميري والى الجناح الايسر حبيب بن مسلمة والى المقدمة ابا الاعور السلمي ، وجعل عمرو بن العاص على خيل دمشق ، وعلى مشاتها مسلمة بن عقبة المري . وجعل على الناس جميعهم الضحاك بن قيس .

وخرج الناس في اليوم الاول من صفر ، على أهل الكوفة الاشتر وعلى اهل

الشام حبيب بن مسلمة . واقتتلوا يومهم قتالا شديداً ثم تراجعوا عند المســـاء والحرب بينهم سجال . ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عتبة في خيل ورجال، وخرج اليه من اهل الشام أبو الاعور السلمي وقد انطرحت جثث الرجال من الجيشين . وبرز في اليوم الثالث عمار بن ياسر ، يقابله من الناحية الاخرى عمرو ابن العاص .

فلما تلاحمت الصفوف قال عمار : يا أهل العراق ، أتريدون ان تنظروا الى من عادى الله ورسوله ، وبغى على المسلمين ... انه هذا ..

واشار الى ابن العاص وجعل يقول : اثبتوا له وقاتلوه . ثم قال لزياد بن النضر وهو على خيله : احمل على اهل الشام . ففعل ، وقاتله القوم وصبروا له .

ثم حمل عمار فازال عمراً عن موضعه واقبل المساء . فلما كان الغد ، مشى الى الساحة محمد ابن الحنفية « ابن علي» وخرج اليه عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جيشين عظيمين ودارت رحى الحرب . حتى كثر القتل وسالت دماء الابرياء .. فارسل عبيد الله الى ابن الحنفية يدعوه الى البراز . فهمز محمد فرسه يريد ان يفعل . فدنا امير المومنين منه فرده وبرز هو . ولكن عبيدالله تراجع خوفاً .

فقال محمد لابيه : لو تركتني لقتلته فكيف تبرز انت يا امير المؤمنين الى هذا الفاسق ؟

قال : كنت أرجو ان أؤدبه لو لم يرجع .

وجاء دور عبدالله بن عباس في اليوم الخامس وكان قائد جيش الشام الوليد ابن عقبة ، ، فاهان الوليد بني عبدالمطلب ، وسبهم ، فطلبه ابن عباس ليبارزه فأبى ، فقاتل ابن عباس قتالاً شديداً آثر فيه الموت على البقاء .

وانقضى الاسبوع كله ، والنصر يلمع على رايات علي ثم يلمع على رايات معاوية ، دون ان يبلغ احدهما غايته .

فقال امير المؤمنين عندئذ لقومه : سنناهض غداً بأجمعنا هؤلاء القوم . وقام فيهم خطيباً ، يدفعهم الى التضحية ، ويستحث هممهم وقضى ليلته وهو يطوف بين الصفوف ويلمس بيديه السلاح الذي يحملون حتى كان الصباح . فزحف

معاوية بأهل الشام ، ووقفت العشائر في المواضع التي عينت لها على كل عشيرة منها رئيس وفي جيش علي ، طائفة من هذه العشيرة ، يقابلها في جيش معاوية طائفة اخرى من العشيرة نفسها . وقد عرف امير المؤمنين مواقف العشائر في اهل الشام ، فقال لبني الازد ، الذين يحاربون تحت لوائه : اكفونا الازد الذين يحاربون تحت لواء معاوية . وقال لخثعم : اكفونا خثعم . وامر كل قبيلة ان نكفيه اختها من جيش الشام. ثم امرت الصفوف فزحفت الى الموت.. ونشرت المنية جناحيها فوق المتحاربين حتى اقبل المساء ، دون ان يستطيع احد الفريقين ان يقول : انه غالب .

فلما كان صباح الخميس ، صلّى امير الموءمنين بالناس عند الفجر وتقدم جيشه الى ساحة القتال وهو موءمن بان النصر سيتم له . وكان على ميمنته عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، وهو من ابطال المسلمين ، وعلى ميسرته ابن عمه عبدالله بن عباس والناس على راياتهم التي عرفت ، وامير الموءمنين في القلب ، وحوله أهل المدينة ، بين اهل البصرة والكوفة ، وطائفة من بني خزاعة وكنانة .

وقد رفع معاوية قبة عظيمة ألقى عليها الثياب ، وبايعه اكثر اهل الشام على الموت ، وأحاطت بقبته الخيل .

واشتد القتال .. ثم رأى القوم عبدالله بن بديل يمشي برجال الجناح الايمن ، الى ميسرة معاوية وعليها حبيب بن مسلمة ، مشي جبار قاهر ، وهو يحمل سيفين يقتل كل من يتصدى له من جيش العدو . حتى انتهى الى حبيب وهو يحرض اصحابه .

فدفع جيشه بصدور الخيل واكرههم على التراجع عند الظهر الى قبة معاوية وكان يقول وهو على فرسه : الا ان معاوية ادعى ما ليس له ، ونازع الحق اهله وعاند من ليس مثله واستعان عليكم بالاعراب الذين زين لهم الضلال وزرع في قلوبهم حب الفتنة .. فقاتلوا هؤلاء الطغام الجفاة ولا تخشوهم .. قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم وينصركم عليهم .

وكان علي يقول وهو في القلب :

يا رجال الاسلام ، سوّوا صفوفكم كالبنيـــان المرصوص ، وقدموا الرجال الذين يلبسون الدروع ولا تتراجعوا حتى تفرقوا شمل عدوكم . واما الرايات فلا تميلوها ولا تزيلوها ، ولا تجعلوها الا بايدي شجعانكم واستعينوا دائماً بالصبر .

وسمع يزيد بن قيس الارحبي يقول : ان المسلم من سلم في دينه ورأيه وان هؤلاء القوم لا يقاتلوننا على اقامة دين ضيعناه واحياء حق أمتناه ، انهم يقاتلونا على هذه الدنيا ليكونوا ملوكا فيها . . .

وكانت الصفوف قد انفرجت لعبدالله بن بديل ، عند القبة ، ثم لم تلبث ان تلاصقت وأحاطت برجاله من كل ناحية . ومعاوية يقول لأولئك الذين بايعوه على الموت: اثبتوا في وجه هذا الرجل الذي فرق الناس. وهوت السيوف. . ووضعت الاسنة في الظهور والصدور فأمسى عبدالله داخل نطاق ضيق لا يستطيع النجاة منه ، ولم تكن الا ساعة حتى تفرق اصحابه من اهل العراق ولم يبقَ منهم غير ثلاثماية من الرجال .

فقال علي لسهل بن حنيف : رجالك يا سهل. فمشى ذلك القـــائد برجاله ، ولكن اهل الشام ، كانوا كثاراً ردوه الى المكان الذي زحف منه . ثم هزموا اهل اليمن، القائمين بين القلب، موقف امير المؤمنين وبين الجناح الأيمن وارجعوهم الى الوراء .

فصاح علي برجاله قائلاً : الحقوا بي الى الجناح الايسر .

وكان بنوه الثلاثة الحسن والحسين ومحمد وراءه والسهام تمر بين عاتقه ومنكبيه واولئك البنون الاطهار يحاولون ان يجعلوا اجسامهم دروعاً له . حتى بصر به رجل يقال له احمر ، هو من موالي عثمان .

فمشى اليه يريد ان يقتله . فتصدى له مولى لعليّ فقتل .

فدنى أمير المؤمنين من احمر والنار تتقد من عينيه ومد يده الى جيب درعه فجذبه ثم رفعــه وضرب به الارض . ودنا منه اهل الشام في تلك الساعة . فما زاده دنوهم الا قوة . . فقـــال له ابنه الحسن : ارجع يا أمير المؤمنين الى هؤلاء القوم من اصحابك .

فابتسم قائلاً : ان اباك والله لا يبـــالي أوقع عــلى الموت ام وقع الموت

عليه !!! ...

وزحف الى الامام حتى وصل الى مواقف بني ربيعة فنـــادى بصوت عال وهو غير مكترث لما فيه الناس : لمن هذه الرايات ؟

قالوا : لربيعة .

قال : انها رايات عصم الله اهلها فثبت اقدامهم .

وكان الحصين بن المنذر بالقرب منه ، وهو صاحب راية ، فقال له : يا فتى ، ألا تدني رايتك هذه ذراعاً ؟

قال: بلى والله عشر اذرع. وادناها حتى استوقفه أمير المؤمنين. ثم ارتفعت اصوات بني ربيعة يقول بعضهم للبعض الآخر : يا ربيعة .. ان اصيب فيكم أمير المؤمنين وفيكم رجل حي افتضحتم بين العرب ... !!! فقـــاتلوا في ذلك اليوم قتالاً ما قاتلوا مثله قط .. وبينما القوم على ما رأيت ، مر الاشتر بعـلي ، وهو يريد الميسرة ليمنع الفرار ، فقال له : يا مالك ..

قال : لبيك يا أمير المؤمنين !

قال : ائتِ هوءلاء القوم فقل لهم : أتفرون من الموت الى الحياة التي لاتبقى لكم ؟ فركض فرسه فاستقبل الناس المنهزمين ، فأعاد عليهم كلام علي ثم قال : انا الاشتر . اليّ اليّ ... فاقبل الناس ، فقال اين بنو مذحج ؟

فأقبلت مذحج فقال : ما أرضيتم ربكم ولا نصحتم له في عدوكم ... انتم ابناء الحرب ، واصحاب الغارات ، وفرسان الطراد فاصدقوا عدوكم اللقاء ان الله مع الصادقين . فقالوا جميعهم : الى الموت في سبيل أمير الموءمنين ...

واستقبلته طائفة من شباب همدان ، قتل منهم احد عشر رئيساً من اصحاب الرايات فقالوا له : ليت لنـــا من العرب من يحالفنـــا على الموت فنرجع الى الساحة ..

فقال : انا حليفكم على ان لا نرجع ابداً حتى نظفر او نموت . وهمزوا خيلهم فلم يرَ الاشتر كتيبة الا فرقها ولا جمعاً الا رده حتى اعاد الصفوف جميعها الى قبة معاوية بين صلاة العصر والمغرب . وكان عبـدالله بن بديـل ورجاله قد ابصروا الموت وهم يدفعون القوم بالسيوف .

فلما تفرق عنهم اهل الشام ، رأوا اخوانهم ، فقال عبدالله : ما فعل أمير المؤمنين ؟

فقال الأشتر : هو حي في الميسرة يقاتل الناس ..

قال : الحمد لله قد كنت ظننت انه قد هلك وهلكتم ... امشوا الى القبة فوالله لا ارجع حتى اضع هذا السنان في صدر معاوية .

قال : لا تفعل واثبت مع الناس فذلك خير لك . فأبى ومضى يريد معاوية والسيفان في يديه ...

وحول معاوية جبال من الرجال . فجعل يقتل من يدنو منه حتى قتل اكثر من عشرين فارساً وكاد ينتهي الى معاوية نفسه !!!

فنهض اليه الناس من كل ناحية وأحاطوا به وبطائفة من اصحابه ، فقاتل قتال الأسد الجريح حتى قتل .

وكان معاوية قد رآه وهو يقاتل فقال : أترونه كبش القوم ؟ اني لا اعرفه . فلما قتل ، دنا منه ، فلما ابصره عرفه فقال : هذا عبدالله بن بديل والله لو استطاعت نساء خزاعة لقاتلتنا ...

واقبل الأشتر عندئذ بأبطال قومه ، فأزال اهل الشام عن مواضعهم حتى الحقهم بالصفوف التي تحيط بالقبة ، ثم حمل عليهم حملة اخرى فصرع اربعة صفوف. فدعا معاوية فرسه فركبه وهم بالفرار .

فقال له عمرو بن العاص : اليوم صبر وغداً فخر .

فقال : صدقت وسأصبر ..

ورجع جناح علي الايمن الى موقفه الاول ، فطابت نفس أمير المؤمنين ، وجعل يطوف في القوم ويدعوهم الى الصبر . ثم بلغه بعد لحظة ، ان عماراً بن ياسر ، قتل وهو يقتحم الخيل ، والسيف في يده – واسم الله تردده شفتاه. فاسود وجهه واختلجت عيناه .. ولولا عزة الملك ، وحرمة الخلافة لبكاه .. ثم قال لناقل الخبر : أكنت تحارب في صفه؟

– نعم يا أمير المؤمنين .

– وماذا كان يقول ؟

ليت لنا من العرب من يحالفنا على الموت فنرجع الى الساحة ..

فقال : انا حليفكم على ان لا نرجع ابداً حتى نظفر او نموت . وهمزوا خيلهم فلم يرَ الاشتر كتيبة الا فرقها ولا جمعاً الا ردّه حتى اعاد الصفوف جميعها الى قبة معاوية بين صلاة العصر والمغرب . وكان عبدالله بن بديل ورجاله قد ابصروا الموت وهم يدفعون القوم بالسيوف .

فلما تفرق عنهم اهل الشام، رأوا اخوانهم، فقال عبدالله : مافعل امير المؤمنين؟

فقال الاشتر : هو حي في الميسرة يقاتل الناس

قال : الحمد لله قد كنت ظننت انه قد هلك وهلكتم ... امشوا الى القبة فوالله لا ارجع حتى اضع هذا السنان في صدر معاوية .

قال : لاتفعل واثبت مع الناس فذلك خير لك . فأبى ، ومضى يريد معاوية والسيفان في يديه ...

وحول معاوية جبال من الرجال . فجعل يقتل من يدنو منه حتى قتل اكثر من عشرين فارساً وكاد ينتهي الى معاوية نفسه !! فنهض اليه الناس من كل ناحية وأحاطوا به وبطائفة من اصحابه ، فقاتل قتال الأسد الجريح حتى قتل .

وكان معاوية قد رآه وهو يقاتل فقال : أترونه كبش القوم ؟ اني لااعرفه . فلما قتل ، دنا منه ، فلما ابصره عرفه فقال : هذا عبدالله بن بديل والله لو استطاعت نساء خزاعة لقاتلتنا ..

واقبل الاشتر عندئذ بأبطال قومه ، فأزال اهل الشام عن مواضعهم حتى الحقهم بالصفوف التي تحيط بالقبة . ، ثم حمل عليهم حملة اخرى فصرع اربعة صفوف . فدعا معاوية بفرسه فركبه وهمّ بالفرار .

فقال له عمرو بن العاص : اليوم صبر وغداً فخر .

فقال : صدقت وسأصبر ..

ورجع جناح علي الايمن الى موقفه الاول ، فطابت نفس امير المؤمنين ، وجعل يطوف في القوم ويدعوهم الى الصبر . ثم بلغه بعد لحظة ، ان عماراً بن ياسر ، قتل وهو يقتحم الخيل ، والسيف في يده واسم الله تردده شفتاه . فاسود وجهه

واختلجت عيناه .. ولولا عزة الملك وحرمة الخلافة لبكاه .. ثم قال لناقل الخبر : أكنت تحارب في صفه ؟

– نعم يا امير المؤمنين .

– وماذا كان يقول ؟

– سمعته يقول قبل ان ركض فرسه : اللهم ، اني لو اعلم ان رضاك في ان اقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته . اللهم اني لو اعلم ان رضاك في ان اضع ظبة سيفي في بطني ثم انحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت .. ألا واني لا اعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين .

– ثم ماذا ؟

ثم همز فرسه وكان يقول : من يبتغي رضوان الله ربه ولا يرجع الى مال او ولد فليتبعني ، فأتته عصابة من الابطال ، فقال لها : اقصدوا بنا هوءلاء القوم الذين يطلبون بدم عثمان وهم والله ما ارادوا الطلب بدمه ، ولكنهم قوم ذاقوا الدنيا وعلموا ان الحق اذا لزمهم ، حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه ...!

فتمتم علي قائلاً : رحم الله الرجل الصالح الذي آثر آخرته على دنياه ..

والتفت الى من حوله من ربيعة وهمدان فقال : انتم درعي ورمحي فسيروا معي ..

فدفعوا الخيل ، وتقدمهم هو على بغلة له وقد حملوا حملة رجل واحد ، فلم يبق صف من صفوف اهل الشام الا تضعضع . ولفت نظر علي ، وهو في ذلك الاتون الملتهب ، فتى في زهرة عمره ، على مهر له احمر ، يطعن الصدور امام أمير المؤمنين ، ويفرق الناس عنه ، وهو ساكت لا ينتسب ولا يقول كلمة ...

فقال لربيعة : أهو من فتيانكم ؟

قالوا : لا !

فقال لهمدان : أهو منكم ؟

قالوا : لا نعرفه ولم نره من قبل !!

فناداه قائلاً : ارجع ايها الفتى ولا تقذف بنفسك الى الهوة . فنظر اليه وابتسامة الالم على شفتيه ، ثم قال : لقد طاب لي الموت يا أمير المؤمنين ..

قال : ارجع الى صفك ..

قال : لا صف لي !

- اذن فكن مع ربيعة ..

- أؤثر ان اكون حراً ...

وغاص في اللجة حتى كاد يحتجب بين الصفوف !

فقال علي : انقذوا الفتى فستمزقه السيوف .

فتبعه اربعة من همدان يضربون القوم وراءه ..

وتقدم علي ، من الناحية الاخرى ، مع قومه حتى بلغوا قبة معاوية وأمير المومنين يقول : اقتلهم ولا ارى معاوية ، الجاحظ العين العظيم الحاوية .

ثم رفع سيفه وهو عند القبة فنادى : يا معاوية ، علام يقتل الناس بيننا ؟.. هلمّ احاكمك الى الله فأينا قتل صاحبه استقام له الامر .

فقال عمرو بن العاص لمعاوية : انصفك عليّ .

فقال له : اما انت فلم تنصف .

- لماذا ؟

- لانك تعلم انه لا يبرز احد الى علي الا قتله !

- ولكن لا يليق بك ترك البراز .

قال : لقد عرفت الآن انك تطمع بالامارة بعدي

واختلط بالناس يدعوهم الى الدفاع ، ولم يبرز اليه . وقد رأى أمير المومنين النصر ، فجعل يقاتل ويقول لرجاله : لا ترجعوا حتى تبلغوا الغاية من هوءلاء .

وكان هاشم بن عتبة في صف آخر يقول للناس وقد اقبل المساء : من كان يريد الله والدار والآخرة فليتقدم .. ان هوءلاء على ضلال وانكم على حق ، فاحملوا . ففعلوا ما امرهم به ، وفرقوا الكتائب ، حتى التقوا عند المغرب كتيبة التنوخ ، فقتل هاشم تسعة من رجالها ثم تغلغل بين صفوفها فطعنه الحرث ابن المنذر التنوخي فسقط .

ومر امير المومنين بكتيبة من اهل الشام لا تترك مواقفها ، فقال : من

هوءلاء ؟

قالوا : غسان .

قال : ان هوءلاء لا يزولون الا بطعن وضرب يفلق الهام .. اين اهل النصر والصبر طلاب الاجر ؟

فأتته طائفة من عشائر كثيرة ، فقال لابنه محمد: تقدم مع هوءلاء ، نحو هذه الراية مشياً على مهل، حتى إذااشرعت في صدورهم الرماح فامسك حتى يأتيك امري. ففعـــل محمد ، ثم اتاه امر ابيه فحمل عليهم فأزالهم عن موقفهم . ومر الأسود بن قيس المرادي في تلك الساعة بعبدالله بن كعب وهو من عشيرته فرآه صريعاً يكاد يلفظ الروح . فنزل اليه وقال : لقـــد عز علي مصرعك ، أوصني رحمك الله .

قال : اوصيك بتقوى الله ، وأن تناصح امير الموءمنين وتقاتل معه هوءلاء المتمردين حتى تظفر أو تلحق بالله ، وقل له : قاتل على المعركة الى الصبـــاح تجعلها خلف ظهرك فان من يصبح غداً والمعركة خلف ظهره كان الظافر .. ثم لم يلبث حتى مات . فأقبل الاسود الى امير الموءمنين فخبّره فقال : رحمـه الله ، جاهد عدونا في الحياة ونصح لنا في الوفاة. ثم رفع صوته قائلاً: لا ترجعوا ايها الناس حتى نأذن لكم

واقتتلوا تلك الليلة كلها الى الصباح . تطـاعنوا حتى تكسرت الرماح وتراموا حتى نفد النبل . فلجأوا الى السيوف ، وعلي ينتقل من الجناح الأيمن الى الجناح الايسر ويأمر كل كتيبة أن تقدم على الكتيبة التي تليها ، حتى اصبح والمعركة كلها خلف ظهره .

وابن عباس في الميسرة ، والاشتر في الميمنة وهو يقـاتل ويقول لاصحابه : ازحفوا قيد هذه القوس ، حتى مل الناس الاقدام وهو لا يمل ! فلما رأى ذلك دفع رايته الى حيان بن هوذة النخعي ، وخرج يسير في الكتـائب ويقول : من يشتري نفسه ويقاتل مع الاشتر ؟

فانضمت اليه طوائف النـاس . فرجع الى المكان الذي كان فيه وقال لهم : لقد كتب لنا النصر . وضرب وجه فرسه ثم قال لصاحب الراية : اقدم بها .

وحمل على القوم ، وحملوا معه ، فضرب أهل الشام ضرب بطـــل تتنحى السيوف عنه حتى انتهى بهم الى المعسكر .

وقتل هنالك حامل رايته ، فأمده علي بالرجال . وكان عمرو بن العاص في تلك النـــاحية ، وقد رأى ان أمر أهل العراق قد اشتد وان الشام ستخسر فمشى يفتش عن معاوية حتى رآه فقـــال : هل لك في أمر يزيدنا اجتماعاً ويزيدهم فرقة ؟

قال نعم فما هو ؟

قال : نرفع المصاحف ثم نقول : هذا حكم بيننا وبينكم ، فان أبى بعضهم ان يقبلها ، رأيت فيهم من يقول : ينبغي لنا ان نقبل ، وهذه هي الفرقة !

– وأن قبلوا جميعاً ؟

– رفعنا القتال عنا الى أجل .

قال : افعل وتعجل في الامر .

فرفع اهل الشام المصاحف على الرماح وقالوا : هذا كتاب الله عز وجل ، حكم بيننا وبينكم .. من لثغور الشام بعد اهله ، من لثغور العراق بعد اهله ...

فلما رآها الناس قال بعضهم : نجيب الى كتاب الله .

فقام علي فيهم خطيباً فقال : يا عباد الله ، امضوا على حقكم ، وقتال عدوكم فان معاوية وعمرا ، وابن مسلمة وعبدالله ابن ابي سرح ، والضاحك ابن قيس ، ليسوا باصحاب دين ولا قرآن ... انا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم اطفـــالا ورجالا فكانوا شر اطفال ، وشر رجال ... ويحكم والله ما رفعوها الا خديعة ووهناً ...

قالوا : لا يسعنا ان ندعى الى كتاب الله فنأبى .

قال : اني انما اقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب فهم قد عصوا الله فيما امرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه .

فقال مسعر بن فدك التميمي، وزيد بن حصين الطائي ، وقد أمسيا بعد ذلك من الخوارج ، يا علي ، أجب الى كتاب الله اذا دعيت اليه ، والا دفعناك الى القوم او نفعل بك ما فعلنا بابن عفان .

قال : احفظوا عني نهيي اياكم ، واحفظوا مقالتكم لي ، فان تطيعوني فقاتلوا وان تعصوني فافعلوا ما بدا لكم .

قالوا : ابعث الى الاشتر ليكفّ عن القتال .

فبعث اليه يزيد بن هانيء يستدعيه .

فقال الاشتر : ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغي لك فيها ان تزيلني عن موقفي اني قد رجوت ان يفتح الله لي . فرجع يزيد فخبّر علياً .

فارتفعت اصوات القوم وجعلوا يقولون : ما نراك الا أمرته بأن يقاتل ..

قال : بل امرته بأن يرجع وانتم تسمعون ..

قالوا : ابعث اليه فليحضر والا اعتزلناك ..!

فقال : ويلك يا يزيد ، قل له ان الفتنة قد وقعت فليأت .

فنقل يزيد ذلك الى الاشتر فقال : ألرفع المصاحف ؟

– نعم .

– والله قد ظننت ان الفتنة ستقع.. انها مشورة عمرو بن العاص ابن العاهر ألا ترى الفتح يا ابن هانيء، ألا ترى ما يلقون.. ألا ترى ما صنع الله لنا .. لا . لن ادع هوءلاء وانصرف عنهم .

– وهل تحب ان تظفر ، ويسلم أمير المؤمنين الى عدوه ؟

فتردد في الجواب ثم قال : لا والله .. سبحان الله !

وأقبل اليهم فقال : يا أهل العراق ، يا اهل الذل والوهن .. أحين علوتم القوم وظنوا انكم لهم قاهرون ، رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها وهم والله قد تركوا امر الله ... امهلوني ساعة فقد احسست بالفتح .

قالوا : لا !

– امهلوني لحظة فاني قد طمعت بالنصر .

– دعنا منك يا اشتر ، فقد قاتلناهم لله ، وندع قتالهم لله .

قال : خدعتم ، ودعيتم الى وضع الحرب فأجبتم ، يا اصحاب الجباه السود.. كنا نظن صلاتكم زهداً في الدنيا وشوقاً الى لقاء الله ، انكم لا ترون بعدها عزاً ابداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون . فسبوه ، وسبهم ، ثم ضربوا وجه فرسه

سياطهم ، وضرب هو وجه افراسهم بسوطه ، فصاح به وبهم علي : كفوا ، ولنسمع ما يقوله الناس .

فقالوا : رضينا ان نجعل القرآن حكماً بيننا وبينهم .

فأقبل الأشعث بن قيس فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد رضي الناس بما دعوهم اليه فابعث بي ان شئت الى معاوية لأسأله عما فعل .

قال : أذهب .

فأتى الأشعث معاوية فقال له : لأي شيء رفعتم هذه المصاحف ؟

– لنرجع نحن وانتم الى ما امر الله به في كتابه .

– وكيف ذلك ؟

– تبعثون رجلاً ترضون به ، ونبعث نحن رجلاً نرضى به ، ونأخذ عليهما ان يعملا بما في كتاب الله ثم نتبع ما يشيران به .

قال : هذا هو الحق .

ورجع فاعاد الى امير المومنين قول معاوية .

فقال الناس : قد رضينا فليختر معاوية رجلاً من اهل الشام .

وبلغ القوم ذلك فقال الاشعث : اما نحن فقد اخترنا ابا موسى الاشعري .

وكذلك قال القوم الذين خالفوا امير المومنين في رأيه .

فقال علي عندئذ : عصيتموني في اول الامر فلا تعصوني الآن .

– وماذا ترى ؟

– لا ارى ان أولي ابا موسى .

فقال الاشعث ، وزيد بن حصين ، ومسعر بن فدكي : لا نرضى الا به فهو قد حذرنا ما وقعنا فيه .

– ولكني لا اثق به ، فهو قد فارقني وخذل الناس ، ثم هرب مني حتى أمنته بعد اشهر ، اني اولي ابن عباس ..

قالوا : والله ما نبالي انت كنت ام ابن عباس .. لانريد الا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ..

– اذن اختار الاشتر ..

– ومن سعر الأرض غير الاشتر !
قال : قد أبيتم الا أبا موسى ?
– نعم !
– اصنعوا اذن ما اردتم ولكن احفظوا قولي .
فبعثوا الى ابي موسى وقد اعتزل القتال يقولون له : قد اصطلح الناس
قال : الحمد لله .
– وقد جعلوك حكما ..
فقال . انا لله وانا اليه راجعون .

وجاء حتى انتهى الى معسكر علي . فدخل الاحنف بن قيس على علي فقال : يا امير الموءمنين ، لقد خبرت ابا موسى فوجدته ضعيف الرأي متردداً في امره لا يصلح لهوءلاء القوم ، فابعث رجلا يدنو منهم حتى يصير في اكفهم ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم ، فان ابيت ان تجعلني حكما فاجعلني ثانياً ، او ثالثاً فان ابن العاص لا يعقد عقدة الا حللتها ولا يحل عقدة الا عقدت اخرى احكم منها .. فأبى الناس الا أبا موسى . فقال : ان ابيتم الا ابا موسى فاجعلوا وراءه الرجال ... فلم يسمعوا له .

وفي تلك الساعة اقبل عمرو بن العاص ، الى مجلس علي ، وحضر وجوه الناس ليكتبوا التحكيم ، فكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه امير الموءمنين .
فقال عمرو : انه اميركم وليس اميرنا .
فقال الاحنف لعلي لاتمحُ اسم امير الموءمنين فاني اخاف ان محوتها ان لا ترجع اليك ابداً .. لاتمحها وان اقتتل الناس .
قال : لقد محا النبي بيده اسم « رسول الله » يوم الحديبية وانا افعل الان مثلما فعل .

ثم محاه ، فكتبوا : هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان ، علي على اهل الكوفة ومن معهم ، ومعاوية على اهل الشام ومن معهم ، اننا ننزل عند حكم الله وكتابه ، وان لا يجمع بيننا غيره ، وان كتاب الله

...نا من فاتحته الى خاتمته ، نحيي ما احيا ، ونميت ما امات فما وجد الحكمان
في كتاب الله ، ـ وهما ابو موسى الاشعري وعمرو بن العاص ـ عملا به ، وما لم
يجداه في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . واخذ الحكمان من علي
ومعاوية ومن الجندين ، من العهود والمواثيق انهما آمنان على انفسهما واهليهما
والامة لهما انصار على الذي يتقاضيان عليه وعلى ابي موسى وعمرو بن العاص
عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الامة لا يردانها في حرب ولا فرقة حتى
يعصيا ، وأجل القضاء الى رمضان وان أحبا ان يؤخرا ذلك أخراه ، وان مكان
قضيتهما مكان عدل بين اهل الكوفة واهل الشام .

وشهد بعض رجال علي وبعض رجال معاويه وقيل للأشتر ليكتب فقال :
لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي ان فعلت ، ثم قال : ألم تروا اني كنت
ظافراً ؟

فقال الاشعث : والله ما رأيت ظفرا هلمَّ الينا لارغبة بك عنا .

فأجابه قائلاً : بلى والله ، الرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة ،
لقد سفك الله بسيفي دماء رجال ما انت خير عندي منهم . فغضب ، ولكنه
ظل ساكتاً ... ثم خرج بالكتاب يقرؤه على الناس .

فلما انتهوا من ذلك قيل لعلي : ان الاشتر لا يقر بما كتب ولا يرى الا قتال
القوم وقد ترك امرك .

فقال : وانا والله ما رضيت ولا أحببت ان ترضوا ، وأما ان الاشتر ترك
امري وما انا عليه فذلك امر لا اصدقه .. ياليت فيكم مثله اثنين .. ياليت فيكم
مثله واحداً يرى في عدوي ما أرى .

ورجع الناس عن صفين . والافكار مضطربة ، وفي القوم طوائف غير
راضية بما جرى ، كما سيجيء وكان ذلك يوم الاربعاء ، في اليوم الثالث عشر من
شهر صفر في السنة السابعة والثلاثين للهجرة .

* * *

احملوا الجرحى الى الخيام ، وادفنوا القتلى ، قالها امير المؤمنين ، والكآبة على جبينه وفي عينيه ، والحزن على اولئك الابطال الذين صرعهم السيف ، يملأ نفسه . ثم قال لفتيان همدان : ماذا جرى لذلك الفارس الفتى الذي كان يقتحم الصفوف امامي وانا عند قبة معاوية ؟

فقال احدهم : تخطفته السيوف يا امير المؤمنين كما قلت .

- وعرفت من هو ؟

- سنعثر على جثته فيعرفه القوم .

قال : نصحت له بان يرجع فلم يفعل ، فلهفي على الفتيان الأبطال الذين تحصدهم الحرب ... اخرجوا وادفنوا المسلمين الصادقين . فخرج القواد وشيوخ العشائر يتبينون الجثث ، وجعلت كل عشيرة تحمل ضحاياها الى المكان الذي تختار . واثنان من بني همدان ، يبحثان عن الفتى الغريب الذي قتل بين صفوف اهل الشام ، وهما ينظران اليه . حتى أبصرا جثته بين طائفة من جثث الاعداء .

فقال احدهما للآخر : لقد قتل اثني عشر رجلاً قبل ان يسقط ، ثم حملا الجثة الى المعسكر ليراها الناس . والساحات بين الخيام تغص بالجثث والجنود . واذا هنالك رجل كهل ينادي : لاتدفنوا القتلى فقد ضيعت جثة فتى وارجو ان اجدها الساعة . وهو على محفة يحملها اربعة رجال والى جانبه فيها قوسه وجعبة سهامه والدموع تجول في عينيه .

وجعلوا يطوفون به ، حتى انتهوا الى الهمدانيين، وعند اقدامهما جثة فتاهما الذي عرفت ، فصاح الرجل قائلاً : انزلوني فهذه جثته .

ثم جلس على الارض وأخذ رأس الفتى بين يديه وجعل يقول : آثرت الموت على الحياة وانت في فجر العمر فلا كانت حلوان . وكان يبكي كأن الفتى قطعة من قلبه .

فقال الناس : من هو القتيل ومن انت ؟

قال : احملوا الفتى الى الاحنف بن قيس تعرفوا كل شيء .

فقال احدهم : ان الاحنف في خيام قومه بني تميم وهو يبكي اخاه عبدالله الذي قتل هذا الصباح !!

فاطرق ملياً ثم قال : احملوني ، فقد قتل فارس تميم وقتـل ولده في ساعة واحدة . فحمله رجاله والجثة وراءهم .

وكان الاحنف يرثي اخاه بالدموع الغزيرة والكآبة الصامتة . وقد قتل من ابناء قومه في ذلك اليوم ، بضعة وعشرون رجلا . فلما انتهى اليــه ان جثه اخرى حملت الى الخيام ، خفق قلبه وأحس ان الارض تدور به .

ثم قيل له : ادفن الوالد والولد في حفرة واحدة . فحنى ذلك البطـل العظيم رأسه ، وعرف ان الجثة جثة طارق .. ثم شعر بضعفه .. فمسح دموعه ونهض قائلا : طارق ابن اخي انه في حلوان .

وكان صاحب المحفة بين يديه ، فقال : لقد كان في حلوان يامولاي كما تقول. امشى دون ان يلتفت اليه ، واستقبل الجثة فأبصر طارقاً .. فوقف يرثيه .

يا ابن اخي ، قتلت وقتل ابوك في صفين وانتما تدافعان عن الحق ..فلتستقبل يم شهيديها النازلين الى القبر ، كما كانت تستقبلهما وهما راجعان من ميــادين الظفر ... طارق ... ان موتك فخر للعشيرة فعار على بني تميم ، وانا سيدهم ، ان يبكوك ، ان الرجال في ساحات القتال لاتعرف البكاء ..

وأومأ الى الناس قائلا : ادفنوا شهداء بني تميم جميعهم في هذه الساعة وابنوا لحد العشيرة كما بنوا .

ورجع الى خيمته وهو ينظر الى الارض ، وشفتاه ترتجفان .. كأنه يخاطب القتيلين . ثم دعا صاحب المحفة فقال له : كنت في حلوان ؟

– نعم ايها الأمير .

– وممن انت ؟

– من بني رياح واسمي صالح بن حجر .

– بنو رياح سكان حلوان وجلولاء .. وكيف عرفت طارقاً .

– رأيته في حلوان يا مولاي مع زوجته الحسنـــاء المنكودة الحظ ، التي

لفظت الروح وهي بين يدي .

قال : خبرني كل شيء فان طارقاً حي في هذا الصدر .

قال : عرفت أخاك قبل ان اعرف ولده وكان ذلك في فتح خانقين ، وقد انقذني من الموت .

واومأ الى رجله المقطوعة قائلاً : وهذا أثر المعركة في ذلك اليوم .

– وانت في حلوان منذ الفتح ؟

– اجل ، ففي مساء يوم ، اقبل طارق واليتيمة ، فدعوتها الى منزلي وانا لا اعلم شيئاً عنها ، ولكني عرفت في ذلك الليل ان الله شرفني بوجود تميمي هو ابن الحسن الي .

– وبعد ذلك ؟

– ارادت اليتيمة ان تزور قبر امها في صباح اليوم الثاني ، ففعلنا ، وبينا هي عند باب القبر ، فاجأها الموت كأنه كان كامناً لها وراء الصخور القائمة بالقرب منه .

– ولم تقل شيئاً ؟

– بلى ، رددت كلمة قالتها لزوجها عند الصباح .

– ما هي؟

– اجعل جثتي فوق عظام المرأة التي ولدتني .

– وكيف احتمل طارق موت زوجته ؟

– لا ادري يا مولاي ، ولكن خيل الي ان صمته الرهيب الدائم ، كان مظهراً من مظاهر الجنون ...

– وهل ذكر يزدجرد ؟

– لم يذكر احداً ولم يرثِ زوجته بكلمة واحدة .

– ثم ماذا ؟

– ثم قضى بضعة ايام ساكتاً كأنه ابكم وهو يصارع الحمى التي انشبت مخالبها فيه ، وانا أحاول ان اعيده الى الرشد فلم استطع حتى كان اليوم السابع فسمعت صوته !!

– وماذا قال :
– طلب اليّ ان احفر على باب القبر كلمة أملاها عليّ ففعلت ، ثم امرني عند
المساء ان اتهيأ للرحيل قائلاً : لم يبق الا ان الحق بأمير المؤمنين ..
– وكانت الاخبار قد انتهت الى حلوان ان أمير المؤمنين في صفين ؟؟
– نعم يا مولاي ، وقد قام في ذهني في تلك الساعة ، انه يريد ان يقتحم
الخيل دفاعا عن علي ، ثم يغوص في صفوف اهل الشام ليقتلوه ، وقد صح ما
خطر لي .
– ولكني لا اغفر لك هذا الخطأ .
– اي خطأ يا مولاي ؟
– لقد كنت قادراً على المثول بين يدي قبل ان يخوض طارق المجال .
– لا يا مولاي ، لم اكن قادراً على ذلك لاننا بلغنا صفين والحرب قائمة .
اليوم ؟
– عند الفجر يا مولاي ولم يكن هنالك امل بالوصول اليك وانت تدافع
الخيل ، كما ان طارقاً لم يرد الا ان يدفع مهره الى الصفوف ، وكان يسأل الناس
عن أمير المؤمنين حتى دلوّه عليه .
وانت ؟
– جلست في محفتي في الجانب الايسر ، وصرعت بالسهام التي كانت لي ،
.. عدة رجال من اصحاب ابن مسلمة .
فرفع عينيه الى العلاء كأنه يخاطب اخاه قائلاً : لقد اراد الله يا عبدالله الا
[illegible] عليك صفو العيش ، فصرعك الموت وانت واثق بان طارقاً حي ..
وغلبت عاطفة العم عندئذ، ارادة البطل الحديدي، فجعلت الدموع تنحدر
من عينيه وهو لا يكفكفها ولا يطرف له جفن حتى جف الدمع ..
ثم قال : اتريد الرجوع الى حلوان ؟
– لا يطيب لي عيش يا مولاي وانا فيها ..
– وتقيم بيننا ؟
– افعل اذا اراد مولاي !

فتمتم قائلا : ابق ، فكلما نظرت اليك ذكرت طارقاً وعبدالله .

ونهض وهو يقول : ارحم اللهم الوالد والولد ، وجميـــع التميميين الذين شرفوا قومهم .

ومشى الى خيمة علي ، كأن اخاه وابن اخيه لم يقتلا .

وكان الهمدانيون قـــد خبروا امير المؤمنين بموت ذلك الفتى الغريب ، واطلعوه على نسبه .

فلما انتهى الاحنف الى خيمته ، أقبل يعزيه ويذكر بلاء عبدالله في صفين ، وكان الاحنف يقول : جعلنا الله جميعاً فداء لأمير المؤمنين ..

* * *

- ٩١ -

دبت الفرقة في صفوف علي ، بعد التحكيم الذي قرأت . وخرج عن الطاعة جماعة كبيرة ، بلغ عددها اثني عشر الف رجل ، فهم الابطال البسلاء، ورجال الميادين . على انه لم يكن لهؤلاء الخوارج عذر . كانوا يقولون لامير المؤمنين لقد مللنا الحرب فارض بالتحكيم ..

ولم يكن هو راضياً به ، ولكنهم اكرهوه على ذلك بقولهم : ان لم تفعـــل اعتزلناك ..

ثم قالوا : اجعل ابا موسى الاشعري حكما ، فقال : بل اختار غيره فهو غير أهل ولا يصلح لمثل هذا !

فلحوا في الطلب ، فرضي . فلما كتب الفريقـان ما كتبوه ، انكروا ذلك وكرهوا ان يحكم الرجال بامر الله ، وجعلوا يقولون : لا حكم الا الله !! وانه لعذر اقبح من الذنب !

وانت ترى ان امير المؤمنـــين ، كان قادراً على المضي في امر الحرب حتى يستقيم له الأمر ويخضع معاوية وابن العاص بقوة السيف ولكنه لم يفعل خوفا من الفتنة ، وهو الامام الورع ، الكبير في نفسه ، وفي خلقه وزهده .

رجع عن صفين ، ورجع الخوارج مع صفوفه ، والقوم اعداء متباغضون وقد فشت الفتنة في نفوسهم .

يقول الخوارج : يا اعداء الله حكتكم الرجال في كتاب الله ..

ويقول هوءلاء : فارقتم خليفتنا وفرقتم جماعتنا ..

وكانوا يتشاتمون ويتضاربون بالسياط !

حتى انتهوا الى النخيلة ورأوا بيوت الكوفة ، فاذا بشيخ في ظل بيت ، عليه اثر المرض ، فقال له علي : أرى وجهك متغيراً أمن مرض ؟

قال : نعم !

– وقد كرهته ؟

– لا احب انه بغيري .

قال : أليس احتساباً للخير فيما أصابك ؟

– بلى يا أمير الموءمنين !

قال : فابشر برحمة ربك وغفران ذنبك .. من أنت ؟

– صالح بن سليم .

– وقومك ؟

– اما الأصل فمن سلامان طيء .

– وهل شهدت معنا غزاتنا هذه ؟

– لا والله ، ولقد أردتها فمنعني عنها ما تراه من أثر الحمى .

قال : خبرني ما يقول الناس فيما كان بيننا وبين اهل الشام ؟

قال : فيهم الراضون وهم القوم الذين يخدعون الناس ، وفيهم الآسف الحزين على ما كان بينك وبينهم واولئك نصحاء الناس اك .

فجعل يهز رأسه ويقول : صدقت يا عبدالله ..

ومشى ، فلقيه عبدالله بن وديعة الانصاري ، فدنا منه وسلم عليه ، فقال له: ماذا يقول الناس في امرنا يا ابن وديعة ؟

قال : منهم المعجب به ، ومنهم الكاره له .

– وما قول ذوي الرأي ؟

- يقولون يامولاى ، ان علياً كان له جمع ففرقه ، وكان له حصن حصين فهدمه ، فمتى يبني ما هدم ويجمع ما فرق ، ولو كان مضى ، بمن أطاعه ، فقاتل حتى يظفر او يهلك كان ذلك هَو الحزم ...

قال : انا هدمت ام هم هدموا ؟ انا فرقت ام هم فرقوا ؟ واما قولهم ، لو كان مضى بمن اطاعه فقاتل حتى يظفر او يهلك ،فوالله ما خفي عني ذلك، واني لسخي بنفسي عن الدنيا طيب النفس بالموت ، ولقد هممت بالاقدام على القوم فخفت ان تحصد الفتنة المسلمين ، ثم نظرت الى هذين قد أحاطا بي ، « وهو يعني الحسن والحسين » فعلمت انهما اذا هلكا انقطع نسل رسول الله من هذه الامة.. وأيم الله ، لئن لقيت القوم بعديومي هذا لألقينهم واولادي ليسوا معي في عسكر ولا دار .

ثم اقبل حتى قارب الكوفة ، فسمع البكاء ، فقال : ما هذه الاصوات ؟

فخرج اليه حرب بن شرحبيل فقال النساء يبكين قتلى صفين ..

فقال أيغلبكم نساؤكم ، الا تنهونهن عن هذا ؟

قال : يا امير المؤمنين ، لو كانت داراً او دارين او ثلاثاً قدرنا على ذلك ، ولكن قتل من هذا الحي وحده مئة وثمانون رجلاً فليس فيه دار الا وفيها البكاء .

فاطرق ملياً ثم قال : رحم الله قتلاكم وموتاكم. ولم يزل يذكر الله حتى دخل قصره في الكوفة

ولم يدخل الخوارج معه ، بل فارقوه واتوا حروراء ، ونادى مناديهم : ان امير القتال شبث بن ربعي ، وامير الصلاة عبدالله بن الكوّا اليشكري، والامر شورى ، والبيعة لله عز وجل ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وبلغ ذلك علياً واصحابه ، فقامت شيعته فقالوا : نحن اولياء من واليت ، واعداء من عاديت

قال: عليّ بعبدالله بن عباس.

فلما مثل بين يديه قال : سر الى الخوارج ولا تتعجل في امر خصومتهم حتى آتيك .

ثم بعث بزياد بن النضر قائلاً له : انظر أي رؤوسهم اعظم شأنا وابعد صوتا .

ففعل ، ثم عاد فخبره انه لم يرهم عند رجل ، اكثر منهم عند يزيد بن قيس ، فخرج عندئذ في الناس حتى اقبل اليهم ودخل فسطاط يزيد بن قيس فصلى فيه ركعتين ، وجعل يزيد عاملاً له على اصبهان والري . ثم خرج حتى انتهى اليهم وهم يخاصمون ابن عباس فقال : من هو رئيسكم ؟

قالوا : ابن الكوا .

- وما اخرجكم علينا ؟

- حكومتك يوم صفين ..

قال : الم أقل لكم ، عندما رفعوا المصاحف ، وقلتم نجيبهم ، اني اعلم بالقوم منكم ، وانهم ليسوا باصحاب دين ؟؟

ثم قال: لقد اشترطت على الحكمين ان يحييا ما احيا القرآن، ويميتا ما أمات، فان حكما بحكم القرآن فليس لنا ان نخالف ، وان أبيا فنحن من حكمها برآء .

- وهل ترى من العدل ان نحكم الرجال في الدماء ؟

- لقد حكمنا القرآن ولم نحكم الرجال كما تقولون .

- ولماذا جعلت الأجل بيننا وبين أهل الشام ؟

- لعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الامة ...

فسكتوا ، ولكن سكوتهم لم يكن عن رضى .

وقيل ، ان الخوارج قالوا عندئذ لعلي : صدقت، لكن كان ذلك كفراً منا وقد تبنا الى الله فتب انت نبايعك ، والا فنحن مخالفون ، فتاب فبايعوه ، ثم قال لهم : امكثوا ستة اشهر حتى يجبى الخراج فنخرج الى عدونا ، ذلك ما يقوله الخوارج انفسهم وقد كذبوا فيه .

* * *

- ٩٢ -

دنا اليوم الذي يجتمع فيه الحكمان . فأتى رجلان من الخوارج ، هما زرعة

ابن البرج الطـــائي – وحرقوص بن زهير السعدي فقالا لأمير المؤمنين : لا حكم الا الله .

فقال ابن زهير : تب عن خطيئتك وارجع عن التحكيم واخرج بنا الى عدونا نقاتله حتى نلقى ربنا .

قال : اردتكم على ذلك فعصيتموني وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتـــاباً واعطيناهم عهوداً وقد قال الله تعالى : وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم .

قال : ذلك ذنب ينبغي ان تتوب عنه .

– ما هو بذنب ولكنه عجز عن الرأي وقد نهيتكم عنه .

فقـــال زرعة : يا علي ، لئن لم تدع تحكيم الرجـال لا قاتلنّك طالباً وجه الله تعالى .

قال : بؤساً لك ما اشقاك فكأني أراك قتيلاً ..

قال : وددت لو كان ذلك . وخرجا وهما غاضبان .

فاختار علي عندئذٍ اربعمئة رجل عليهم شريح بن هانيء الحارثي وقال له : اذا اتيت ابن العاص فقل له :

« يقول لك عليّ ، ان أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق احبّ اليه وانك لتعلم موضع الحق فلا تتجاهل . ثم قل له : ان أوتيت طمعاً يسيراً كنت لله به ولأوليائه عدواً فـــلا تكن للخونة عونا وللظالمين نصيراً .. انه سيأتي يوم هو يوم وفاتك تتمنى فيه انـــك لم تظهر لمسلم عداوة ، ولم تأخذ على حكم رشوة ... » .

ثم قال لابن عباس : اذهب مع القوم ، فأنت أميرهم وصلّ بهم . فانصرفوا جميعهم ومعهم أبو موسى .

وارسل معاوية ابن العاص ، في اربعمائة من أهل الشام ، واجتمع القوم في اذرح ، من دومة الجندل .

فلقي شريح بن هانيء عمراً فنقل اليه كلام امير المؤمنين ، فتغير وجه الرجل ثم قال : متى كنت أقبل مشورة علي ، او انتهي الى أمره أو أعتد برأيه ؟

قال : وما يمنعك ان تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم مشورته . فقد

كان من هو خير منك ، أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه ..

قال : ان مثلي لا يكلم مثلك !

قال : بأي ابويك ترغب عني ؟ ابأبيك الوسط ام بأمك النابغة ؟

فقام عمرو وخرج وكأنه لم يشأ ان يسمع اكثر مما سمع .

وكان قد اتى اذرح ، طائفة من قريش ومن غير قريش ، من الذين اعتزلوا الحرب بينهم ابن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن ابي بكر ، وعبدالله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام وعبد الرحمن بن عبد يغوث ، وابو جهم بن حذيفة ، والمغيرة بن شعبة .

فقال المغيرة لرجال من قريش : ماذا تقولون ، أيتفق الحكمان ؟

قالوا : لا نعلم .

– اما انا فسأعلم ذلك منهما.

ودخل على عمرو بن العاص فقال : كيف ترانا نحن الذين اعتزلنا الحرب ؟

قال : اراكم خلف الابرار امام الفجار .

فانصرف الى ابي موسى فقال له مثل ذلك ، فقال أبو موسى : أراكم أثبت الناس رأياً .

فعاد المغيرة الى اصحابه وقال لهم : لا يجتمع الاثنان على رأي واحد .

فلما اجتمع الحكمان ، قال عمرو : يا أبا موسى ، الا تعلم ان عثمان قتل مظلوماً ؟

قال : بلى !

– الست تعلم ان معاوية وآل معاوية اولياؤه ؟

– بلى ...

قال : فما يمنعك منه وبيته في قريش كما قد علمت ، فان خفت ان يقول الناس ليست له سابقة فقل وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة والتدبير ، وهو اخو ام حبيبة زوج رسول الله وكاتبه . ووعده بان يوليه امراً يكون له فيه سلطان .

قال : يا عمرو ، اتق الله فاما ما ذكرت من شرف معاوية فان هذا ليس

بشرف ، ان الشرف لاهل الدين والفضـــل . وأفضل قريش شرفاً علي بن ابي طالب ، واما قولك ان معــاوية ولي دم عثمان فولـّه هذا الأمر ، فلم اكن لأوليه وادع المهاجرين الاولين ، وأما وعدك اياي بالسلطان فوالله لو خرج معــاوية لي عن سلطانه كله لما وليته وما كنت لأرتشي في حكم الله ، ولكنك ان شئت أن تحيي اسم عمر بن الخطاب رحمه الله ، « اي ان يولي ابن عمر » .

قال : فما يمنعك من ابني وانت تعلم فضله وصلاحه ؟

قال : ان ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة .

قال : ان هذا الأمر لا يصلح الا لرجل يأكل ويطعم ...

فقال : يا ابن العاص ، ان العرب قد اسندت اليك امرها بعدما تقارعوا بالسيوف فلا توقد نار الفتنة .

وكان عمرو قد عوّد ابا موسى ان يقدمه في الكلام بقوله : انت صاحب رسول الله واسنّ مني فتكلم .

وتعود ذلك ابو موسى .

فلما اراد ان يولي ابنه أو معاوية فأبى ، واراد أبو موسى ان يولي عبدالله بن عمر بن الخطاب ، ولم يتم له ذلك . قال له عمرو : وما الرأي الآن ؟

قال : ارى ان نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى فيختـــار المسلمون لأنفسهم من أحبوا ..

فأجابه الداهية قائلاً : الرأي ما رأيت . وخرجا الى الناس وهم مجتمعون .

فقال عمرو : يا ابا موسى ، اعلمهم اننا قد اتفقنا .

فقام ابو موسى فقال : قد اتفقنا على امير نرجو ان يصلح هذه الامة .

فقال عمرو : صدق ، تقدم يا ابا موسى فتكلم .

فتقدم الرجل ، فقال له ابن عباس : ويحك ، والله اني لاظنه قد خدعك ، فان كنتما اتفقتما على أمر فليتكلم به قبلك ثم تكلم انت بعده فانه رجل غادر ..

وكان أبو موسى مغفلاً فقال له : قد اتفقنا ... !

ثم رفع صوته قائلاً : ايها الناس ، انـّا قد نظرنا في امر هـــذه الامة فلم نرَ اصلح لأمرها من امر قد اجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو ان نخلع علياً ومعاوية

ويولي الناس امرهم من أحبوا ، واني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا امركم وولوا من رأيتموه اهلاً . ثم تنحى .

واقبل عمرو فقال : لقد قال ابو موسى ما سمعتموه وخلع صاحبه فأنا أخلع صاحبه كما خلعههو وأثبت صاحبي معاوية فانه وليُّ ابن عفان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه .. !

فقال سعد بن ابي وقاص وكان حاضراً : ما اضعفك يا ابا موسى عن عمرو ومكائده ..

قال : فما اصنع ؟ وافقني في الأمر ثم غدر ..

فقال ابن عباس: لا ذنب لك يا أبا موسى ، الذنب لمن اختارك لهذا المقام.

وقال عبدالله بن عمر بن الخطاب: انظروا الى ما صار أمر هذه الامة ، صار الى رجل لا يبالي ما صنع والى آخر ضعيف ..

وقال عبد الرحمن بن ابي بكر : لو مات الاشعري قبل هذا اليوم لكان خيراً له .

فقال أبو موسى لعمرو : لا وفقك الله غدرت وفجرت .

وحمل شريح بن هانىء على عمرو فضربه بالسوط ، وحمل ابن لعمرو على شريح فضربه بالسوط ايضا .

وحجز الناس بينهم . وكان شريح يقول بعد ذلك : ما ندمت على شيء ندامتي على ضرب عمرو بالسوط وكان علي ان أضربه بالسيف ..

وركب ابو موسى فلحق بمكة حياء من الناس ورجع شريح وابن عباس الى علي . وانصرف ابن العاص واهل الشام الى معاوية فسلموا عليه بالخلافة .

وعظم شأن معاوية ، من ذلك الحين ، وجعل يحرض قومه على الحرب وهم يسمعون له ، وعلي يحرض قومه وهم يتقاعدون . والقدر يمد اصبعه في كل امر ، ويساعد معاوية في بناء ملكه ، ووضع دعائم العرش الاموي .

* * *

كان لعلي ، العراق ومصر ، وفارس وخراسان والحجاز وليس لمعاوية غير الشام . ولكن معاوية وعمراً ، كانا ينظران الى الاقاليم التي قرأت ، نظرات الطمع والشهوة ، ويضعون في ظلام الليل، مناهج الاستيلاء عليها بقوة السيف. ولم يكن ذلك صعباً ، على ذينك الرجلين ، اللذين هما ادهى رجال الاسلام ، واحيلهم ، وأشدهم غراماً وشغفاً بالمجد والسلطان .

عمرو بن العاص يريد مصر لا يريد سواها ، ولكنه لا يستطيع ان يجلس في عرش فرعون ، ويمتع الطرف كل صباح بالنيل الفياض، الا اذا انتهى امر الخلافة الى ابن أبي سفيان .

فليمت علي اذن واتباعه جميعهم ، من المسلمين ، وليكن معاوية خليفة ليستقيم له الأمر في مصر ، ولتسقط السماء بعد ذلك على الارض فهو لايبالي . كما ان معاوية لم يكن يبالي ، أتأتيه الخلافة صاغرة ، ام يمشي اليها على جثث الأبرياء ..

اجل ، كان الاثنان رجلي دنيا كما مر ، وكان علي رجل زهد ودين ، ومع ذلك فقد ساعدهما الحظ وخانه ، ومشى القدر في ركابهما ، عبداً طائعاً يرفعهما بيديه الحديديتين الى العلاء . وكثيراً ما نرى هذا القدر الطائش يرفع الفجار، ويحط الابرار .

بعث معاوية رسله الى الاقاليم الخاضعة لعلي ، ليتبينوا مواضع الضعف فيها قبل ان يفاجئها بالخيل . وكذلك يفعل من يطمع بالخلافة ، ويريد ان يستولي على هذا الشرق ، بالحيلة والسيف . على ان علياً لم يكن خائفاً . كان يعلم ان انصار معاوية يؤثرون الباطل على الحق ، ويبيعون الآخرة بمظهر من مظاهر العز ، وانهم كثار ينشرون دعوتهم في كل قطر ، ويستغوون الاعراب المترددين في الطاعة ، الطامعين بالسلطان . ومع ذلك ، فايمان علي وشجاعته ، كانا اعظم من ان ينال الخوف منهما ، ووثوقه بالله وبنفسه ، كان يدفعه الى خوض الميادين ، والوثوق بالظفر .

وهو لم يستغرب خداع عمرو بن العاص ، في التحكيم ، وما بدا من ضعف أبي موسى . إن أبا موسى كان في نظره ضعيفاً مغفلاً ، كما كان عمرو بن العاص محتالاً ماكراً .

ولم يبالِ الا بهذه الدماء التي تهرق من اجل الخلافة ، وبهذه الثورة ، التي يحمل الخوارج لواءها ، ويشعلون نارها . اجل ، كان صعباً عليه ، ان يغض طرفه عن هذه الثورة التي لم يكن لاصحابها عذر ، وان يصبر على ما يسمع من اقاويل ، وما يرى من مظاهر العصيان . وقد اشتد ساعد الخوارج بعد اجتماع الحكمين ، وجاهروا اصحاب امير المؤمنين بالعداوة ، حتى رأى العقلاء ان الحرب ستقع وان الصاعقة ستنقض .

ولم يكن من الرأي ان يقيم الخوارج بالبلد الذي يقيم امير المؤمنين بالقرب منه فاجتمعوا في منزل عبدالله بن وهب ، وطلب اليهم ان يخرجوا من حروراء ، ويلجأوا الى بلد آخر يعالجون فيه امرهم . فقال حمزة بن سنان الاسدي : هذا هو الرأي ، ولكن ولّوا امركم رجلاً منكم فلا بدّ لنا من مرجع نرجع اليه وراية تحفون بها وتمشون في ظلها . فعرضوا الامارة على زيد بن حصين الطائي فأبى وعرضوها على حرقوص بن زهير فأبى ، وعلى حمزة بن سنان وشريح بن اوفى العبسي فلم يقبلا .

فقالوا : لم يبقَ إلا عبدالله بن وهب .

فقال : هاتوها فوالله لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها خوفاً من الموت ، فبايعوه لعشر خلون من شوّال .

ثم اجتمعوا في منزل شريح فقال ابن وهب : اخرجوا بنا الى بلد نجتمع فيه لانفاذ حكم الله فانكم اهل الحق .

فاجابه شريح قائلاً : نخرج الى المدائن ، فننزلها ، ونخرج اهلها منها ، ونبعث الى اخواننا من اهل البصرة فيجيئون .

فقال زيد بن حصين : اذا خرجتم مجتمعين ، لحق بكم جيش عليّ ، ولكن اخرجوا منفردين عندما يجنّ الليل ولا تأتوا المدائن فان فيها من يمنعكم .

– والى اين نسير ؟

– نسير حتى ننزل جسر النهروان ونكاتب اخواننا من اهل البصرة فلا تترددوا في هذا .

فقال اميرهم : نفعل ، ونكتب الليلة الى من بالبصرة .

وكان على المدائن ، سعد بن مسعود . فارسل اليه عدي بن حاتم يحذره أمر الخوارج ، فلحق بهم الى الكرخ ، ومعه خمسمائة من الرجال ، فعبر عبدالله بن وهب دجلة ، وسار الى النهروان . وانتهى كتاب عبدالله الى البصرة ، فاجتمع الخوارج فيها وجعلوا عليهم مسعر بن فدكي وهمّوا بالرحيل فعلم بهم ابن عباس ، امير البصرة ، فأمر أبا الأسود الدؤلي بان يتبعهم ، فخرج في الجيش ولكنهم سبقوه وانضموا الى اخوانهم . وعرف امير المؤمنين كل شيء ، فقام في الكوفة خطيباً فقال : اما بعد فان المعصية تورث الحسرة ، وتعقب الندم ، وقد كنت امرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة امري ولكن أبيتم الا ما اردتم فكنت انا وانتم كما قال اخو هوازن :

امرتهم امري بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

الا ان هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين ، قد نبذا حكم القرآن واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله، فحكما بغير حجة واختلفا في الحكم وكلاهما لم يرشد ، فاستعدوا وتأهبوا للمسير الى الشام واصبحوا في معسكركم يوم الاثنين ان شاء الله .

ثم كتب الى الخوارج :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله علي امير المؤمنين الى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس : امـــا بعد فأن هذين الرجلـــين اللذين ارتضيناهما حكمين قد خالفا كتاب الله واتبعا هواهما نبرىء الله منهما ورسوله والمؤمنون ، فاذا بلغكم كتابي هذا فاقبلوا الينا فانا سائرون الى عدونا وعدوكم ونحن على الامر الذي كنا عليه .

فكتبوا اليه : اما بعد فانك لم تغضب لربك ، وانما غضبت لنفسك ، فـان

شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، والا فقد نبذناك .

فلما قرأ كتابهم ، رأى ان يدعهم ويمضي بمن معه حتى يلقى اهل الشام .

ثم رأى ان يستعين بأهل البصرة فكتب الى ابن عباس : لقد خرجنا الى معسكرنا بالنخيلة ، واجمعنا على المسير الى عدونا ، فاندب الناس حتى يأتيك رسولي ، واقم حتى يأتيك امري .

فقرأ ابن عباس الكتاب على القوم ، وندبهم للقتال تحت لواء الاحنف بن قيس ، وكان في البصرة ، فلم يحمل السيف غير الف وخمسمائة من الناس .

فملأت الكآبة نفس ابن عباس وخطب فقال : اتاني كتاب امير المؤمنين ، فأمرتكم بالخروج الى قتال عدوه فترددتم في الامر ولم يخرج غير الف وخمسمائة وانتم ستون الف رجل ، فأنا ادعوكم الآن الى الخروج بقيادة جارية بن قدامة السعدي ، ولا يجعلن رجلا على نفسه سبيلا فاني موقع بكل من وجدته متخلفاً عن الدعوة وعاصياً امير المؤمنين .

فطاف جارية في القوم فلم يجتمع اليه غير الف وسبعمائة !! فسيرهم ابن عباس الى الكوفة وهم ثلاثة الاف رجل ومئتان .

فدعا امير المؤمنين وجوه الناس ررؤوس اهل الكوفة ثم قال : يا اهل الكوفة ، انتم اخواني وانصاري واعوانيعلى الحق واصحابي في الجهاد ، وقد استنفرت اهل البصرة فأتاني منهم من ترون ، فليكتب لي رئيس كل عشيرة ما ما في عشيرته من رجال الحرب ومن الفتيان الذين ادركوا سن القتال والموالي والعبيد الذين عنده . فقام سعيد بن قيس الهمداني فقال : سمعا وطاعة يا امير المؤمنين ، أنا اول من أجاب ، وكذلك قال معقل بن قيس وعدي بن حاتم وزياد بن حصفة وحجر بن عدي واشراف الناس . وكتبوا اليه ما طلب ، وأمروا ابناءهم وعبيدهم ان يخرجوا معهم .

فاجتمع في ساحات الكوفة أربعون الف رجل من ابطال الميادين وسبعة عشر الفاً من الفتيان وثمانية الاف من الموالي والغلمان ، أضف اليهم اهل البصرة الذين عرفت وهم ثلاثة آلاف ومئتان. فكان جيش الكوفة ما عدا البصرة خمسة

وستين الفـــا . ثم كتب علي الى سعد بن مسعود بالمدائن يأمره بأن يبعثه بجيش المدائن كله الا المكلفين حراسة الاقليم .

ثم بلغه ان الناس يقولون : لو سار أمير المؤمنين الى قتال الخوارج قبل قتال اهل الشام .

فقال للقوم : بلغني انكم تريدون ان تحاربوا الخوارج قبل معاوية ، فأنا ارى ان تسيروا الى قوم يقاتلونكم لكي يكونوا ملوكا ويتخذوا عباد الله عبيداً .

فناداه الناس : سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت .

وقام صيفي بن قسيل الشيباني فقال: يا أمير المؤمنين، نحن حزبك وانصارك، نعادي من عاداك ، ونشايع من اطاعك ، من كانوا واينما كانوا ..

فاجابهم قائلا : بارك الله فيكم تهيأوا للرحيل .

وجعل ينظر في امر الجيش ، وقد عول على الخروج بعد بضعة ايام ...

* * *

- ٩٤ -

عندما اقبل الخوارج من البصرة يريدون النهروان، رأت عصابة منهم رجلا ، يسوق حماراً عليه امرأة .

فانتهروه ثم قالوا له : من أنت ؟

قال : انا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله .

قالوا : لقد افزعناك ؟

قال: نعم !

قالوا : لا روع عليك فحدثنا عن ابيك حديثـــا سمعه من رسول الله ﷺ تنفعنا به .

قال : حدثني ابي عن رسول الله انه قال : ستكون فتنة يموت فيهـــا قلب الرجل كما يموت فيها بدنه ، يمسي فيهـــا مؤمناً ويصبح كافراً ، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً .

قالوا : عن هذا سألناك ، فما تقول في أبي بكر وعمر ؟

فأثنى عليهم خيراً .

– وما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها ؟

– انه كان محقاً في اولها وفي آخرها .

– فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده ؟

– انه أعلم بالله منكم واشد توقياً على دينه ..

فقالوا : انك تتبع الهوى وتوالي الرجال على اسمائها لا على افعالها ووالله لنقتلنك قتلة ما قتلنا مثلها أحداً .

واخذوه ، واقبلوا به وبأمرأته وهي حبلى تحت شجرة نخل، فسقطت رطبة من نخلة فأخذها أحدهم وجعلها في فيه ، فقال اخر : اخذتها وهي ليست حلالا وبغير ثمن !! فألقاها .

ثم مر بهم خنزير لرجل من اهل الذمة ، فضربه أحدهم بسيفه فقالوا له: هذا فساد في الأرض ! فلقي الرجل صاحب الخنزير فأرضاه .

فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال : لئن كنتم صادقين فيما ارى فما علي من بأس .. اني مسلم ما احدثت في الاسلام حدثاً وقد امنتموني ، فاضجعوه فذبحوه فسال دمه في الماء ..

واقبلوا الى المرأة فقالت : أنا امرأة ألا تتقون الله ؟

فبقروا بطنها وقتلوا ثلاث نساء من طيء .

وانتهى الخبر الى علي فبعث اليهم الحرث بن مرة العبدي ليأتيهم وينظر فيما بلغه عنهم . فلما اتاهم الحرث ليسألهم قتلوه ، ورجع بعضهم فخبر علياً . وكان يتهيأ للزحف الى الشام كما قرات .

فقال النـــاس : يا أمير المؤمنين ، كيف نترك هوءلاء القوم وراءنا ونترك أموالنا وعيالنا ، فسر بنا اليهم فاذا فرغنا منهم سرنا الى عدونا. وقال الاشعث ابن قيس مثل ذلك .

والاشعث هو القائل يوم صفين : لقد انصفنـــا اهل الشام الذين يدعون الى كتاب الله .

فلما رأى أمير الموءمنين رغبة الناس في الخروج الى قتال الخوارج ، زحف

اليهم حتى دنا منهم فبعث اليهم يقول : ادفعوا الينا قتلة اخواننا منكم لأقتلهم ثم اكف عنكم .

فأجابوه : كلنا قتلهم وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم .

وخرج اليهم قيس بن سعد بن عبادة فقال : عباد الله ، اخرجوا الينا قتلة اخواننا وادخلوا في هذا الامر الذي خرجتم منه وعودوا بنا الى قتال عدونا وعدوكم .

فقال عبدالله بن شجرة السلمي : ان الحق قد أضاء لنا فلسنا براجعين .

قال : نشدتكم في انفسكم ان تهلكوها فاني لا ارى الفتنة الا وقد غلبت عليكم ...

وقال ابو ايوب الانصاري: اننّا واياكم على الحال الاولى التي كنا عليها ليست بيننا وبينكم فرقة فعلام تقاتلوننا ؟

قالوا : لو تابعناكم اليوم حكمتم غداً ..

ثم اتاهم علي فقال : ايتها العصابة التي اخرجها الهوى عن الحق ، اني نذير لكم ان تصبحوا غداً صرعى في هذا الوادي، ألم تعلموا اني نهيتكم عن التحكيم وخبرتكم انها مكيدة وان القوم ليسوا باصحاب دين فعصيتموني ؟

قالوا: حكمنا ائمتنا وكنا بذلك كافرين وقد تبنا الان الى الله فتب معنا فنحن معك وان ابيت فنحن اعداؤك .

قال : اتريدون ان اشهد على نفسي بالكفر بعد ايماني بالرسول وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله؟ قالها وامر اصحابه بأن يسكتوا ورجع معهم الى المعسكر وهو يقول : لم يبق الا السيف .

ثم انه عبّى اصحابه ، فجعل على ميمنته حجر بن عدي ، وعلى ميسرته معقل بن قيس الرياحي ، وعلى الخيل أبا ايوب الانصاري وعلى المشاة ابا قتادة ، وعلى اهل المدينة ، وهم ثمانمائة رجل ، قيس بن سعد بن عبادة .

وكان على جناح جيش الخوارج الأيمن زيد بن حصين الطائي ، وعلى الجناح الأيسر شريح بن اوفى العبسي ، وعلى الخيل حمزة بن سنان الاسدي ، وعلى المشاة حرقوص بن زهير الذي انتصر لعلي في البصرة قبل يوم الجمل .

وأعطى امير المؤمنين ابا ايوب راية الأمان فنادى الخوارج قائلا : من جاء تحت هذه الراية فهو آمن ، ومن لم يقتل ، ومن انصرف منكم الى الكوفة او الى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، لا حاجة لنا بعد ان نقتل قتلة اخواننا منكم .

فقال فروة بن نوفل الاشجعي وهو من الخوارج : والله ما ادري على اي شيء نقاتل علياً ، ارى ان انصرف حتى تتضح لي بصيرتي في قتاله . وانصرف في خمسمائة رجل من قومه . ثم خرجت طائفة اخرى فنزلت الكوفة ، وانضم الى علي منهم مائة رجل . وكان جيشهم اربعة الاف ، فلم يبق مع عبدالله بن وهب غير الف وثمانمائة يريدون الحرب . وزحفوا الى جيش علي ، فقال علي لاصحابه : كفوا عنهم حتى يبدأوا .

ولكنه لم يقل كلمته حتى حملوا عليه من كل ناحية . فأومأ امير المؤمنين الى رجاله بان يستقبلوا خيلهم بالنبال والرماح ، وافترقت عندئذ خيل علي فرقتين مشت احداها الى الجناح الايمن والاخرى الى الايسر ، وقام الرماة يرسلون مع سهامهم الموت الاحمر ، ثم احاطت بهم الخيل من الجهات الأربع ، وراءها المشاة بالسيوف والرماح. ومرّت ساعة .. ساعة واحدة ليس غير، فاذا الدائرة تدور على القوم ، واصوات الاستغاثة ترتفع من الميدان .

فلما رأى حمزة بن سنان انه سيهلك مع اصحابه ناداهم قائلاً : تنحوا على الساحة ..

فذهبوا يريدون الوادي .. فجاءتهم الخيل من جيش علي وهوت السيوف ، فكأنما قيل لهم موتوا ، فماتوا جميعهم .

واقبل ابوايوب الانصاري الى علي فقال: يا أمير المؤمنين قتلت زيد بن حصين بطعنة واحده في الصدر ، وقد خرج السنان من الظهر ..

– وماذا قلت له ؟

– قلت ابشر يا عدو الله بالنار فقال: ستعلم غداً أينا أولى بها فقال علي : هو بها أولى .

ثم جاء هاني بن خطاب الازدي، وزياد بن حصفة وهما يقولان: قتلنا عبدالله ابن وهب ..

قال : وكيف صنعتما ؟

– رأيناه فعرفناه ، فطعناه طعنتين ..

قال : كلا كما قاتل .

ثم مثل جيش بن ربيعة بين يدي الخليفة قائلاً : قتل حرقوص بن زهير وانا قاتله ..

قال : بارك الله فيك .

وقال عبدالله بن زحر الخولاني : قتلت عبدالله بن شجرة السلمي .

قال : لقد فني الجيش كله فلا حول ولا قوة الا بالله .

وكان شريح بن أوفى يقاتل وهو مستند الى جدار عند الساحة، فحمل عليه قيس بن معاوية فقطع رجله ، فقاتل على رجل واحدة حتى صرعه السيف . وانجلى غبار الموت .

فمشى علي بين الجثث ينظر اليها ويقول : بوءسا لكم لقد ضركم من غركم .

قالو : ومن غرهم يا أمير الموءمنين ؟

قال : الشيطان والنفس الامارة بالسوء ..

ثم طاف عدي بن حاتم في القتلى يبحث عن ولده طرفة حتى ابصر جثته ، فحملها الى حفرة اعدها لها وكان يقول : انا لله وانا اليه راجعون .

ولم يقتل من اصحاب علي غير سبعة رجال، بينهم يزيد بن نويرة الانصاري، وكان من اصحاب النبي . وكان يوم الخوارج في السنة الثامنة والثلاثين .

* * *

٩٥

مرّ على الواقعة يومان فلما كان اليوم الثالث قال علي للقوم : ان الله قد حسن بكم واعز نصركم فازحفوا الان الى الشام ...

فقال الاشعث بن قيس : يا امير المؤمنين ، قد نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت اسنة الرماح ، فارجع الى الكوفة لنتهيأ ، ولعل امير المؤمنين يزيد في عدتنا فذلك أقوى لنا على العدو .

فتردد في الأمر ، ثم رأى ان القوم يرغبون فيما ذكره الاشعث ... فقال : اذن فارجعوا .

فلما انتهوا الى النخيلة ، امر الناس ان يلزموا المعسكر ويتهيأوا للزحف الى قتال معاوية بعد بضعة ايام . وجعل يعد العدة من جديد .

وبينما هو يفعل ذلك ، بلغه ان طوائف كثيرة من رجال الجيش ، تركت المعسكر ولجأت الى الكوفة بدون اذنه ؟ الا رجالا من وجوه الناس .

فلما رأى انهم افسدوا عليه رأيه، غادر النخيلة راجعاً الى الكوفة، ثم سألهم فيها ان يستعدوا ..

ولكنهم لم يفعلوا ..!!

فتركهم اياماً ثم دعا وجوههم ورؤساءهم فسألهم رأيهم فأحسّ بان حميّة العرب قد ضعفت في الصدور ، فقال : أرضيتم بالحياة وتركتم الآخرة ، وآثرتم الهوان والذل على العز ؟! وكلما ناديتكم الى الجهاد دارت اعينكم كأنكم في سكرة الموت ؟! لله انتم ، ما انتم إلا اسد الشرى في أيام السلم ، وثعالب رواغة حين تدعون الى الحرب .

ثم قال : ان لي عليكم حقاً ولكم عليّ مثله ، واما حقكم عليّ فالنصيحة لكم وتعليمكم كي لا تجهلوا ، وتأديبكم كي تعلموا، واما حقي عليكم، فالوفاء بالبيعة والنصح لي في كل موقف ، والاجابة حين ادعوكم ، والطاعة حين آمركم ... وسكت حتى يسمع الجواب .

فاطرقوا كأنهم يفكرون في الامر ، وهم لا يفكرون .. ثم اعتذروا له قائلين :

خير لنا ولك ان نبقى في الكوفة وليفعل معاوية ما يشاء ... فتألمت نفسه ولم يستطع الا ان يصبر على ما يراه ، حتى تخلق الحادثات ما لا يعلم .. وكانت يد القدر تمتد من وراء الحجب لتعكر على الخليفة العظيم صفو خلافته ، ومعاوية ،

معاوية الداهية الطامع بالملك يمد يديه الاثنتين ، الى ذلك القدر الجائر ، ليساعده في جوره ، ويمهد له اسباب الجفاء ...

* * *

- ٩٦ -

كان محمد بن أبي بكر ، عاملاً لعلي على مصر ، كما علمت . وكان معاوية ، ينظر الى مصر ، نظره الى أعظم اقليم في دولة علي . وقد وعد ابن العاص ، بأنه سيوليه امرها ، اذا استطاع ان يظفر بابن ابي بكر ، ويضمها اليه . فلما بايعه أهل الشام بالخلافة ، بعد فشل التحكيم ، وقام الخوارج في العراق يدعون الى الخلاف ، انتهى اليه ان معاوية بن خديج السكوني ، خرج عن طاعة علي في مصر ، وقام يطلب بدم عثمان ، وهو يدعو الناس الى الثورة . وقد فسدت مصر على محمد بن ابي بكر . فقال في نفسه : لقد أتت الساعة التي استولي فيها على هذا القطر القريب ، الفياض بالبركات والنعم .

وجعل يفكر في الأمر ، ويتهيأ له ، ثم ارسل جواسيسه الى الكوفة يحصون عليه انفاس أمير المؤمنين .

وكان أمر مصر قد بلغ علياً ، فقال لرجاله : ما لمصر الا احد الرجلين ، صاحبنا الذي عزلنا « وهو يعني قيس بن سعد ، الذي كان عاملاً على مصر ، قبل محمد بن ابي بكر » او الأشتر .

والأشتر في ذلك اليوم مقيم بنصيبين ، فبعث اليه يستدعيه . فلما أقبل قال له : ليس لمصر غيرك ، فاخرج اليها فاني اكتفي برأيك . فخرج يعد عدة الرحيل.

وأتت معاوية جواسيسه فخبروه ، فعلم ان الاشتر اذا قدم مصر ، افسد عليه أمره ، وكان أشد عليه من ابن أبي بكر . فبعث الى صاحب الخراج بالقلزم يقول له : ان الاشتر قد ولي مصر ، فان قتلته قبل ان يدخلها لم آخذ منك خراجاً ما بقيت .

واقبل يقول لأهل الشام: ان علياً قد وجه الاشتر الى مصر فادعوا الله عليه. فكانوا يدعون كل يوم .

فلما خرج الاشتر من العراق ، وانتهى الى القلزم ، استقبله ذلك الرجل ، دعاه الى النزول ، فنزل في بيته . واتاه بطعام . فلما أكل أتاه بشربة من عسل جعل فيها سماً ، فسقاه اياها ، فمات .. فأتى الشام حاملاً البشرى الى معاوية .

فقال معاوية لقومه : كانت لعلي يمينان ، قطعت احدهما بصفين « وهو يعني عمار بن ياسر » وقطعت الاخرى اليوم ، وهو يعني الاشتر .

فلما بلغ علياً موته قال : انا لله ، لو كان الاشتر من حديد لكان قيداً ، او من حجر لكان صلداً ، على مثله فلتبكِ البواكي . ولم يكن في ذلك الحين همّ لمعاوية الا مصر ، كان يخاف أهلها لقربهم منه وشدتهم على انصار عثمان ، وقدقام في ذهنه ، انه اذا استولى عليها ظفر بعلي .

فدعا عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ، وبسر بن ابي أرطاة والضحاك ابن قيس وعبد الرحمن بن خالد ، وابا الاعور السلمي ، وشرحبيل بن السمط الكندي ، وهؤلاء اركان حربه وقال لهم : أتدرون لماذا دعوتكم ؟

قالو : لا !

فقال عمرو بن العاص : أما انا فقد علمت .

– ماذا ؟

دعوتنا لتسألنا رأينا في مصر ، واني اقول لك ان في فتحها عزك وعز اصحابك .

– وكيف اصنع ؟

– تبعث جيشاً كثيفاً عليه رجل حازم تعرف ماضيه ، وتثق به ، فاذا أتى مصر ، أتاه فيها اتباع عثمان وساعدوه في القتال حتى يتم لك الامر .

قال : بل نكاتب انصارنا فنمنيهم ونأمرهم بالثبات ، ونكاتب اعداءنا فندعوهم الى صلحنا ونخوفهم ، فان استقام لنا الأمر بغير قتال فذاك الذي أردنا والا كانت الحرب .

– افعل ما تشاء فأنا ارى ان الحرب ستشعل نارها .

فكتب معاوية ، الى مسلمة بن مخلد ، ومعاوية بن حديج اللذين خرجا عن

طاعة علي ، يشكرهما على ذلك ويدعوهما الى الشدة في الطلب بدم عثمان . وبعث كتابه مع مولى له يقال له سبيع .

فلما اطلعا عليه ، اجاباه : اما بعد ، فان الامر الذي بذلنا له انفسنا واتبعنا به امر الله، امر نرجو به ثواب ربنا وتعجيل النقمة على من قتل عثمان ، فعجل الينا بخيلك ورجلك فان عدونا قد اصبح خائفاً . وورد عليه الكتاب وهو بفلسطين ، فأمر عمرو بن العاص بالزحف الى مصر ، واختار له ستة الاف رجل ، وأوصاه بالتوءدة وترك العجلة . فسار عمرو ، حتى نزل أول أرض من ارض مصر .

فاجتمع اليه حزب عثمان ، فأقام بهم أياماً ثم كتب إلى محمد بن ابي بكر : اما بعد ، فتنحّ عني بدمك يا ابن أبي بكر ، فاني لا أحب ان يصيبك مني سوء ، ان الناس في هذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك ، فاخرج من مصر اني لك من الناصحين .

وأرسل مع كتابه كتاب معاوية في المعنى نفسه ، فبعث محمد الكتابين الى امير المؤمنين ، وخبره بنزول عمرو في أرض مصر ، وسأله ان يوجه اليه طائفة من جند العراق . فكتب اليه علي يأمره بان يضم شيعته اليه ، ويعده بارسال الجيوش ، ويأمره بالصبر على قتال عدوه .

وقام ابن ابي بكر في الناس ، يندبهم الى القتال مع كنانة بن بشر . فخرج مع كنانة الفان . ثم خرج محمد بعده في الفين ، وجعل كنانة على المقدمة .

فلما اقبل ابن العاص ، جعل يسرح كتائبه كتيبة بعد كتيبه ، وكنانة لا تأتيه كتيبة الا حمل عليها وأعادها الى عمرو . فلما رأى عمرو ذلك ، بعث الى معاوية بن حديج فأتاه مع رجاله المغاوير الذين يؤثرون الموت على الحياة . واحاطوا بكنانة واصحابه . ثم احاط بهم اهل الشام من كل جانب . فعرف كنانة ان الموت لا بد منه . فنزل عن فرسه ، ونزل معه اصحابه ، وخاضوا المجال .

ولكنهم ما لبثوا حتى تخطفتهم السيوف . ثم ارتفعت اصوات القوم تنادي :

قتل كنانة بن بشر ..

وكان محمد بن ابي بكر في الناحية الاخرى . فلما بلغه ان كنانة قتل قال لاصحابه : قاتلوا حتى يتم لكم الظفر او تموتوا .

وحمل والسيف في يده يقاتل قتال اليائس حتى خسر فرسه وتفرق اصحابه عنه فلم يرَ الا ان يخرج من الصفوف ويختار له ملجأ يحجبه عن العيون .

وأقبل يمشي في طريق بعيدة عن الجيش . فانتهى الى منزل سقط سقفه وبقيت جدرانه ، فآوى اليه ، وهو يرى ان مصر ستدين لعمرو بن العاص وان امر امير المؤمنين فيها قد انتهى . ومرت ساعة ... فسار ابن العاص يريد الفسطاط وألوية النصر تخفق فوق جيشه ، وخرج معاوية بن خديج في طلب محمد والموت يبسم على شفرة سيفه . حتى انتهى الى ذلك الطريق الذي مرّ به، وقد وقفت هنالك طائفة من الرجال فقال لهم : ألم تروا ابن ابي بكر ؟

فقال احدهم : رأيت رجلاً جالساً وراء هذه الجدران . وأومأ الى الخربة التي لجأ اليها محمد . فقال : هو هو فاقبضوا عليه فدخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً .

واقبلوا به الى معاوية فقال : الى الفسطاط . وسار رجل من القوم ينقل البشرى الى عمرو بن العاص .

وكان عبد الرحمن بن ابي بكر في مجلسه ، وهو من خصوم علي وقد قدم مصر ، في جيش عمرو .

فلما خبر ذلك الرجل عمراً ان معاوية قبض على محمد قال : اتقتل اخي صبراً يا ابن العاص ؟ ابعث الى ابن حديج فانهه عنه . فبعث اليه يأمره بان يأتيه بمحمد، فقال معاوية : قتلتم كنانة بن بشر واخلي انا محمداً؟ هيهات هيهات!

فقال له محمد : اسقوني ماء .

فأجابه معاوية قائلاً : لاسقاني الله ان سقيتك قطرة ... انكم منعتم عثمان شرب الماء والله لأقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم .

قال : يا ابن اليهودية النساجة ، ليس ذلك اليك انما ذلك الى الله يسقي

اولياءه ويظمىء اعداءه انت وامثالك ... اما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني هذا .

قال : اتدري ما اصنع بك ؟

– اصنع ما شئت فانا لا ابالي .

قال : ادخلك جوف حمار ثم احرقه عليك بالنار ..

قال : ان فعلت بي ما تقول فلطالما فعلتم ذلك باولياء الله ، واني لارجو ان يجعلها عليك وعلى معاوية وعمرو بن العاص ناراً تلظى ، كلما خبت زادهـا الله سعيراً ..

فغضب الرجل ، وأمر رجاله فضربوه حتى قتلوه . ثم القاه في جوف حمار واحرقه بالنار كما قال . فلما بلغ ذلك اخته عائشة ، جزعت عليه جزعاً شديداً وجعلت تدعو على معاوية وعمرو ، ولم تأكل من ذلك الوقت شواء حتى توفيت.

وكان امير المؤمنين ، يندب الناس في الكوفة للدفاع عن مصر ، فلا يأتيه أحد . فعل ذلك غير مرة ، والناس يترددون !

فدعا اشرافهم وهو كئيب ، فقال : الحمدلله على ما مضى من امره ،وابتلاني بكم ايها القوم الذين لا تطيعون اذا امرت ، ولا تجيبون اذا دعوت .... أليس عجيباً ان معاوية يدعو الجفاة الطغام، المرة والمرتين والثلاث الى اي وجه شاء، فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة وانا ادعوكم ، وانتم اولو النهى وبقية الناس فتتفرقون عني وتعصونني وتختلفون عليّ ؟!

فقام كعب بن مالك الارحبي فقال: اندب الناس يا امير المؤمنين فلهذا اليوم كنت ادّخر نفسي .

ثم قام فيهم خطيبا فقال : اتقوا الله ، واطيعوا امامكم ؛ وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوه .

فخرج مع كعب الفان ليس غير . فسار بهم خمس ليال ، فلما كانت الليلة السادسة ؛ اقبل من مصر ، الحجاج بن غزية الانصاري فخبر عليا بقتل محمد ..

ثم أقبل عبد الرحمن بن شبيب من الشام ، وكان عيناً لأمير المؤمنين فيها ، فقال له عليّ : ما وراءك يا عبد الرحمن ؟

قال : وردت البشارة من ابن العاص بقتل ابن أبي بكر .

فارسل فاعاد الجيش الذي بعث به وجعل يقول : الا ان مصر قد افتتحها الفجرة اهل الجور ، الذين مشوا في غير سبيل الله ، واني والله ما الوم نفسي على تقصير ، ولكني اتقدم على الأمر ، واعرف وجه الحزم ، واقوم فيكم بالرأي المصيب ، واناديكم نداء المستغيث فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي امراً حتى تصير بي الامور الى مـا ترون ، فانتم القوم لا يدرك بكم الثار ولا تنفض بكم الاوتار ... دعوتكم الى غياث اخوانكم في مصر منذ بضع وخمسين ليلة ، فتثاقلتم الى الارض تثاقل من ليست له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الأجر ، ثم خرجت اليّ منكم طائفة مترددة كأنما تساق الى الموت ... وملأ الحزن قلبه ، وآلمه ذلك التردد الذي يراه من القوم كلما ندبهم الى حرب .

* * *

- ٩٧ -

دانت مصر لمعاوية ، فعظم شأنه ، وذهب له في الاقطـــار العربية صيت وذكر !

ومصر ، في نيلها وخراجها ، ورجالها ، ركن من اركان الخلافة ، ودار رحبة لكل مسلم ضاقت به الارض وجار عليه الزمان .

ولكن معاوية لا تكفيه مصر .. فهي وحدها لا تشبع جوفه الجائع ، ولا ترضي فيه طموحه الى المجد . وقد رأى ، وهو الحكيم الداهية ، ان الحظ يخدمه ويخون علياً ، وان القدر الذي لا عهد له ، عبد من عبيده . فاغتنمها فرصة يضع يده فيها ، على اقليم آخر ، من تلك الاقاليم الكثيرة الخاضعة لأمير المؤمنين . ومعاوية اذا نظر في الامر ، لا يتردد فيه ..

ففي مساء يوم ، دعا رجلاً من اركان حربه يقـــال له عبد الله الحضرمي فقال له :

ما رأيك في البصرة ؟

قال : أتحدثني بأمر الفتح ؟

- اجل !

- ان الرأي في ذلك رأيك انت .

قال : معظم اهل البصرة يرون رأينا في عثمان ، وقد قتلوا وهم يطلبون بدمه ، فهم لذلك خصوم علي .

ولكنهم متفرقون كما ترى .

- نعم ، وهم يحتاجون الى رجل يجمع كلمتهم وينهض بهم في الطلب بدم الامام القتيل الذي حاربوا علياً من اجله .

إذن لم يبق الا ان تختار هذا الرجل .

- لقد اخترته فأنت هو .

قال : وكيف اصنع اذا دخلت البصرة ؟

قال : تنزل في الأزد فكلهم معك ، وتدع ربيعة فلن ينحرف عنك احد سواهم لانهم جميعهم انصار علي فاحذر ..

- وبنو تميم ؟

- لا اجد خيراً في بني تميم الذين يرأسهم الاحنف .

قال : سألمس هوى القوم ثم افعل ما اراه .

قال : إذا اصبت فتهيأ للرحيل واعدّ رجالك .

فانصرف عبد الله ، واقبل منذ تلك الليلة يعد عدته حتى تم له الامر بعد ثلاثة ايام ، ثم خرج يريد البصرة وهو واثق بالنصر . وكان عبدالله بن عباس قد خرج الى امير المؤمنين بالكوفة ، واستخلف على البصرة ، زياد بن ابيه . فلما قدم عبدالله لقيه قوم من بني تميم يدعونه الى النزول في حيّهم وهم لا يعلمون غايته . ثم اتاه انصار عثمان مسلمين . فجعل يهامسهم قائلاً : ان عثمان إمامكم امام الهدى قتله علي ظلماً فطلبتم بدمه فجزاكم الله خيراً . ثم رفع صوته ليسمعه القوم الذين حوله .

فقام الضحاك بن قيس الهلالي ، وكان على شرطة ابن عباس فقال : قبّح الله ما جئتنا به وما تدعونا اليه ، اتيتنا والله بمثل ما اتانا به طلحة والزبير ، وكنا قد بايعنا علياً ، واستقامت امورنا فحملانا على الفرقة حتى قتل بعضنا

البعض الآخر ونحن الان مجتمعون على بيعته، وقد اقال العثرة، وعفا من المسيء، أفتأمرنا ان نجرد السيوف ليكون معاوية اميراً ؟؟! والله ليوم من ايام علي خير من معاوية وآل معاوية !.

فقال له عبدالله بن خازم السلمي : اسكت فلست بأهل ان تتكلم، ثم قال لابن الحضرمي : نحن انصارك ويدك، والقول قولك فأقرأ كتابك ..

فاخرج كتاب معاوية اليهم، يذكرهم فيه آثار عثمان فيهم، ويذكر قتله ويدعوهم الى الطلب بدمه، ويعدهم بأنه يعطيهم في السنة عطاءين .

فلما فرغ من قراءته، قال الاحنف وكان حاضراً: لاناقتي في هذا ولا جملي.. وكان قد مل الحرب بعد موت اخيه وابن اخيه .

واعتزل القوم . وقام عمرو بن مرحوم العبدي فقال : ايها الناس، الزموا طاعتكم وجماعتكم ولا تنكثوا البيعة فتقع بكم الواقعة . وكان عباس بن صحار العبدي، مخالفاً لقومه، وهو يحب معاوية ويؤثره على علي فقال لعبدالله : لننصرنّك بايدينا والسنتنا ... فقال نسيب له : والله يا عبدالله، لئن لم ترجع الى مكانك الذي جئتنا منه لنجاهدنك باسيافنا ورماحنا ولا يغرنك هذا الرجل الذي يتكلم الآن، وهو يعني ابن صحار .

فقال ابن الحضرمي لصبرة بن شيمان، وهو من الأزد : انت ناب من أنياب العرب فانصرني .

قال : لو نزلت في داري لنصرتك. فخاف زياد بن أبيه ان تشتعل نار الفتنة. فاستدعى حصين بن المنذر، ومالك بن مسمع فقال لهما : انتم يا معشر بكر ابن وائل انصار امير المؤمنين وثقاته، وقد كان من ابن الحضرمي ما ترون، واتاه من أتاه من القوم فامنعوني حتى يأتيني امر امير المؤمنين.

فقال ابن المنذر : سأفعل .

وقال مالك، وكان يميل الى بني امية : هذا امر لي فيه شركاء اشاورهم وانظر فيه .

فارسل الى صبرة بن شيمان يطلب اليه ان يجيره ويحفظ بيت مال المسلمين، فقال صبرة : اذا حمل ما في بيت المال الى داري، فعلت .

فنقل زياد بيت المال الى دار صبرة ، ثم قال لجابر بن وهب : اني لا ارى ابن الحضرمي يكف عن الشر ، وانا اظن انه سيقاتلكم ولا ادري ماعند اصحابه، فانظر في الامر واقرأ اسرار القوم .

فلما صلى زياد ، جلس في المسجد واجتمع اليه الناس فقال جابر : يا معشر الأزد ، ان تميماً تزعم انهم هم الناس ، وانهم اصبر منكم عند الشدة ، وقد بلغني انهم يريدون ان يسيروا اليكم ويأخذوا جاركم زياداً. ويخرجوه قسراً فكيف انتم اذا فعلوا ذلك وقد اجرتموه ؟

فقال صبرة : ان جاء الاحنف نفسه جئت ، وان جاء رؤساء بني تميم جئت وان جاء شبابهم ففينا شباب ..

فطابت نفس زياد وكتب الى امير المؤمنين يقص عليه كل شيء ، فأرسل علي الى البصرة ، اعين بن ضبيعة المجاشعي التميمي ،ليفرّق بني تميم عن ابن الحضرمي، فان اقتنعوا قاتل بمن اطاعه من عصاه . فقدم اعين ، حتى اتى زياداً ، فنزل عنده ، ثم اتى قومه فطلب اليهم ان يساعدوه في أمره . فشتموه ، فانصرف عنهم .

فلما كان الليل ، دخل عليه قوم من الخوارج ، وقيل من رجال ابن الحضرمي فقتلوه غيلة .

فأراد زياد عندئذ ان يشهر السيف ،فأرسلت تميم الى الازد يقولون: لم نعرض لجاركم فلا تعرضوا انتم لجارنا . فكرهت الأزد ان تقاتلهم وكانوا يقولون : اذا عرضوا لجارنا منعناه . وكتب زياد ثانية الى علي يخبره بقتل الرجل .

فبعث علي بجارية بن قدامة السعدي ، وهو من بني تميم ، ومعه خمسمائة من رجال الحرب . فقدم جارية البصرة ، فحذره زياد من القوم ، فقال : لا ابالي بهم .

وجزى بني الازد خيراً قائلاً لهم : عرفتم الحق اذ جهله غيركم .

وقرأ كتاب علي الى اهل البصرة يوبخهم ويتهددهم ، بالمسير اليهم والايقاع بهم وقعة لا تذكر معها وقعة الجمل .

فقال صبرة بن شيمان : سمعا لامير المؤمنين وطاعة ، نحن حرب لمن حاربه، وسلم لمن سالمه .

ثم سار جارية الى قومه وقرأ عليهم الكتاب ، فأجابه اكثرهم . فأقبل الى ابن الحضرمي ومعه الازد ، ومن تبعه من قومه وعلى خيل عبدالله ، عبدالله بن خازم السلمي .

فاقتتلوا ساعة تم النصر بعدها لجيش امير المؤمنين . ففرّ عبدالله وابن خازم الى قصر في ضواحي البصرة يتحصنان به ، فاقبلت والدة ابن خازم ، وكانت حبشية ، فأمرته بالنزول فابى ، فقالت : والله لتنزلنّ او لأنزعن ثيابي .

فنزل ونجا ، وقدم جارية فأحرق القصر بمن فيه ، فهلك ابن الحضرمي ومعه سبعون رجلاً من رجال الشام فيهم بعض بني تميم .

فقال احد شعراء الازد :

رددنا زياداً الى داره　　　وجار تميم دخاناً وذهب

لحى الله قوماً شووا جارهم　　　ولم يدفعوا عنه حر اللهب !

وقال آخر :

غدرتم بالزبير فما وفيتم　　　وفاء الازد اذ منعوا زيادا

فأصبح جارهم بنجاة عز　　　وجار مجاشع أمسى رمادا

وكان ذلك ، في السنة نفسها التي قتل فيهـــا محمد بن ابي بكر ، اي السنة الثامنة والثلاثين .

* * *

- ٩٨ -

الفتنة وراء الفتنة ، والقتال يتبع القتال ، وأمير المؤمنين ، يضع الشدة في موضعها واللين في موضعه ... ومعاوية ، واهل الشام ، ينفخون في الصدور ، روح الثورة والعصيان .

في كل بلد لهجة عتاب ولوم ، وفي كل اقليم اصـــوات تدعوا الى الشورى ،

والفوضى تنشر ظلها في كل قطر .

وقد اقبل رجل من بني ناجيـــة يدعى الخريت بن راشد فقـال لعلي : يا علي ، والله لا اطيع امرك ، ولا اصلي خلفك ، واني غداً مفارق لك !!

فقال : ثكلتك امك.. تعصى ربك، وتنكث عهدك،فلا تضر الا نفسك.. خبرني لِمَ تفعل ذلك ?

– لانك حكمت الرجال وضعفت عن الحق ووثقت بالقوم الذين ظلموا ... فأنا خصم لك ولهم .

قال : اني اعلم بالامور منك فهلمّ افسر لك كتاب الله فلعلك تعرف ما انت منكر له الان ، فأبى وخرج من عنده . فلما جنّ الليل ، جمع اصحابه ، وهم ثلاثمائة ، وقد شهدوا مع امير المؤمنين ، الجمل وصفين، وخرج بهم مفارقين علياً. فلما بلغ امير المؤمنين خروجهم قال لزياد بن خصفة البكري : لقد استهواهم الشيطان وأضلهم فنكثوا عهدهم بدون عذر .

قال : انهم لا يزيدون في عددنا اذا اقاموا ، ولا ينقصون منه اذا خرجوا ، ولكننا نخاف ان يفسدوا علينا الناس من اهل طاعتك فاذن لي في اللحاق بهم حتى اردهم عليك .

– أتدري اين توجهوا ?

– لا ، ولكني اسأل واتبع الأثر .

قال : اخرج رحمك الله وانزل دير أبي موسى حتى يأتيك امري .

فانصرف زياد على رأس مئة وثلاثين رجلاً من بكر بن وائل حتى اتوا دير ابي موسى فأقاموا به ينتظرون امر علي .

واتى علياً كتاب ، من قرظة بن كعب الأنصاري يذكر له فيه المكان الذي انصرفوا اليه، ويخبرهم انهم قتلوا رجلاً فارسياً اعتنق الاسلام . فكتب الى زياد يأمره بان يلحق بهم ويردهم اليه ، واذا ابوا فالسيف .

وحمل عبدالله بن وال كتابه الى زياد ، فلما انتهى اليه ، زحف برجاله حتى ادرك القوم ، وهم نزول في موضع يقال له المذار .

وكان اصحابه قد تعبوا ، فلما رآهم الخريت ، امر رجاله بان يركبوا خيلهم وقال لزياد : ما تريد يا ابن خصفة ؟

وزياد من الرجال المجربين اهل الدهاء ، فقال : قد ترى ما بنا من التعب ، والذي اتيناك من اجله لا يصلحه الكلام القليل ، ولكن ننزل ، ثم نخلو جميعاً فننظر في امرنا ، فأن رأيت فيما نقوله لك حظاً لنفسك قبلته ، وان رأينا فيما نسمع منك امراً ترجو فيه العافية لم نردّه عليك .

قال : انزل .

فنزل مع اصحابه على ماء هناك ، واكلوا شيئاً وعلقوا دوابهم ، وهـذا ما كان يريده زياد . ثم وقف في خمسة رجال ، بين اصحابه وبين القوم وجعل يقول لمن حوله : ان عدتنا كعدتهم وأرى ان امرنا يصير الى القتـال فلا تكونوا اعجز الفريقين . ثم سمع اصحاب الخريت يقولون : جاء القوم وقد نهك التعب اجسامهم فتركناهم حتى استراحوا ... هـذا والله سوء الرأي ... فقال زياد للخريت : اي شيء دعاك الى الخروج عن طاعة امير المؤمنين ؟

قال : لا ارى صاحبكم إماما ، ولا سيرتكم سيرة ، وقد رأيت ان اعتزل واكون مع من يدعو الى الشورى .

– وهل يجتمع الناس على رجل يداني صاحبنا الذي فارقته ، علما بالله وسنّته وكتابه ؛ مع قرابته من النبي ؟

– لا !

– وفيما قتلت ذلك الرجل الفارسي الذي امسى من المسلمين ؟

– لست قاتله وانما قتلته طائفة من أصحابي .

قال : ادفعهم الينا .

– ما لي الى ذلك سبيل .

فقال زياد : لم يبق إلا السيف فتهيأ .

فدعا الخريت اصحابه ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى لم يبق رمح ؛ وتضاربوا بالسيوف حتى انحنت وعقرت الخيل .

وجاء الليل ؛ ففر الخريت مع طائفة من رجـــاله حتى أتى الاهواز ، وقد انضم اليه فريق آخر من اعداء التحكيم.

وكان زياد قد جرح ، فكتب الى علي يخبره بفرار عدوه ، وانه مقيم في ناحية من نواحي البصرة يعالج الجرحى .

فلما قرأ علي كتابه ، قام معقل بن قيس فقال : يا امير المؤمنين ، كان ينبغي ان يكون ، مع من يطلب هؤلاء ؛ عشرة رجال ، مكان كل رجل منهم .

– لماذا ؟

– ليستأصلوهم اذا لحقوا بهم .

قال : لقد جاء دورك الان فاستعد .

وندب معه الفي رجل من اهل الكوفة ؛ وعوّل على ان يضرب اهل الفتنة ضربة لا يكون لهم بعدها شأن . وكتب الى ابن عباس في البصرة ، يأمره بان يبعث رجلاً شجاعاً معروفاً بالصلاح في ألفي رجل الى معقل . ثم كتب الى زياد ابن خصفة يشكره ويدعوه الى الرجوع . فارسل ابن عبـاس الى معقل ، خالد ابن معدان الطائي في جيش مـن اهل البصرة ، ومشوا جميعاً يريدون الأهواز .

وكان الخريت في جبل من جبال ذلك القطر ؛ وقد اجتمع اليه من العرب من يرى رأيه ، ولصوص من اهل الأهواز ارادوا ان يحتفظوا بمال الخراج .

فلما التقى الجيشان صفّ معقل اصحابه فجعل على ميمنتـه يزيد بن المعقل الأسدي وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبي، وكان على ميمنة الخريت اصحابه من العرب ، وعلى الجناح الآخر اهل البلد والاكراد .

وحرّك معقل رأسه مرتين ، ثم حمل في الثالثة . فصبروا له ساعة ثم انهزموا وقد قتل معقل منهم ، سبعين رجلاً جميعهم من بني ناجية انسباء الخريت وقتل اصحابه طائفة كبيرة من اهل فارس ورجال الاكراد . ولحق الخريت « باسياف البحر » وفيها جماعة كثيرة من قومه . فمـا زال يسير فيهم ، ويدعوهم الى العصيان والى قتال علي ، حتى تبعه منهم اكثر من الفين .

وكان معقل قد كتب الى امير المؤمنين بالفتح . فأستشار علي اصحابه فقالوا: نرى ان تأمر معقلاً بان يتبع آثار الفـــاسق فيقتله ، فانا لا نأمن ان يفسد عليك الناس .

فكتب علي الى معقل يثني عليه وعلى من معه ؛ ويأمره بأن يلحق به حتى يقتله او ينفيه . فمشى معقل عندئذ الى اسياف البحر ، وقد بلغه ان الرجل رد القوم عن طاعة امير المؤمنين ،وافسد من عنده من بني عبد القيس ؛ ومن حولهم من العرب . وكان قوم الخريت ، قد منعوا الصدقة في ذلك العام والعام الذي قبله لا يبالون بأمر امير المؤمنين . وهم مزيج من الخوارج وانصار عثمان .

فقال للخوارج : انا على رأيكم وان علياً اخطأ في التحكيم .

وقال لاتباع عثمان : ان علياً قتل عثمان ظلماً ..

وقال لمن منع الصدقة : شدوا ايديكم على الصدقات .

وهكذا ارضى بالقول جميع الذين انضموا اليه . واقبل معقل ، فنصب راية الامان قائلاً : من اتى هذه الراية من الناس فهو آمن الا الخريت واصحابه الذين حاربونا في المرة الأولى . فتفرق عن الخريت معظم من كان معـــه من غير قومه .

ثم حمل معقل وهو يقول : ايها الناس ان الله ساقكم الى قوم منعوا الصدقة وارتدوا عن الاسلام ونكثوا البيعة ظلماً فقاتلوهم حتى لا تبقوا منهم احداً . واقتحمت الخيل الخيل ،ودارت رحى الحرب . ثم ان النعمان بن صهبان الراسبي ابصر الخريت يجول في الساحة ويحرض قومه . فطعنه طعنة ازاله بها عن فرسه . ثم شهر السيفان فكان سيف النعمان اسبق الى عنق الخريت فخر على الارض مضرجا بدمه وجعل النعمان ينادي : هــذا الخريت الفاسق قد قتل . فدب الذعر في القلوب ولوت الخيل اعناقها فراراً من السيف ، وقتل بعد الخريت مئة وسبعون رجلا من الخوارج واتباع رأيه . وقضت الحال بان يلجأ فريق من هؤلاء القوم الى معاوية في الشام ويبايعوه على الموت . وعلي يرى انه خير للخلافة ان ينصرف عنه هؤلاء المترددون ، ليعرف اعداءه ويحذر الخارجين عن طاعته ...

* * *

معاوية واهل الشام من هذه الناحية والخوارج واتباعهم من الناحية الاخرى يخلقون الحادثات في الاقاليم الآمنة ، ويعكرون على امير المؤمنين صفو العيش . وامير المؤمنين رضي الله عنه جبار صلب العود يستهين بالاخطار ويخمد النار مسترشداً برأي اصحابه مستعيناً بالله . اجل كان على علي وهو خليفة المسلمين وسيدهم الاكبر ان يثبت في وجه العداوتين القاهرتين عداوة الخوارج وعداوة الشام ويقابل الدهاء بالدهاء والسيف بالسيف . على انه كان يؤثر القضاء على الخوارج قبل ان تجمعه الميادين بجيوش معاوية في الشام او العراق .

ان الخوارج خطر على الخلافة ، لا يستهان به . يحتجبون زمناً وراء الجدران ، حتى اذا اشتد ساعدهم خرجوا والسيوف في الايدي ليقرضوا اركان الملك . وكيف يصبر الخليفة على هؤلاء الرجال ، الذين كانوا اتباعاً له فامسوا بين ليلة وضحاها ، شر الاعداء ..

يحارب الخوارج ويقضي على تلك الدعوة الغريبة التي حملوا لواءها ، ودعوا اليها المسلمين ، ثم ينظر وهو عزيز في الكوفة وله العراق والحجاز وفارس واليمن في أمر القضاء على العدو الاخر ، الذي يحاول ان يسلبه الخلافة ، ويستولي على الملك قطعة بعد قطعة . وقد خيل اليه ، ان البقية الباقية ، من طائفة الخوارج ، لن تحمل سيفا بعد واقعة النهروان ، وقد تسكت على غل الى الابد . ولكنها لم تسكت ، فقد خرج أشرس بن عوف الشيباني وهو منها ، حاملاً في الانبار ، علم الحرب .

فوجه اليه امير المؤمنين ، قائداً من قواده ، يدعى الابرش بن حسان في قطعة من الجيش . واقتتل الفريقان في الانبار ، فقتل أشرس . ثم خرج هلال بن علفة « من تيم الرباب » ومعه اخوه مجالد ، فأمر علي معقل بن قيس بان يبرز اليه . ولم يلبث هلال حتى قتل .

وبينا القوم يظنون ان الامر قد انتهى خرج رجل ثالث يقال له الاشهب بن بشر من بني بجيلة ، ومعه رجاله . ولم يشأ الا ان يجول في الساحة التي قتل فيها هلال واصحابه . فأتاه جارية بن قدامة السعدي ، فقتله وقتل اصحابه ، ورجع

جيش امير المؤمنين ، وهو ينشد اناشيد النصر . ولكن الامر لم ينته ، فقد بلغ علياً ، ان خارجياً رابعاً يدعى سعيد بن قفل من تيم الله ، يصول ويجول عنـد المدائن ، ووراءه طوائف من العرب . فبعث علي الى سعد بن مسعود يأمره ان يضع فيهم السيف ، فقتلهم سعد في السنة الثامنة والثلاثين ، في شهر رجب ، وبعث برسله الى الكوفة يحملون البشرى الى علي .

ولكن حدث بعد شهر ، ما لم يكن يخطر لأحد ، فقـد برز الى الميدان ، خارجي آخر هو ابو مريم السعدي ، ورفع صوته بالدعوة الى القتال .. وليس غريباً ، ان ينتصر الرجل لأصحابه ، ويحمل السيف كما حملوه ، بل الغرابة ، في تلك الجرأة ، التي هي مظهر من مظاهر الجنون .. رفع صوته ، في ناحية من نواحي فارس ثم مشى وهو لا يبالي، حتى قارب الكوفة عاصمة الخلافة ،مستخفاً بأمير المؤمنين وابطال المسلمين !!

فأرسل اليه علي ، يدعوه الى البيعة ودخول الكوفة، فقال للرسول : ليس بيننا وبين علي غير الحرب !! وهي جرأة لم يرَ مثلها من خارجي ..

فقال امير المؤمنين لشريح بن هانىء : اتكفيني هذا المجنون ؟

— اجل ، وسأحمل اليك رأسه .

قال : اخرج اليه غداً في سبعمائة من الرجال .

فزحف شريح ، في اليوم الثاني ، ولم يلبث حتى لقي الخوارج ، بعد خمسة فراسخ من الكوفة ، وهم اربعمائة . وقبل ان يخاطبهم بالحسنى ، ويدعوهم ثانية الى الدخول في الطاعة حملوا عليه ، وفاجأوه بالسيوف والرماح !!! فثبت لهم في وضح النهار ولكن اصحابه تراجعوا عنه قبل ان يجن الليل ولم يبق منهم حوله غير مائتين !

وأكرهه ابو مريم ، على الالتجاء الى قرية صغيرة مع بعض اصحابه واكره البعض الاخر على الفرار ، راجعين الى الكوفة .

فرأى امير المؤمنين الشجاع ان يخرج بنفسه، وكان يقول: لقد طمع الخوارج حتى ارادوا ان يغتصبوا دار الخلافة .

وأمر جارية بن قدامة ان يمشي في الطليعة . فسار جارية ودعاهم الى الطاعة، وحذرهم القتل .

ثم قدم علي فدعاهم مثله ، فلم يجيبوا ، وأبوا إلا القتال ، فأحاط بهم عندئذ جيش علي ووضع فيهم السيف حتى قتل ابو مريم وقتل رجاله لم يسلم منهم غير خمسين . وكان ذلك في شهر رمضان .

وصفا العراق بعد ذلك لعلي ، من هـــذه الناحية . ولم يبق الا ان يستعين بالقوة والدهاء ليصفو له الجو من الناحية الاخرى ، ناحية الشام . وقد عظم شأن معاوية وبعدت هيبته .

* * *

– ١٠٠ –

دخلت السنة التاسعة والثلاثون . وقد رأى معاوية ان الحظ بسم له في مصر ، فمن الرأي ان يمديده الى الاقطار الاخرى فقد يبسم له هذا الحظ في كل قطر . نعم ، ان معاوية الطامع بالعرش لا تكفيه مصر والشام ، وليس من العدالة والحكمة ان تضيق به الارض فيكون له اقليمان... وتتسع لعلي فيكون له بضعة اقاليم !!! العراق وفارس ، والحجاز واليمن ملك واسع فسيح الجوانب ، يعز على معاوية ان يكون كله خاضعاً لعلي .

وكيف يستقيم له امر الخلافة اذا هو لم يسلب علياً حقه ، ويجعل السيف رسوله، الى هذه البلاد الآمنة التي تخفق فيها اعلام أمير المؤمنين. وما هو الحق في نظر معاوية ؟ ان الحق للسيف.. وللقوي ان يصعد الى العلياء على جثث الابرياء. اذن فليزرع معاوية الموت في كل بلد ، ليحصد المجد .. وليجري الدم البريء في كل قطر ليتم له امر الملك .

بدأ بالعراق ، فأرسل النعمان بن بشير ، في الف رجل الى عين التمر ، وفيها مالك بن كعب في الف رجل من رجال علي .

وكان مالك قد أذن لاصحابه فأتوا الكوفة ، ولم يبق معه غير مئة رجل . فلما عرف ان نعمان زاحف اليه ، كتب الى امير المؤمنين يستمده ، ويسأله ان يتعجل في ارسال الجيش . فأمر علي الناس بالخروج ، فتثاقلوا ...

وأقبل النعمان الى عين التمر ، وليس عند مالك غير من ذكرنا من الرجال ، فلم يستطع الا ان يستعين ، بمخنف بن سليم ، وهو قريب منه ، ويجعل سور البلد وراء اصحابه ، ريثما يصل اليـــه جيش امير المؤمنين . وسعّر النعمان الحرب ، فقاتل مالك وهـو مستند الى السور ، ثم اقبل عبد الرحمن بن مخنف في خمسين رجلاً ، وقد كسروا اغماد سيوفهم واستقتلوا . فلما رآهم اهل الشام ، انهزموا عند المساء ، وهم يظنون انهم نجدة بعث بها علي من الكوفة . فتبعهم مالك حتى خرجوا من ارضه ، وامعنوا في السهل .

وأمير المؤمنين في الكوفة ، يخطب الناس ويقول :

يا اهل الكوفة ، كلما سمعتم بجمع من اهل الشام لجأ كل رجل منكم الى بيته واغلق عليه بابه ... لا احرار عند النداء ، ولا اخوان عند النجاء ... عمي لا يبصرون ، وبكم لا ينطقون.. وصم لا يسمعون.. انا لله وانا اليه راجعون .. حتى انتهى اليه ان رجال عين التمر ظفروا بعدوهم .. ولكن بلغه من الناحيـة الاخرى ، ان سفيان بن عوف ، من قواد الشام ، زحف الى الانبار في ستة الاف رجل .

وعامل علي على الانبار ، كميل بن زياد ، وقد بلغه ، قبل مجيء سفيان بن عوف ، ان قوماً من العرب زاحفون اليه فسار اليهم، ليوقع بهم ، بغير امر امير المؤمنين .

فلما قدم جيش الشام ، كان كميل غائباً ، وليس في الانبـــار غير مئتين من الرجال فطمع سفيان باصحـــاب علي لقلتهم ، وأحاط بهم بجيشه الكثير من النواحي الاربع ، ففرقهم ، وقتل سيدهم وهو اشرس بن حســـان البكري ، وثلاثين من رجـاله . واحتمل مـا في الانبار من امـوال اهلها ، ورجـع الى معـاوية .

فغضب امير المؤمنين على كميل بن زياد ، وكتب اليه ينكر عليه خروجه من

الانبار ، بدون اذنه . ثم امر رجاله بان يتبعوا اهل الشام ويسترجعوا ما اخذوه ففعلوا ولكنهم لم يدركوهم .

وبعد ايام أقبل عبدالله بن مسعده الى تيماء ، بأمر معاوية، يضم اليه من يمر به من اهل البادية ، ويقتل من عصاه . واجتمع اليه بشر كثير . فارسل علي ، المسيب بن نجبة في ألفي رجل ؛ فلحق بعبدالله بتيماء وتلاحمت سيوف الجيشين، عند غروب الشمس . وكان المسيب بطلاً شجاعاً تعرفه العرب ، فحمل على ابن مسعدة فضربه ثلاث ضربات لا يريد قتله وهو يقول له : النجاة ....

فدخل ابن مسعدة وطائفة من جيشه ، حصناً هناك ، وهرب الذين نجوا من السيف الى الشام . ومرّ على اهل الحصن ثلاثة ايام ، ألقى المسيب بعدها الحطب في الباب وأضرم النار يريد ان يحرق من فيه . والمسيب من بني فزارة ، وابن مسعدة من هؤلاء ... فلما رأى القوم انهم اشرفوا على الهلاك ، اطلوا حتى اشرفوا على الجيش وجعلوا يقولون : يا مسيب قومك .. فرق لهم . وامر بالنار فاطفئت ثم قال لاصحابه : خبرني جواسيس الجيش ان جنداً من الشام سيفاجئنا غداً ...

فقال له عبد الرحمن بن شبيب : انا اكفيك امر هذا الجند اذا اردت . فأبى ذلك عليه ، فقال له عندئذ : غششت امير المؤمنين وداهنت في الأمر . فتراجع المسيب ولم يبال بقوله .

وعندما بلغ علياً ذلك ، انتهى اليه ان معاوية وجه الضحاك بن قيس الى نواحي الحيرة ، وامره بأن يغير على الاعراب الذين هم في طاعة علي ، وجعل وراءه ثلاثة آلاف من رجاله . ففعل الضحاك ما امره به ، ووضع سيفه في اعناق الناس ويده على اموالهم حتى اغار على موضع يقال له القطقطانة . فارسل اليه علي ، حجر بن عدي ، في اربعة آلاف ، اعطى كل واحد منهم خمسين درهماً ، وامرهم بأن يضربوا الضحاك ضربة لا يجسر غيره بعدها ، على الزحف الى العراق .

ومشى حجر حتى وقعت العين على العين، واقتتل الجيشان . فرأى الضحاك ان الفرار خير له من القتال . وتراجع الى تدمر ، فلحق به حجر فقتل من

اصحابه بضعة عشر رجلاً ثم حجز الليل بين الجيشين . وعندما طلع الصباح كان الضحاك ومن معه في طريقهم الى الشام راجعين الى سيدهم فراراً من السيف.
فرأى معاوية ان يسير بنفسه الى حدود العراق فيتبين قوى امير المؤمنين ويغزو اذا طاب له الغزو . ولم يلبث حتى غادر الشام ، ولكنه عندما انتهى الى دجلة ملأت هيبة امير المؤمنين نفسه فرجع دون ان يشهر سيفاً .

ثم دعا اليه وهو في دمشق ، يزيد بن شجرة فقال له : اريد ان ابعث بك الى مكة لتقيم الحج للناس ، وتأخذ لي البيعة ، وتنفي عن مكة عامل علي!
قال : والرجال ؟
- ثلاثة آلاف .
قال : اني فاعل فجهز الجيش .
فاختار معاوية رجاله ، وامر الجيش بالمسير ، وكان عامل علي ، على مكة قثم بن عباس . فلما بلغه خبر يزيد ، أعلم اهل مكة بالامر ودعاهم الى حرب اهل الشام فلم يجيبوه !..
فقال شيبة بن عثمان : سمعنا واطعنا .
فعول ابن عباس على ترك مكة والالتجاء الى بعض الشعاب . وكتب الى امير المؤمنين يسأله ان يمده بالجيش ، فاذا فعل قاتل الشاميين والا كان له عذر..
فنهاه رجل ، يدعى ابا سعيد الخدري ، عن ترك مكة وقال له : اقم فان رأيت منهم القتال وعندك قوة ، فاعمل برأيك والا فانت قادر على الفرار عندما تشاء.
فأقام وقد تهيأ لما اشاروا عليه به . وقدم اهل الشـام فلم يعرضوا لقتال احد وكان يزيد بن شجرة ينادي في الناس : انتم آمنون الا من قاتلنا ..

ثم استدعى ابا سعيد الخدري وقال له : اريد الالحاد في الحرم ولو شئت لفعلت لما في اميركم من الضعف ، فقل له يعتزل الصلاة بالناس واعتزلها انا ويختار الناس رجلاً يصلي بهم .
فنقل ابو سعيد ما قاله يزيد الى ابن عباس . فاعتزل الصلاة واختار الناس شيبة بن عثمان فصلى وحج بهم . فلما قضى الناس حجهم غادر يزيد مكة راجعاً الى الشام وقد رأى ان لا يعرض لامر البيعة .

واقبلت بعد خروجه خيل علي وعليها معقل بن قيس . فقص عليهم القوم ما فعله يزيد . فادر كوهم وقد رحلوا عن وادي القرى فظفروا بطائفة منهم فأخذوهم اسرى واخذوا ما معهم ورجعوا بهم الى امير المؤمنين . فكتب معاوية الى امير المؤمنين يسأله ان يطلق اسراه ويطلق هو له سبعة رجال من تغلب اسرهم الحرث التنوخي .ففعل وانصرف كل اسير الى بلاد قومه .

وقام في اذهان الناس عندئذ ان معاوية سيكف عن القتال ولكنه لم يهدأ بل كان يسير رجاله الى جميع النواحي ليسعروا النار . بعث بعبد الرحمن ابن قباث إلى بلاد الجزيرة وعليها شبيب بن عامر من أنصار علي . وكان شبيب يومئذ في خراسان . فكتب إلى كميل بن زياد يطلب اليه أن يقاتل عبد الرحمن ويقف في وجهه ريثما يعود .

فمشى ابن زياد برجاله حتى لقي جيش الشام ، فقاتله قتالا شديداً بسمله بعده النصر . ونقل رجاله البشرى إلى أمير المؤمنين فرضي علي عنه وأجابه جواباً حسناً ، وكان ساخطاً عليه ، كما قرأت .

ثم أقبل شبيب من نصيبين ، فرأى أن الأمر قد انتهى فهنأ ابن زياد بالنصر ، ودفع خيله يريد أن يلحق بأهل الشام ، فلم يستطع ، فعبر الفرات ، وأغار على أنصار معاوية حتى بلغ بعلبك . فوجه اليه معاوية حبيب بن مسلمة فلم يدركه .

وقد أغار شبيب ، وهو راجع ، على الرقة وما حولها ، فلم يدع لأهل الشام ماشية إلا استاقها ، وأخذ الخيل والسلاح وعاد إلى نصيبين . فكتب إلى علي ، ينهاه عن أخذ أموال الناس ، إلا الخيل والسلاح الذي يقاتلون به ، وجعل يقول لمن حوله : رحم الله شبيباً فقد أبعد الغارة ، وعجل الأنصار .

وكان زهير بن مكحول العامري ، يأخذ صدقات الناس بأمر معاوية في ناحية أخرى من الجزيرة . فأرسل علي اليه ثلاثة من القواد : جعفر بن عبد الله الأشجعي وعروة بن العشبة ، والجلاس بن عمير الكلبي ، ليكونوا اعواناً لأهل طاعته . فوافى الثلاثة زهيراً فاقتتلوا . ولكنهم فشلوا ، وقتل جعفر بن عبد الله ، وفر الجلاس وابن العشبة راجعين إلى الكوفة ، وابن العشبة ، على فرس من أفراس زهير بن مكحول .

فقال له علي : ليست هذه الفرس لك ....
قال : انها من أفراس زهير .
فقال : يحملك عدونا على فرس له وتمثل بين يدي أمير المؤمنين زاعماً انك عجزت عن الدفاع ؟..
وأقبل يعنفه ويلومه ، ثم ضربه بالدرة التي في يده وكان يقول : لقد بلغنا انك عاهدت عدونا على الفرار ..

فغضب عروة ولم يلبث حتى غادر الكوفة لاحقاً بمعاوية عارضاً عليه سيفه ، ومن معه من قومه . وكان أهل دومة الجندل ، قد امتنعوا من بيعة علي ومعاوية واعتزلوا الجيشين المتحاربين لا يجردون سيفاً . فجاء مسلم بن عقبة المري ، يدعوهم إلى طاعة معاوية فلم يجيبوه . ثم لم يشعر مسلم ، الا وقد وافاه ، مالك بن كعب الهمداني في جيش من الكوفة ففر من وجهه ، وهو واثق بأن الفرار ينقذه وأصحابه من الموت .
وأقام مالك بدومة الجندل ، أياماً ، يدعو أهلها الى بيعة علي وهم يقولون له: لا نبايع حتى يجتمع الناس على خليفة .. فانصرف راجعاً وهو لا يرى ان يخضعهم بالسيف .

وقبل ان تدخل السنة الاربعون ، انتهى الى علي ، ان اهل فارس وكرمان، كسروا الخراج ، واخرج اهل كل ناحية عاملهم ، وطرد اهل فارس ، العامل الاكبر ، سهل بن حنيف . فاستشار الناس ، فقال له جارية بن قدامة : الا ادلك يا امير المؤمنين ، على رجل صلب الراي ، عالم بالسياسة ، يكفيك امرهم ، ويكون عند حسن ظنك به ؟
قال : من هو ؟
قال : زياد بن امية .
وكان زياد في البصرة .
فأمر علي ، عبد الله بن عباس ، امير البصرة ، ان يولي زياداً . فسيره ابن عباس الى فارس ، في جيش كثير .
فوطىء بذلك الجيش ، ذلك القطر الواسع ، وكان قد اضطرب ، وجعل

يعد من يقاتل تحت لوائه ويمينه ، ويخوف من امتنع ، ثم امعن في الدهاءفضرب بعضهم بالبعض الآخر واقبلت هذه الفئة تدل على عورة الفئة الاخرى حتى صفت له فارس واستقام له الامر . فطابت نفس امير المؤمنين ، وعول على اتخاذ جميع الوسائل التي يقضي معها على معاوية الذي ينازعة السلطان .

* * *

- ١٠١ -

اقبلت السنة الاربعون ، والسيوف لم تغمد ، ودماء الابرياء لم تجف عن وجه الارض ، والناس في خوف مستمر من الحرب . وكان مجلس معاوية يضم قواده وانصاره ، وهم ينظرون في امر انتزاع الخلافة من امير المؤمنين . ومعاويةمطرق لا يقول كلمة . ثم رفع راسه قائلا : اين بسر بن ابي ارطأة ؟

فقال بسر : اني هنا يا مولاي .

قال : لقد راينا ان نبعث بك الى الحجاز واليمن .

قال : اما الحجاز فقد بعثت اليه يزيد بن شجرة فلم يفعل شيئا ، واما اليمن فأنا لهـــا .

قال : لو فعل يزيد شيئا لما خطر لنا ان نوجهك اليوم ، تذهب الى المدينة ، ومنها الى مكة ، ثم تأتي اليمن فتصنع ما يطيب لك على ان يبايعنا الناس .

قال : اقتل من اساء وابقي على من اشاء ؟

– اجل ، ونك ان تجعل صدور الناس ، من انصارعلي ،غمداً لسيفكفنحن لن نسألك عما تفعل .

قال : رضيت ، وسأسير بعد بضعة ايام .

وما لبث حتى خرج من الشام يريد المدينة، فلما قدمها ،فرابوايوبالانصاري عامل علي ، الى علي بالكوفة ، وهو شاعر بأنه عاجز عن قتال بسر. وخلا الجو لابن ابي ارطأة ، ولم يقاتله احد.

فصعد منبر المدينة فنادى عليه : شيخي شيخي عهدته هنا بالامس فـأين هو اليوم ؟ وهو يعني عثمان بنعفان .

ثم قال : والله لولا ما عهد الي معاوية ما تركت بالمدينة صبيا ..!

ثم ارسل الى بني سلمة فقال : والله ما لكم عندي امان حتى تأتوني بجابر بن عبد الله . وجابر هذا من وجوه الناس .

فانطلق الى ام سلمة زوج النبي فقال لها و ماذا ترين ؟ ان ابن ابي ارطـــأة يريد ان ابايع معاوية وهي بيعة ضلالة وقد خشيت ان اقتل .

قالت : ارى ان تبايع فقد امرت ابني عمر وابن زمعة ان يبايعا .

فأتاه جابر فبايع ، ثم عمد الى الشدة ، فهدم منـــازل القوم الذين فروا من المدينة دون ان يبايعوا مولاه . ومكث اياما ثم سار الى مكة . فخاف ابو موسى الاشعري ان يقتله فهرب منه .

وجعل هو يكره الناس ، على البيعة والناس يبايعون خوفا من السيف حتى لم يبق منهم احد . فلما راى ان امره في مكة قد انتهى ، مشى الى اليمن ، وعامل علي عليها ، عبيد الله بن عباس ، شقيق عبد الله . ففعل عبيد الله كما فعل ابو ايوب الانصاري .. اي انه لجأ الى الكوفة . واستخلف على اليمن ، عبد الله بن عبد المدان الحارثي . فأتاه بسر فقتله وقتل ابنه .

ثم اخذ ابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس وكانا بالبادية عنـــد رجل من بني كنانة وطاب له ان يقتلهما ، فقال له الكناني : لماذا تقتل هذين ولا ذنب لهما ؟ اقتلني معهما . فجرد سيفه ، وجعل يضربه حتى قتله !! ثم جعل يلهو ، بالنظر الى دماء الغلامين تسيل عند قدميه .. ثم أمر بهما فدفنا !

فخرجت نساء بني كنانة يندبن ، وقامت امراة منهن تقول له : قتلت الرجال فعلام تقتل الغلمان ؟ والله ما كانوا يفعلون هذا في الجاهلية والاسلام والله يا ابن ابي ارطاة ، ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير لسلطان سوء ...

وقتل بسر في غزوته ، جماعة من شيعة علي في اليمن . وكان الخبر قد بلـغ عليا . فأرسل جارية بن قدامة السعدي في الفين ، ووهب بن مسعود في الفـين وامرهما بأن يتبعا آثار بسر . فسار جارية حتى اتى نجران ، فقتل من فيها من شيعة عثمان ، وهرب بسر واصحابه منه .

فلحق به جارية الى مكة ، فهرب منه ، فقال عندئذ للقوم : بايعوا امـــير

المؤمنين .

فقالوا : قد هلك امير المؤمنين ... فمن نبايـع ؟

بايعوا الحسن ابنه .

فبايعوا مكرهين . ثم رجع حتى أتى المدينة وأبو هريرة يصلي الناس . فلما عرف ان جارية قد أقبل ترك المدينة واستخفى .

فقال جارية : لو وجدته لقتلته ، ثم طلب الى أهل المدينة ان يبايعوا الحسن ففعلوا : ولم يبق الا ان ينصرف الى الكوفة .

وكان علي ينتظر رجوعه ، فلما مثل بين يديه قال له : خبرني كيف قتل ابن أبي ارطاة ، ابني عبيد الله ؟

فنقل اليه ما سمعه من القوم ، فجزع امير المؤمنين جزعاً شديداً ودعا على بسر فقال : اللهم اسلبه دينه وعقله . ففقد بسر بعد ذلك عقله ، فكان يهذي بالسيف ، ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب ، ويجعل بين يديه زق منفوخ يضربه به ، ولم يزل كذلك حتى مات .

وذكر ابن الأثير وسواه ، ان عبيد الله ابن عباس دخل على معاوية ، بعد ان استقام له الأمر ، وعنده بسر بن أبي أرطأة ؛ فقـال لبسر : وددت ان الارض انبتتني عندك حين قتلت ولدي .

فقال بسر هاك سيفي . .

فاهوى عبيد الله ليتناوله فأخذه معاوية وقال لبسر : أخزاك الله شيخاً قد خرفت ، والله لو تمكن منه لبدأ بي .

قال عبيد الله : « اجل ، ثم ثنيت به .....»

وعند ما رأى المسلمون ، ان الأمر قد اشتد ، بين معاوية وأمير المؤمنين ، سعى عقلاؤهم ليجعلوا هدنة بين الاثنين ، ووضعوا الحرب ، على ان تكون الشام لمعاوية ، والعراق والأقاليم الأخرى ، لعلي ، دون ان يدخل احدهما بلد الآخر غازيا . وتنفس المسلمون الصعداء ، وامسوا احراراً في الرواح والمجيء ، ينشر الأمن ظله في جوهم . ويمد السلام فوقهم رواقه ، والاقدار ، تمشي الى هدفها ، جائرة ، طائشة ، لا ترحم الابرياء ولا تلوي على أحد ...

* * *

في هذه السنة خرج عبدالله بن عباس من البصرة ، ولحق بمكة ، وهو يأبى ان يكون عاملاً لعلي . وسبب خروجه ، انه مر وهو في البصرة ، بأبي الأسود الدؤلي ، ولم يكن من المقربين اليه ، فقال له : لو كنت من البهائم لكنت جملا ، ولو كنت راعياً لما بلغت المرعى ..

فكتب ابو الاسود الى علي : اما بعد فان الله عز وجل جعلك والياً مؤتمناً وقد بلوناك فوجدناك عظيم الامانة ناصحاً للرعية ، تكف نفسك عن دنياهم ولا تأكل اموالهم ولا ترتشي في احكامهم ، وان ابن عمك قد اكل ما تحت يديه بغير علمك ولم يسعني كتمانك رحمك الله فانظر في الأمر واكتب الي برأيك .

فكتب اليه علي : اما بعد ، فمثلك نصح الإمام والامة ، ووالى الحق ، وقد كتبت الى صاحبك فيما كتبت الي .

وكتب الى ابن عباس في ذلك ، فأجابه ابن عباس : اما بعد فان الذي بلغك باطل ، واني ضابط لما تحت يدي وحافظ له فلا تصدق الناس ..

فكتب اليه : خبرني ما اخذت من الجزية ومن اين أخذت ؟

فغضب ابن عباس ، وتناول قلمه فكتب : اما بعــد فابعث الى عملك من احببت فاني تارك البصرة والسلام .

ودعا اخوانه ؛ من بني هلال بن عامر ، فاجتمعت معه قيس كلها ؛ فحمل مالا وقال : هذه ارزاقنا اجتمعت .

فتبعه اهل البصرة يريدون استرجاع المال ، فقال بنو قيس : والله لا يوصل اليه وفينا عين تطرف .

فقال صبرة بن شيمان : يا معشر الازد ، ان بني قيس اخواننا وجيراننــا واعواننا على العدو ، وان الذي يصيبكم من هذا المال لقليل وهم لكم خير منـه فارجعوا . فانصرفوا ، وانتهت منذ ذلك اليوم ؛ ولاية ابن عبــاس . وكانت الليالي تتمخض ، لتلد حادثا يهتز له الاسلام .

* * *

اقام الخوارج بالكوفة وغيرها ساكتين لاجئين الى الهدوء. على انهم لم يكونوا من اهل الطاعة ، وانما كان يخشون ان يضع أمير المؤمنين سيفه في رقاب البقية الباقية . كانوا مخلصين في الظاهر ، واشراراً خونــة ، وراء الجدران . انهم لا يحبون احداً ولا يريدون الا ان ينقذوا الاسلام من كبار الامراء ورجال الحكم فيه ! وكلما ذكروا واقعة النهر ، ذكروا اخوانهم الذين قتلهم جيش علي ، وغلت الصدور حقداً وغضباً . اي ان النار كانت تحت الرماد .

وكان بينهم رجال يطيب لهم الموت ، في سبيل المبدأ الذي اعتنقوه . منهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، والبرك بن عبدالله التميمي ، وعمر بن بكر التيميمي السعدي .

وقد اجتمع هؤلاء الثلاثة ، فذكروا قومهم وعابوا عمــل امرائهم وكانوا يقولون : لا خير في الحياة بعد اخواننا فلو اشترينا انفسنا وقتلنا أئمة الضلال ، وارحنا منهم الاسلام ...

فقال ابن ملجم ، وكان من اهل مصر : انا اكفيكم علياً !

وقال البرك ابن عبدالله : وانا اكفيكم معاوية !

وقال عمرو بن بكر : وانا اقتل ابن العاص .

وتعاهدوا الا يرجع احدهم عن صاحبه الذي اختاره ، حتى يقتله او يموت .

واخذوا سيوفهم فسموها « سقوها السم » وجعلوا ١٧ رمضان ، موعـداً لتنفيذ الحكم الذي اجمعوا عليه . ثم سار كل واحد منهم الى الناحيه التي اختار. والخوارج في الكوفة ، يعرف بعضهم البعض الآخر . فأتاهم ابن ملجم ، ولكنه كتمهم امره ، ولم يشأ ان يبوح به ، الا لمن يثق به من هؤلاء . ثم لقي اصحابا له من تيم الرباب ، وكان علي قد قتل منهم يوم النهر ، بضعة عشر رجلاً ، وفيهم امرأة يقال لها قطام ، قتل ابوها واخوها في ذلك اليــوم وهي آية من آيات الجمال . وكانت تبغض علياً ، ولا تطيق ان يذكر احد اسمه ، وهي حاضرة .

فلما رآها ، فتن بها واحس ان قلبه يخفق على الغرام ، فاراد ان يخطبها فقالت له : لا اتزوجك حتى تشتفي لي ..!

قال : وما تريدين ؟
قالت : ثلاثة آلاف .
– وماذا ايضاً ؟
– وعبدا وقينة ..
– وهل بقي شيء ؟
– بقي ان تقتل علياً .
فقال : لم تذكري قتل علي الا لأنك لا تريدينني .

قالت : بـــلى ، التمس غرته ، فان اصبت شفيت نفسك ونفسي ونفعك العيش معي ، وان قتلت ، فالله خير من الدنيا وما فيها .

قال : اتعاهدينني على الوفاء اذا بحت لك بأمري ؟
– لقد عاهدتك .
– اذن فاعلمي اني لم اجيء الى الكوفة الا من اجل هذه الغاية .
– غاية زواجك ؟
– لا ، ان الزواج لم يخطر لي من قبل ، وانما غايتي قتل علي ، الذي وضع سيفه فينا يوم النهر ، وقبل ذلك اليوم .
– اقسم لي انك ستفعل !
– اقسم بالله الذي لا إله الا هو اني تركت مصر من اجل هذا .

فأطرقت ملياً كأنها تفكر ثم قالت : ولكني لا اريد ان تقذف بنفسك الى الهوة .

قال : أتخوفينني الآن وانت التي طلبت إليّ ان اقتل علياً .

قالت : لقد دفعني الحقد على علي منذ ساعة ، الى ان اقول ما قلت ، واما الان ...

– وماذا حدث الان ؟

– حدث ان عاطفة اخرى غلبت عاطفة الحقد ... هي .. عاطفة ...الحب الذي خفق في هذا الصدر .

فبرقت عيناه لحظة ، ثم تجهم وجهه قائلاً : انها لهجة استهزاء ..

– بل هي كلمة املاها عليّ الهوى فأنا لا ارضى بأن تتصدى لعلي ولو كان في قتله بلوغ المنى !..

– ومعنى ذلك ؟

– معناه اني اخاف ..

فقهقه ضاحكا ثم قال : لقد فهمت .

– ماذا ؟

– تخافين ان ترتجف يدي ساعة القتل فينجو علي ...

– بل اخاف ان تضربه فتتخطفك بعدها السيوف ..

فقال وهو لا يبالي : اقتله وليقتلوني بعده ..

– وهذا ما لا اريده ..

قال : أتأذنين لي ان اتحدث بجلاء .

– افعل .

– ألم تقولي الان « لا اتزوجك حتى تشتفي لي ؟ »

– بلى !

– ألم تطلبي رأس ابن ابي طالب مهراً لك ؟

– بلى ! وكنت قد اقسمت اني لا اتزوج الا الرجل الذي يحمل اليّ هـذا الرأس .

– لم انس ، ولكن الحب الذي فاجأني الساعة حجب بغضي كما قلت .. لا لا ، لم يحجبه ، ولكنه اوحى اليّ بان عاقبة القاتل ، الموت !

– ومع ذلك فأنت تريدين ان يموت علي ..

– نعم !

فقال في نفسه : انها داهية ولكنها حسناء ..

وكان جمالها قد استهواه ..

ثم قال : ان علياً سيموت ، وليس في الكوفة قوة تنقذه من هـذا السيف الذي ترين ..

قالت : لقد رأيت الآن رأيا ..

– ما هو ؟

– هو ان افتش عن رجل يساعدك في ذلك ... ويكون وراءك عندما تجرد السيف ...

– وهل تظنين ان هذا الرجل يدفع عني الموت ؟

– يكفي ان يدافع عنك حتى تفرّ ..

قال : اخشى ان يفضح سري فتسوء العاقبة .

– بل هو يكتمه جميع الناس ولو قتلوه ..

– ومتى أراه ؟

– في هذا الليل .

وبعث الى رجل من قومها يدعى وردان ، فأتاها في تلك الليلة يحجبه الظلام عن العيون .

فقالت له : اتعرف عبد الرحمن بن ملجم ؟

– اسمع انه من اخواننا وهو في مصر .

– ولكنه قدم عند الصباح ، وهذا هو .

فتصافح الرجلان. ثم قالت قطام : وهو لم يترك مصر ، الا لغرض هو غرض الخوارج المقيمين بالكوفة ... ويرجو منك ان تكون عوناً له .

قال : أيريد ان يسعر نار القتال .. ؟

– بل يريد ان يضرب ضربة يهتز لها العراق وفارس ، والحجاز والشام .

– فتمتم قائلا : يقتل الامام ؟؟

– نعم تكون أنت من ورائه !

فوضع يده علي سيفه قائلاً: ليمت هذا الامام الذي قتل قومنا ونفى اخواننا الى كل قطر .

ولكن أرى ان نكون ثلاثة ..

– وهل تعرف فتى شجاعاً من قومنا يرضى بما ترضيان به ؟

– اعرف رجلاً من بني أشجع اسمه شبيب بن بجرة .

– ويرغب في قتل علي ؟

- لا أعلم ؟

فقال عبد الرحمن : عرفت الرجل ، وهو صديق لي .

- اذن يجب ان تراه الليلة وتخاطبه بالأمر .

- وأين هو ؟

- في الناحية التي تلي المسجد .

فنظر الى قطام كأنه يسألها رأيها ، فقالت : خير لنا ان تراه في منزله فأنا لا أعرفه .

- في هذا الليل ؟

- بل في هذه الساعة وانا بانتظارك .

فنهض عبد الرحمن وهو يقول : سأعود بعد ساعة .

وخرج يتقدمه وردان حتى دخلا بيت شبيب . وكان الرجل جالساً في بهو داره وعنده عم له . فلما رأى الرجلين مد يده الى ابن ملجم قائلاً : مرحباً يا عبد الرحمن .. متى قدمت ؟

في صباح هذا اليوم .

- وأي بلد احسن من الآخر ، مصر ام الكوفة ؟

قال : تجد في مصر ما لا تجده في الكوفة وتجـــد في الكوفة ما لا تجـده في مصر .

- وهل كان محمد بن ابي بكر احب اليك من عمرو بن العاص ؟

- لم يكن لي صحبة مع محمد وليس لي صحبة مع عمرو .

- ولكنك تؤثر احدهما على الآخر ..

قال : اؤثر الرجال الذين يبذلون دنياهم في سبيل الاسلام ...

والتفت الى عم ابن بجرة ، كأنه يخشى ان يبوح بما في صدره وهو حـــاضر فقال شبيب لعمه : اتأذن لنا يا عم في الخروج الى ساحة المسجد ؟

قال : افعلوا ما يطيب لكم فأنا ذاهب . وقام فانصرف .

فقال ابن بجرة : يظهر ان عهـــد امير المؤمنين في مصر كان احب اليك من عهد معاوية .

فخفض صوته قائلاً : ليس في العهدين ما يستحق هذا الحب .!! علي يحكم الرجال بكتاب الله ولا يبالي ومعاوية لا ينظر الا الى مقعد الخلافة ، ولا يعبأ الا بالمجد الذي يمشي اليه في طريق مصبوغ بالدماء .

فسمع ابن بجرة لهجة ثائر فقال : اذن فالرجلان لا يصلحان للامر ..

– لا ، ولا يصلح غير الرجل الذي تختاره الأمة ..

– وهل نسيت ان المسلمين بايعوا علياً ؟

– بايعه الناس والسيف فوق الرؤوس ..

قال : لم يبق الا ان تبايع مصر عمرو بن العاص ، فينتهي كل شيء ...

– ان عمراً يؤثر دنياه على الآخرة ..

فضحك قائلاً : يخيل اليّ ، وانا اصغي الى ما تقول انك تريد ان يكون المسلمون فوضى لا امير لهم ...

– بل اريد ان يتولى امر المسلمين رجل يعمل بكتاب الله .

وسكت قليلاً ثم قال : ألست من الخوارج ؟

– بلى !

– وكيف تدافع عن علي ؟

– لا ادافع عنه بل احارب رجاله اذا طاب لكم ان تلجأوا من جديد الى السيف وابرز انا نفسي الى علي !

– فآنس فيه اللين ، فقال : هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟

قال : ماذا ؟

قال : قتل علي !!

ثكلتك امك .. لقد جئت شيئاً غريباً .. كيف تقدر على قتله ؟

– اكمن له في المسجد فاذا خرج الى صلاة الفجر شددنا عليه فقتلناه فان نجونا فقد شفينا انفسنا ، وان قتلنا فالله خير من الدنيا وما فيها ...

قال : ويحك ، لو كان غير علي كان اهون .

– واي شيء يصعب عليك في ذلك ؟

قال : عرفت فضله وبلاءه في الاسلام وما اجدني استلذ قتله وافرح لموتــه ..

– وكيف استلذ هو قتل اهل النهر ، العباد الصالحين ؟
– كان ذلك في الحرب .
قال : يجوز القتل في المسجد ، كما يجوز في الميدان .
– ولكن علياً اقرب الناس الى رسول الله .
– لا يلومنا رسول الله اذا فعلنا فنحن انمـــا نقتله بمن قتل من اصحابنا في ذلك اليوم ولم يزل يغريه ويعده الوعود حتى حنى راسه راضياً .
فقال له : موعد القتل ١٧ رمضان .
– عند صلاة الفجر ؟
– اجل ويقتل في الساعة نفسها عمرو بن العاص ومعاوية .
– ومن يقتلهما ؟
– يقتل الأول عمرو بن بكر ، ويقل معاوية البرك بن عبدالله .
قال : وهل رضيت بهذا يا وردان ؟
– ليس هنالك شيء احب الي من هذا ..
– وانت باق في الكوفة يا عبد الرحمن حتى يجيء اليوم الذي ذكرت ؟
– نعم وسأحتجب في احد المنازل ولا اظهر في البلد الا عندما تأتي الساعة .
وصافحه قائلاً : اتقسم الان انك ستكون عونا لي على قتل الرجل ؟
– اقسم اني سأفعل .
فانصرف ووردان معه فأتيا المرأة .
وجعل عبد الرحمن يقص عليهـا حديث ابن بجرة وهي ترتجف غضباً حتى خبرها بوعده ، فابتسمت وجعلت تناجي اباها واخاها قائلة : ان الدم البريء الذي سفكه علي يوم النهر سيكون ناراً عليه .
وكانت تقول لابن ملجم، في نهارها وليلها: اقتل علياً اكن لك الى الأبد...

* * *

– ١٠٤ –

اقبلت ليلة ١٧ رمضان ، وابن ملجم ووردان في منزل قطام والثلاثة مطرقون لا يقولون كلمة .. وكان الناظر الى وردان ، يرى وجهاً اصفر ، وعينين غائرتين

جامدتين ؛ وجبيناً مكفهراً كتب الخوف عليه سطوره . وكانت قطام ، ترفع نظرها من حين الى آخر ، لتقرأ ملامح الرجلين، وتتبين العزيمة البادية في العيون وقد قرأت الهدوء في ملامح عبد الرحمن ، والاضطراب في ملامح رفيقه ، وبدا لها بوضوح وجلاء ، ان قلب الرجل المرادي ، اشد صلابة من الحديد .

فقالت له وهي تبتسم : انها ساعة رهيبة يا عبد الرحمن ..

قال : لا ابالي بها ولو كان وراءها الموت !

– وفي اي شيء تفكر اذن ؟

– في هذا الرجل الذي ستضطرب الكوفة لقتله .

– وهل مسّت الرحمة قلبك ؟

- لا ، ولكني استعرض في مخيلتي ، هذا الموقف الذي سأقفه عند الفجر ، والسيف في يدي ، وانا انتظر خروج علي الى الصلاة !

– وهـذا معنـاه انك تخاف ان تضرب ضربة واحدة بذلك السيف !

قال : ليس لك ان تتهمي ابن ملجم بما هو بريء منه ،اني لا اعرف الخوف، ولا يخطر لي ان اتراجع عما اهمُّ به ..

– وهذا التفكير ؟

– هذا معناه اني اتصور السدة التي يخرج منها علي وانا متردد في أمرالوقوف عند بابها الخارجي .

– خير لك ان تكمن هنالك لتفاجئه بسيفك .

– وأين يقف وردان وابن بجرة ؟

– عن الجانبين .

قال : أرى ان اقف بباب المسجد من الداخل .

قالت : بين السدة والباب بضع خطوات، وقد يخرج القوم وراء عليفيصبح داخل نطاق من الرجال .

ثم قالت :ألق علياًوجهاً لوجه،فاذا اخطأه سيفكلم يخطئه السيفانالاخران. ماذا تقول انت يا وردان ؟

وكان وردان ذاهلا فقال : اما انا فعبد امتثل ما تأمريني به ..

لكنه كان يقول في نفسه : ان الله ينهانا عن ان نقتل بريئاً .

قالت : وصاحبك ابن بجرة ؟

– واما ابن بجرة فعبد يمتثل ما يأمره به عبد الرحمن ..

قالت : يطيب لي ان اراه ، فهو من قوم يقال لهم بنو اشجع وقد يكون شجاعاً .. اين هو الان ؟

– في منزله لا يخرج منه .

– اذهب وقل له ان عبد الرحمن يدعوه اليه .

فخرج الرجل وهو يلعن تلك المرأة التي اوغرت صدره، ودفعته بدهائها الى تلك الهوة البعيدة الغور .

حتى دخل على شبيب فقال له : اين سيفك ؟

فوضع يده على سيفه قائلاً : هذا هو .

قال : اتمضي في امرك ام ترجع عنه ؟

– اني ماض فيه الى النهاية .

– : لقد دنت ساعة القتل .

– وانا انتظر هذه الساعة لإنقذ الاسلام من الفتنة الدائمة ..

– اذن فاحمل سيفك ، واغلق بابك واتبعني .

– الى اين ؟

الى منزل قريب يقيم به صاحبك .

قال : خير لي ان آوي الى فراشي بضع ساعات .

– ولكن الرجل الذي يهم بقتل امير المؤمنين بعد بضع ساعات لايستسلم الى الكرى ..

فاضطرب ، وخفق قلبه ، ثم لم يلبث حتى استعاد هدوءه ونهض وهو يقول: ان الذي يهم بقتل امير المؤمنين لا يستسلم الى الكرى . ومشى وراءه وعيناه تنظران الى منزله .

فلما انتهى إلى دار قطام ، رأى حسناء فتانة ، ترسل عيناها السحر .. وابن ملجم جالساً بالقرب منها ، على وسادة من الخز ، ونور الغرام يتلألأ على وجهه.

فعرف انها قطام بنت شحنة وكان قد رآها اكثر من مرة .

فسلّم وقال : ها أنذا يا عبد الرحمن .

قال : أتعرف هذه المرأة ؟

– ومن لا يعرف الحسناء التي استهوى جمالها قلوب الناس في الكوفة ؟.. انها قطام من تيم الرباب .

فقالت : اما انا فلم أرك من قبل ، ولم يخطر لي ، ان في القوم الذين خرجوا على علي رجلا له هذه الجرأةالتي حدثني بها عبد الرحمن الان .. اتذكر قتلىالنهر من قومك ؟

اذكر ذلك ، واسمي اولئك الأبرياء الذين قتلوا باسمائهم ، ولا يصفو لي العيش الا اذا قتلت علياً بهم !

والتفت الى ابن ملجم قائلا : يظهر انها تعرف كل شيء .

– اجل ، وهي ترأس اليوم جميع خوارج الكوفة والاخوان المقيمين بمصر ، دون ان يكون فيهم رجلا يخالفها فيما تسأل :

قال : وانا من هؤلاء ، وليس لها الا ان تأمر فأطيع .

قالت : بارك الله فيك فعبد الرحمن ، لم يغال بما ذكره لي عنك ، والان .. أمستعد انت ؟

– نعم وستكون الضربة الاولى من هذا السيف !

فقالت وهي تضحك : اخشى ان تسبق عبد الرحمن الى قتل علي ؟ فيغضب ، ونحن بحاجة الى رضاه ..

فقال عبد الرحمن : ليمت علي ، وليكن قاتله ابليس فأنا لا ابالي .

باتوا يتحدثون حتى بزغ الفجر ، فهامست عندئذ عبد الرحمن قائلة : لا تنس انك ستكون عند الصباح زوجا لي ..

ودفعته بدلال الى الباب وهي تبتسم له ابتسامة الحب ، فخرج وهو يقول : حسبي وحسبك ايتها الحبيبة ، اني سأنقذ المسلمين ، بعد ساعه ، من الفتنة الطائشة التي تسيل معها الدماء ...

* * *

كان فجر ١٧ رمضــان ، فجراً رهيباً ، حدثت فيه حادثات ثلاث ، لأمير المؤمنين في الكوفة ، ولمعاوية في الشــام ، ورجل آخر في مصر ، هو غير عمرو ابن العاص .

وقد ردّدت العرب اخبار هذه الحادثات في كل قطر ، ونقلتها كتب التاريخ الى الاجيال .

قعد البرك بن عبدالله لمعاوية ، في الرواق الذي ينتهي الى المسجد ويده على قبضة السيف ، والظلام يخفي ملامح وجهه . ودنت ساعة الصلاة ، فخرج معاوية ، الى ذلك الرواق ، على عادته في كل يوم ، ووراءه بعض الامراء ، من انصاره وبني قومه . وقد تعجل في مشيه كأنه كان يفكر في أمر تمنعــه صلاة الفجر من التفكير فيه ..

فخطا البرك بضع خطوات ، وضربه من الوراء ...

فوقع السيف في عجيزته .. ولم تلبث الايدي حتى امتدت اليه ، وانتزع السيف من يده ، فقال معاوية : خذوه الى القصر .

وساعدوه في الرجوع حتى جلس في مقصورته فقال : عليَّ به .

فلما مثل بين يديه قال : ما اسمك ايها الرجل ؟

فأجابه ، وهو هادىء : البرك بن عبدالله .

– ولماذا أردت قتلي ؟

قال : نحن ثلاثة رجـــال ، عاهدنا الله على ان نقتل علياً ومعاوية وعمرو بن العاص ! وقد قتل علي في هذه الساعة .

قال : لعل أخاك الذي اراد قتله لم يقدر على ذلك ..

– بل ، فليس مع علي احد من الحراس .

فقال لمن حوله : اقتلوه فليس من الحكمة ان يبقى حيا ...

وبعث الى رجل يقال له الساعدي وكان طبيباً .

فلما تبين جرحه قال : ان ضربتك مسمومة ، فاختر اما ان احمي حديدة

فأضعها موضع السيف وإما ان أسقيك شيئاً لا يولد لك بعده ..

قال : اما النار فلا صبر لي عليها ، واما الولد ، فان في ولديّ يزيد وعبدالله ما تقر به عيني .

فسقاه دواء فبرىء ولم يولد له بعد ذلك .

وأمر عندئذ بأن يكون في القصر وحول القصر حراس لليل ، وأمر الرجال بأن يقوموا على رأسه اذا سجد . وهو اول من فعل ذلك في الاسلام .

وكان عمرو بن بكر ، قد جلس في الساعة نفسها لعمرو بن العاص عند باب المسجد .

على ان عمراً لم يخرج الى الصلاة في ذلك الفجر لألم في بطنـــه وكان قد مرّ بضعة أيام وهو لا يصلي بالناس . وكان خارجة بن ابي حبيبة صــاحب شرطته « مدير البوليس في مصر» فبعث اليه يأمره بان يصلي. وهو من بني عامر بن لؤي. فأتى خارجة المسجد والناس قد وقفوا للصلاة ، فلم يستطع ابن بكر ان يضربه عند الباب ، فدخل مع المصلين وهو يحسبه عمراً .

وقبل ان يبدأ خارجه بصلاته ضربه ذلك الخارجي بسيفه فقتله وقد قام في ذهنه انه قتل عمراً . فقبض عليه القوم ، ثم حملوا قتيلهم الى عمرو وسلموا عليه بالامارة ، وابن بكر يرى ويسمع ، فقال : اي أمير هذا ؟

قالوا عمرو بن العاص .

فاضطرب قائلاً : ومن هو الرجل الذي قتلته ؟

– خارجة بن ابي حبيبة صاحب الشرطة .

فنظر الى ابن العاص وقال : والله يا فاسق ما ظننته غيرك ..

فار تجفت شفتا عمرو وتمتم قائلاً : أردتني واراد الله خارجة ..

ثم قال : اضربوا عنقه وانقذوا الاسلام من شره . فقتلوه وكانت الاقدار كما رأيت عوناً لمعاوية وانصاره وقد نجا هو ، ونجا أمير مصر من الموت .

* * *

كانت احياء الكوفة واسواقها ، في شهر رمضان المبارك ، تغص بالوفود من اهل العراق والحجاز ونجد .. اقبلوا جميعهم يجددون عهد الطاعة لأمير المؤمنين ويعاهدونه على الدفاع عن الخلافة وقد بايعه منهم أربعون الفا على الموت .. وكان قد عول ، رضي الله عنه على الزحف بذلك الجيش الكثير الى الشام ليضرب معاوية الضربة القاضية ، ويسترجع القطر الشامي بقوة السيف . ثم يسير بعد ذلك الى مصر . ولم تكن هنالك قوة تضعف عزيمته ، وتثنيه عن المضي في امره .

رفعت المصاحف في صفين ، وطلب جيش الشام التحكيم ، فأراد وهو الخليفة الصالح الزاهد في الدنيا ان يحقن الدماء .. وأملى عليه وجدانه الطاهر ، وعظمة نفسه ان يجيب اهل الشام وهم من المسلمين ، الى ما طلبوه .. ولكنهم جعلوا الحيلة سلاحاً لهم ، ونكثوا العهد الذي كتبوه .

ولم ينظروا الا الى الخلافة يستولون عليها بالاكاذيب والرياء ، وقد بهر عيونهم نور المجد الباطل ، واستهوت نفوسهم العظمة الجوفاء . وانت قد رأيت ، اي حدث أحدثه التحكيم في صفوف المسلمين . خليفة في الكوفة ، هو ابن عم الرسول وصهره ، ينزه نفسه عن كل قبيح ، واميرٌ في الشام يستحل ما لا يحله الله ، ليسلبه الخلافة ، ويضع يده على كل شيء !

وكيف يصفو العيش لأمير المؤمنين ، ووراءه عدو صلب العود جبار ، هو أدهى رجل في العرب ، وابعد امراء المسلمين صوتا ونظراً ؟

ان الفتنة لا تخمد نارها ، والخلافة في خطر ، فعلى علي ان يمنع هذا الخطر ويخمد تلك النار . على انه لم يكن يطيب له ان ينفرد برأيه . كانت داره في الكوفة ، واسعة رحبة ، تتسع للوفود ورؤساء العشائر ، الذين قدموا يسألونه رأيه ، ويعرضون عليه السيوف . وهم يقضون ليالي رمضان ، في تلك الدار ، يحدثونه بأمر الحرب التي لا بد عنها ، وقد وثقوا بالنصر . وهم الحرب ، ومشاغل الدولة الكثيرة ، لم تكن تمنع امير المؤمنين من الصلاة والصوم .

يؤذن المؤذن ، فيركض القـــوم ركضاً الى المسجد ، ليسمعوا كلام ذلك الخطيب العظيم الذي لم يقم في الخلفاء والأمراء ابلغ منه . فاذا انتهى من الصلاة مشى الى داره وبينها وبين المسجد ، باب هو باب السدة يدخل منه . ومشت خلفه وفود الامراء معها بنوه واهله واركان دولته . حتى يجلسوا ويتحدثوا بما يطيب لهم ،وقد تمر الساعات وهو ساكت ، يفكر في هذه الدماء البريئة ، التي ستخضب ارض الشام اذا قدم الشام غازيا . وكان صدره يضيق ، كلما خطر له ان القوم الذين بايعوه على الموت ، سيبذلون انفسهم في سبيله، بل كان يضطرب والبكاء يتردد في صدره ، عندما ينظر ، بقوة التصور الى جثث الناس تدوسها حوافر الخيل في ساحة القتال دفاعاً عنه ..

ولا يتعزى الا اذا رجع الى ايمانه ، وقام في ذهنه ، ان الحرب دفاع عـــن الخلافة التي سلمها اليه المسلمون . وانك لتستطيـع ان تتبين ، ما في صدر امير المؤمنين من خوف !! اجل ، كان الخوف يملأ قلب علي ! وماذا يخـاف ، وهو الفارس الباسل الشجاع الذي يقتحم الاهوال ، ويستهين بالموت ؟

انه يخاف الله ، ويخشى ان يأتي في خلافته امراً لا يرضيه عزّ وجل .. وذلك شأن الرجال ، اصحاب الخلق النبيل ، والضمائر الطاهرة ..

دخل رمضان ، وهـــو يستقبل الوفود ويبتسم لأنصاره ، ويقضي فروض دينـــه صادق العقيدة ، مؤمناً بالله ، ولكن نفسه كانت تحدثه بأن حياته في خطر !!.

وكان يتعشى ليلة عند الحسن ، وليلة عند حسين ، وليلة عند جعفر لا يأكل غير ثلاث لقم ثم يقول : احب ان يأتيني امر الله وانا جائع ..

فلما كانت ليلة ١٧ رمضان ، تعشى القوم جميعهم في منزله ، وهو لا يأكل الا قليلاً والناس ينظرون اليه ، وقد ملأت هيبته النفوس . وكأنه كان عالماً ان امر الله سيأتيه . ولم ينم تلك الليلة الا غراراً ، والموت ، بصورته الرائعة ، ماثل امام عينيه ، ولكنه لم يكن خائفاً .

* * *

بزغ الفجر ، فخرج عبد الرحمن بن ملجم ، وشبيب بن بجرة ، ووردان من منزل قطام بنت شحنة ، يريدون المسجد . وسمعوا وهم ذاهبون أذان السحر ، فتعجلوا في مشيهم حتى يدخلوا المسجد قبل دخول امير المؤمنين . وكان عبد الرحمن ملثما ، تستر جسمه عباءة فضفاضة يخفي تحتها سيفه المسموم ، والاثنان الاخران سافرين ، وسيفاهما داخل الثياب . فلما انتهوا الى باب السدة ، وقف ابن ملجم على بعد بضع خطوات،ووقف رفيقاه عن الجانبين وقد استند كل منهم الى الجدار. ووردان يضطرب كما يضطرب المحموم، ويستعين بالجدار كي لا يسقط على الارض .

والصمت الرهيب يسود المسجد فلا يسمع فيه غير همس المجرمين .. ومرت لحظة ، كانت في نظر الثلاثة أطول من عام .

عبد الرحمن وابن بجرة يريدان ان يخرج الامام ليقضيا عليه ، ووردان لا يصدق متى يضرب رفيقاه ضربتيهما ليفرّ . ان الخوف قد استولى عليه وهو يخشى ان يقتله . وكان امير المؤمنين قد خرج من منزله . فأقبل الاوز يصيح في وجهه ...

فطردوهنّ عنه فقال : دعوهنّ فانهن نوائح !!

ومشى على مهل ، وامامه ابن النباح المؤذن ووراءه ولده الحسن وبعض رجال مشورته ؛ حتى انتهى الى باب السدة . ففتح ، ودخل منه ، ثم وقف وجعل ينادي : ايها الناس ، الصلاة .. الصلاة . فوثب ابن بجرة ، من الجانب الذي احتجب وراءه،وضربه ضربة كان يظن انها ستبري عنقه. ولكن السيف وقع بعضادة الباب . فالتفت علي وابن النباح الى ذلك الجانب ، ومشى الحسن ومن معه الى الامام وهم لا يعلمون اي حادث حدث لأمير المؤمنين .

وبينا بعضهم ينظر الى البعض الآخر ، والعيون تسأل العيون ، .. دنا ابن ملجم من امير المؤمنين ، ورفع سيفه قائلاً : الحكم لله لا لك يا علي .. وأهوى بالسيف ، فأصابت الضربة جبهة الامام وتفجرت الدماء ..

فصاح قائلاً : لا يفوتنكم الرجل . فأخذوه بالأيدي ، وانتزعوا سيفه ، وهو رابط الجأش . ثم أبصروا رجلين يخرجان من الباب وفي يد أحدهما سيف ، وهما وردان وابن بجرة .

فلحق بهما رجل من حضرموت يقال له عويمر ، ولم يلبث حتى أدرك شبيباً فأخذ سيفه وجلس على صدره يهم بان يضربه به .

واقبل الناس في تلك الساعة يطلبون ابن بجرة. فلما رآه الحضرمي ، وسيف ابن بجرة في يده خاف ان يظن الناس انه هو القاتل فهرب ونجا شبيب متغلغلاً في الصفوف . وكان وردان قد انتهى الى منزله . فأتاه رجل عن أهله فقال له : ماذا جرى فى المسجد ؟

قال : ضرب عبدالرحمن بن ملجم امير المؤمنين .

– وقتل عليّ ؟

– ارى انه سيموت .

وكيف جرؤ ابن ملجم على ذلك وأمير المؤمنين بين امرائه وبنيه ؟

– ساعده اثنان ، احدهما شبيب بن بجرة ، والآخر أنا ... ولكني فررت ولم اجرد السيف ولم يخطر لي ان اضرب علياً ..

– ولكنك كنت عوناً للقاتل ...

– أجل !

فانصرف الرجل وهو لا يقول كلمة ..! ثم رجع ومعه سيفه فجعل يضرب به وردان حتى قتله !.. ورددت الكوفة خبر ذلك الحادث الغريب ومشت صفوف أهلها الى منزل خليفتهم يسألون الله ان يشفيه ...

– * * * –

– ١٠٨ –

قال امير المؤمنين ، لجعدة بن هبيرة ، وهو ابن اخته : تقدم وصلّ بالناس.

وقال لمن حوله : خذوا الرجل اليّ بعد الصلاة . ورجع الى منزله ، فعصبوا جبهته ، وجلس في فراشه .

فلما صلىّ الناس حملوا ابن ملجم والقيد في يديه ، حتى دخلوا على عليّ ، وعنده اولاد الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وام كلثوم ، وعبدالله ابن أخيه جعفر وطائفة من أهله واصحابه ، فقال له : اي عدو الله ألم احسن اليك ؟

قال : بلى !

– فما حملك على هذا ؟

قال : شحذت سيفي اربعين صباحاً وسألت الله ان يقتل به شرّ خلقه !!

فقال : لا أراك الا مقتولاً به ولا اراك الا من شرّ خلق الله .

ثم قال: النفس بالنفس ان هلكت فاقتلوه كما قتلني ، وان بقيت رأيت فيه رأيي .. يا بني عبد المطلب لا ألفيتكم تخوضون دماء المسلمين وانتم تقولون قد قتل امير المؤمنين .. ألا لا يقتلن إلا قاتلي .

وقال لابنه الحسن : انظر يا بني ، ان أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلنّ به فاني سمعت رسول الله يقول : اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور .

فقالت ام كلثوم لابن ملجم : لا بأس على أبي يا عدو الله والله مخزيك ..

فأجابها وهو يبتسم هازئاً : فعلى من تبكين ، والله ان سيفي اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة بأهل مصر ما بقي منهم احد ... وهو يعني ان السم سيقتل علياً .

واقبل جندب بن عبدالله في تلك الساعة يقول : يا امير المؤمنين ، ان فقدناك ولا نفقدك أفنبايع الحسن ؟؟

قال : ما آمركم ولا أنهاكم انتم أبصر .

وامر ، فدنا ولداه الحسن والحسين فقال لهما :اوصيكما، بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تبكيا على شيء ، زوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، واعينا الضائع ، وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصراً واعملا بما في كتاب الله ، ولا تأخذ كما في الله لومة لائم ....

ثم نظر الى محمد بن الحنفية فقال: هل حفظت ما اوصيت به اخويك يا بني؟
قال : نعم .
قال : فاني اوصيك بمثله واوصيك بتوقير اخويك العظيم حقهما عليك ولا تقطع امراً دونهما ، ثم قال لهما : اوصيكما به فانــه شقيقكما وابن ابيكما وقــد علمتما ان اباكما يحبه وقال للحسن: اوصيك بغفر الذنب وكظم الغيظ وصلة الرحم والحكم عن الجاهل والتعاهد للقرآن وحسن الجوار والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكتبت وصيتــه رضي الله عنـــه وجعل يردد : لا إله الا الله ... حتى مات .

فارتسمت الكآبة على الوجوه ، ومد الحزن رواقه فوق الكوفة وقد احس اهلها انهم خسروا بموت امير المؤمنين ركناً قويا من اركان الدين ، وخليفة جباراً في عظمة نفسه ، جباراً في زهده وخلقه ؛ وبطلاً تنحني له رؤوس الابطــال في الميادين .. وخطيباً عظيما لم يقم في ذلك الزمن اعظم منه ، وقائداً شريفاً نبيلاً حمل بعد النبي والخلفاء الثلاثة علم النور والهدى ، يدعو الناس اليه . وقد قام في اذهانهم ان العين لن تقع في جزيرة العرب بعد ذلك على رجل مثل علي . اجل لقد شعر المسلمون في الكوفة ان الحجاز ونجد، والعراق واليمن ستضطرب لتلك الضربة التي ضربها ابن ملجم ، وان مصر والشــام وفيهما الامراء الذين خرجوا عـــن طاعته ، ستبكيان ذلك المسلم العظيم الذي قتـل في المسجد مـن يد خارجي .

ايه عليّ ، لقد مر على موتك زهاء ثلاثة عشر جيلاً ، وانت ملء اذهان الناس في الشرق والغرب ، وذكرك في كل قلب ، وعظماء العالم في كل زمان ، يعلمون اي رجل انت .

* * *

- ١٠٩ -

غسل الحسن والحسين جثة ابيهما امير المؤمنين ، يساعدهما في ذلك ابن اخيه

عبدالله بن جعفر ، وكفن بثلاثة اثواب . ثم دفن والقلوب تخفق في الصدور واللوعة في العيون .

ولم يرجع القوم حتى أمر الحسين فأحضر ابن ملجم وعيناه تنظران إلى الناس نظرات الاستخفاف ، والابتسامة لا تفارق شفتيه . فهم القوم بأن يفاجئوه بالسيوف . ولكنهم خافوا أن يغضب الحسن ، وهو الذي أمر بإحضاره .وكان أبناء علي مطرقين ، وعلى الخدود آثار الدمع . فرفع الحسن رأسه يريد أن يتكلم

فقال ابن ملجم : لقد أقسمت أن لا أعاهد عهداً إلا وفيت به ،واني عاهدت الله عند الحطيم أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما ، فإن شئت خليت بيني وبين معاوية فلك الله علي إن لم أقتله ثم بقيت ، ان ارجع اليك حتى أضع يدي بيدك .

فقال الحسن : لا والله حتى تعاين النار .

وأومأ إلى الغلمان فجاءوا بنار في وعاء ، والجاني اللعين لا يعبأ بمايسمع ،ولا يبالي بما يراه .

حتى قام الحسين ، ومحمد بن الحنفية ، وعبد الله بن جعفر ، فقالوا : نطلب أن يسلم القاتل الينا لتشتفي أنفسنا منه . وانتظروا جواب الحسن فلم يجب ، وكان سكوته دليلا على رضاه .

فعمد عبد الله بن جعفر إلى خنجره ، ودنا من القاتل وعيناه تتقدان ،ثم قال له : اصبر يا عدو الله إن كنت قادراً على الصبر .

وقطع بخنجره يده اليمنى وهو ينظر إلى الخنجر يمزق لحمه ولا يطرق له جفن ولا يبدو على وجهه دليل واحد من دلائل الألم .. وقطع الخنجر يده الأخرى وهو لا يقول كلمة .

ثم قطعت رجله اليسرى فلم يجزع ، ولم يلبث عبد الله حتى قطع الاخرى والناس لا يسمعون له صوتاً !! وكأن النفوس لم تشتف بما جرى .فألقى القوم إلى النار ، بقطعة من الحديد ، وصبروا حتى تلظت لهباً .

فتناولها عبد الله وكحل بها عينيه .. فجعل يقول : انك لتكحل عيني عمك

علي بمكحول محص... ولم يجزع ..!

وقد رأى الناس ، في تلك اللحظة ، مشهداً غريباً لم يروا مثله من قبـــل . رأوا عينيه تذوبان ، وشفتيه تنفرجان عن ابتسامة لا لون لها . ثم سمعوه يقول: « اقرأ باسم ربك الذي خلق » وهي سورة من سور القرآن حتى أتى إلى آخرها دون أن يتلجلج لسانه او ينسى منها كلمة .

وهموا بعد ذلك بأن يقطعوا لسانه ، فخاف ، فقالوا له : قطعنا يديك ورجليك ، وسملنا عينيك يا عدو الله فلم تخف فلما أردنا ان نقطع لسانك خفت.

قال : لست خائفاً ولكني اكره ان اكون في الدنيا فواقاً لا اذكر الله .

فقطعوا لسانه ، ثم احرقوه ، وجلال الموت يبسط جناحيه في فضاء الكوفة والناس يتحدثون بأمر الخلافة ، وقد عولوا أن يبايعوا الحسن بن علي .

* * *

- ١١٠ -

عندما بلغ عائشة قتل علي ، قالت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عيناً بالاياب المسافر

وقال ابن أبي مياس المرادي ، وهو من قوم ابن ملجم :

فنحن ضربنا يا لك الخير حيدراً ... أبا حسن مأمومة فتفطرا

ونحن خلفنا ملكه من نظامه ... بضربة سيف إذ علا وتجبرا

ونحن كرام في الصباح اعزة ... إذا المرء بالموت ارتدى وتأزرا

وقال ايضاً:

ولم ار مهراً ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام بين عرب ومعجم

ثلاثة آلاف وعبد وقينـة ... وضرب علي بالحسام المصمم

فلا مهر اغلى من علي وإن غلا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وقال ابو الأسود الدؤلي في قتل علي:

الا ابلغ معاوية بن حرب ... فلا قرت عيون الشامتينا

افي شهر الصيام فجعتمونا … بخير الناس طراً اجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا … ورحلها، ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها … ومن قرا المثاني والمبينا
إذا استقبلت وجه ابي حسين … رايت البدر راع الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت … بأنك خيرها حسباً ودينا

وقال بكر بن حسان الباهري :

قل لابن ملجم والأقدار غالبة … هدمت للدين والاسلام اركانا
قتلت افضل من يمشي على قدم … واعظم الناس اسلاماً وايمانا
واعلم الناس بالقرآن ثم بما … سن الرسول لنا شرعاً وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره … اضحت مناقبه نوراً وبرهانا
وكان منه، على رغم الحسود له … مكان هرون من موسى بن عمرانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر … فقلت سبحان رب العرش سبحانا
اني لأحسبه ما كان من انس … كلا ولكنه قد كان شيطانا
فلا عفا الله عنه سوء فعلته … ولا سقى قبر عمران بن حطانا
يا ضربة من شقي ما اراد بها … الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
بل ضربة من غوي اوردته لظى … وسوف يلقى بها الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصداً بضربته … الا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

وكان عمر علي ثلاثاً وستين سنة وخلافته خمسة اعوام الا ثلاثة اشهر .

* * *

ظرة عامة

الناس يذكرون عليا ، رضي الله عنه ، منذ رافق النبي العربي الكريم إلى ذا اليوم ، كما يذكرون نوابغ الأمم واعاظم الرجال .

وقد كتب المؤرخون اخباره في كتبهم ووضعت الفصول الطويلة ، في سيرة

حياته وذكر اخلاقه وعلمه وبسالته وعدله حتى انك قد لا تجد اليوم كتابا في البلاغة والانشاء الا وفيه للامام العظيم اثر من آثاره التي لا تبلى .

كان زاهداً كما قرات ، وعادلا باسلا لا يتراجع عند الشدة ولا يلوى له عود وكان حراً عزيز النفس ، بعيداً عن الأكاذيب والرياء ، لا يعمد إلى وسيلة فيها ذل ، ولا يبيع آخرته بدنياه .

وكان في اخلاقه ، مثلاً عاليا نقله اهل ذلك الزمان ، إلى ابناء هذا الجيل وسينقله هؤلاء الى الأجيال التي ستجيء فيما يكتبون عنه .

وهو السخي الجواد الكثير الرفق بالرعية يبذل المال كل يوم للمعوزين الذين تكبهم القضاء ، ويوصي عماله بأن يعرفوا حق رعيته فلا يضربوا رجلاً في جباية، ولا يبيعوا للناس رزقا ولاكسوة ...

وذكر المسعودي ، انه لم يلبس في ايامه ثوبا جديدا ، ولا اقتنى ضيعـــة ولا ربعا ، وكان جليلا له تأثيره وهيبتـــه ، حتى ان جلساءه لم يجسروا مرة على ان يبتدئوا بقول .

وقد اعترف له كبار المسلمين ، ووجوه الصحابة والقواد بالشجاعة والجراة وآثروه بالعلم والفضل والاخلاق ، وعظمة النفس ، على جميع اهل النفوذ والجاه ولكن بعضهم كان يتمثل بقول ابن عباس ، وهو ابن عم علي :

« يا امير المؤمنين ، انك رجل شجاع ولست صاحب راي » .

وعلي ، هو الذي امر ابو الاسود الدؤلي بوضع علم النحو ، ووضع له اساسه، وابو الاسود ، هو الذي تولى القضاء في البصرة بأمر امير المؤمنين .

قال ابو الاسود :

« دخلت على امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ، فوجدت في يده رقعة ، فقلت : ما هذه يا امير المؤمنين ؟ قال : اني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء « وهو يعني الاعاجم » فأردت ان اضع شيئا يرجعون اليه ، ثم القى إلي الرقعة وقد كتب فيها :

الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما انبأ عن المسمى، والفعل ما انبيء

به ، والحرف ما افاد معنى ، وقال لي : انح هذا النحو واضف اليه ماوقع اليك واعلم يا ابا الاسود ان الاسماء ثلاثة ، ظاهر ومضمر ، واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل الناس فيما ليس بظاهر ولا مضمر .

وهو يريد بذلك الاسم المبهم .

وانك لتقرا في كتاب « نهج البلاغة » التي جمعت فيه رسائله واقواله وخطبه ما لا تقرؤه في كتاب آخر .

وهذا معناه ، ان عليا ، كان فيلسوف العرب ، وعالمها الاكبر ، وخطيبها العظيم ، الذي لم تعرف منابر الجزيرة كلها خطيبا مثله .

بعض اقواله

قال رضي الله عنه ، يوم صرع الموت زوجته فاطمة ابنة النبي :

«السلام عليك يا رسول الله . عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك ، قل يا رسول الله عن صفيتك صبري ، ورق عنها تجلدي ، الا ان لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز .

وسدتك في قبرك ، وفاضت بين نحري وصدري نفسك ، انا لله وانا اليه راجعون ، فلقد استرجعت الوديعة واخذت الرهينة .

اما حزني فسرمد ؛ واما ليلي فمسهد ، الى ان يختار الله لي دارك التي انت بها مقيم وستنبئك ابنتك بتضافر امتك على هضمها فاسألها واستخبرها الحال هذا ولم يطل العهد ولم يخل منك الذكر ، والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فان انصرف فلا من ملالة وان اقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين » .

وقال يذم اهل البصرة يوم اتبعوا عائشة :

كنتم جند المراة ، واتباع البهيمة « وهو يعني الجمل » رغا فأجبتم وعقر فهربتم ، اخلاقكم دقاق ، وعهدكم شقاق ، ودينكم نفاق ، المقيم بين اظهركم

تهن بذنبه ، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه ، بلادكم انتن بلاد الله تربة
قربها من الماء ، وابعدها من السماء ، وبها تسعة اعشار الشر ، كأني أنظر الى
يتكم هذه قد طبقها الماء حتى ما يرى منا الا شرف المسجد كأنه جؤجؤ طير
لجة بحر .

وكتب يوماً الى معاوية : ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة امرالامة،
بغير قدم سابق ولا شرف باسق ، لقد دعوت الى الحرب ، فدع الناس جانباً
واخرج اليّ واعفُ الفريقين من القتال . فأنا ابو حسن قاتل جدك وخالك
واخيك شدخاً يوم بدر ، وذلك السيف معي ، وبذلك القلب ألقى عدوي ..
ما استبدلت ديناً، ولا استحدثت نبياً، واني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين،
ودخلتم فيه مكرهين . زعمت انك جئت ثائراً بعثمان ، ولقد علمت حيث وقع
دم عثمان فاطلبه من هناك ان كنت طالباً ، فكأني رأيتك تضج من الحرب اذا
عضتك ضجيج الجمال بالانتقال ، وكأني بجماعتك ، تدعوني ، جزعا من الضرب
المتتابع والقضاء الواقع ، الى كتاب الله ، وهي كافرة جاحدة ، او مبايعة
حاقدة ...

حكمته

ونحن نكتب لك الان ، شيئاً من حكمته وامثاله :

السلطان وزعة الله في أرضه .

رسولك ترجمان عقلك ، وكتابك أبلغ ما ينطق عنك .

لكل امرىء في ماله شريكان ، الوارث والحوادث .

ما ظفر من ظفر الاثم به ، والغالب بالشر مغلوب .

عاتب اخاك بالاحسان اليه ، واردد شره بالانعام عليه .

ما اكثر العبر واقلّ الاعتبار .

ما قال الناس لشيء طوبى له ؛ الا وقد خبأ له الدهر يوم سوء .

الناس ابناء الدنيا ، ولا يلام الرجل على حب امه .

مودة الاباء قرابة بين الابناء والقرابة الى المودة أحوج من المودة الى القرابة .

من كتم سره كانت الخيرة بيده .

من شاور الرجال شاركها بعقولها

ترك الذنب أهون من طلب التوبة .

يوم المظلوم على الظالم اشد من يوم الظالم على المظلوم .

لا تجعلوا علمكم جهلاً ويقينكم شكا .

حسد الصديق من سقم المودة .

اذا كثرت المقدرة قلّت الشهوة .

من اشرف افعال الكريم غفلته عما يعلم .

كم من اكلة منعت اكلات ...

من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومنّ من أساء به الظن .

ما اختلفت دعوتان الا كانت احداهما ضلالة .

الطمع رقّ مؤبد .

يا ابن آدم ، كن وصي نفسك في مالك ، واعمل فيه ما تؤثر ان يعمل فيه من بعدك .

احسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم .

من كساه الحياء ثوبه لم يرَ الناس عيبه .

في تقلّب الاحوال علم جواهر الرجال .

افضل الاعمال ما اكرهت نفسك عليه .

المرأة شر كلها ، وشر ما فيها انه لا بدَّ منها

آلة الرياسة سعة الصدر .

اذا علمتم فاعملوا ، واذا تيقنتم فاقدموا .

اذا ارذل الله عبداً احظر عليه العلم .

وكتب الى جيش أرسله الى حرب : أجعلوا لكم رقباء في مغاور الجبال ومناكب الهضاب لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن .

اعلموا ان مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم .

اياكم والتفرق ، فاذا نزلتم فانزلوا جميعاً واذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً .
اذا غشيكم الليل فأجعلوا الرماح كفة ولا تذوقوا النوم الا غراراً .
وكانت خلافته خمس سنين الا ثلاثة اشهر وتوفي وهو في الثالثة والستين من العمر .

- * * * -

- ١١١ -

بايع الناس في الكوفة ، بعد قتل علي، ولده الحسن . واول من بايعه ،قيس بن سعد الانصاري . قام فقال : ابسط يدك ابايعك على كتاب الله وسنة رسوله وقتال اعدائك الذين احلوا ما لم يحله الله .

فقال الحسن : على كتاب الله وسنة رسوله فانهما يأتيان على كل شرط . ثم جعل يقول والناس يبايعون : انكم مطيعون ، تسالمون من سالمت ، وتحاربون من حاربت .

فخاف الناس ، وتهامس الذين يميلون الى مبدأ الخوارج قائلين : ليس الحسن بصاحب لنا ؛ وما يريد الا القتال .

وبلغ الخبر معاوية، فملأت الغبطة نفسه، وكان واثقاً بان الحسن ، لايستطيع ان يثبت في المجال: الذي ثبت لهفيه أبوه عليّ .وخطر له ان يظهر بمظهر جديد. فخرج من دمشق يريد فلسطين، ووراءه طائفة من قواده وأركان حربه ،المخلصين له ، المدافعين عنه

فلما انتهى الى بيت المقدس ، قام اهلها واولئك القواد يدعون الناس الى ان يبايعوه بالخلافة . فعلوا ذلك باشارة منه ... وكان القوم من قبل ، قد بايعوه في الشام بعد اجتماع الحكمين . وذكر بعضهم ، انهم كانوا يدعونه الامير قبل قتل عليّ ، فلما قتل هذا ، دعي بأمير المؤمنين .

وبذل دهاءه كله في ذلك الزمن ، ليستقلّ بالسلطان ، وينحي آل علي بن ابي طالب ، عن العرش .. بل كان همه ان ينحي بني هاشم عن الحكم ، ويحول بينهم وبين التفكير في الخلافة.. ! ثم لم يلبث حتى تمادى في طمعه، ،أمعن في الجرأة ،

فخطر له ان يجعل الملك لذريته كما هي الحال في دولة الروم وهي بدعة في الاسلام لم تخطر قبله لواحد من الخلفاء الاربعة الذين تقدموه ·

واي وسيلة يستطيع معها معاوية ان يستأثر بالامر ؟ ان الدهاء اذا لم يرافقه السيف لا يكفيه ... فمن الرأي ان يفاجىء بسيفه ذلك الخليفة الجديد الذي بايعوه في العراق بعد قتل ابيه .. وحسبه ، ان لم تتلاحم السيوف ، انه يهدده بتقويض اركان خلافته .

يزحف بجيشه الى العراق ، ويدعو الحسن الى البراز ، فاذا تردد فهو الخليفة الضعيف الجبان الذي لا يحسن الاحتفاظ بالملك ؛ واذا برز الى الساحة حاملاً سيفه ، حاربه معاوية في نهاره وليله ، حتى يصرع رجاله واحداً بعد واحد او يستسلم اليه .

ونضجت هذه الفكرة الجريئة في دماغه ، فجعل يمهد اسبابها ، وهو في فلسطين ، وطاف رجاله في الاحياء يندبون الناس للقتال ، والناس يطيعون ، وقد طابت لهم الحرب تحت لواء خليفة الشام العظيم الداهية . ومعاوية ، من اولئك الافراد النوابغ ، الذين يعرفون كيف يستغلون الموقف ، ويمشون في طريق المجد . يخطر له خاطر ، فيبذل الدهاء والمال ، ثم يبذل دماء الرجال ، ليستقيم له ، وهو في كل ذلك لا يتردد ولا يتراجع الى الوراء .. قلب من الحديد ، في مواقف الروع ، وارادة ثابتة لا تلين .. وطموح الى العلياء لم يعرف المؤرخون له حداً .

معاوية ، داهية العرب ..وانها لكلمة حق، تناقلتها العرب في ذلك الزمان، ونقلتها الكتب الى هذا اليوم . حتى ان بني هاشم جميعهم ، وشيعة علي جميعاً ، اعترفوا بدهاء معاوية ، ورحابة صدره ، ونبوغه في السياسة والحلم . كريم جواد عند الحاجة ، لايذكر معه حاتم الطائي ، كبير في مطامعه وعظمة نفسه ، يضع الشدة في موضعها واللين في موضعه ، وشديد المراس بطاش ، اذا اكرهته غايته على البطش وخانه الدهاء . ولكن سيد بني امية ، كان رجل دنيا ؛ كما ذكرنا ، لا رجل دين .

* * *

كان اربعون الفاً من رجال امير المؤمنين علي،قد بايعوه على الموت ، كماقرأت في الجزء السابق . وكان يهمّ ، قبل موته ، بالزحف معهم الى بلاد الشام . فلما قتل وبويع الحسن ، انتهى اليه ان معاوية خرج الى فلسطين ، لأمر لم يعرفه غير رجاله . ثم بلغ الحسن والناس ، في الكوفة ، انه رجع الى دمشق عاصمة ملكه وانه يتهيأ للمسير بجيشه الى العراق ، وهو يريد الحرب .

ومرت خمسة اشهر على خلافة الحسن ، فقيل له : هـــذا معاوية قد أقبل . فأرسل مناديه ينادي :

سيوفكم يا انصار امير المؤمنين فقد زحف اليكم جيش الشام . فلبى الجنود النداء ، ومشوا تحت لوائه .. وفيهم بعض المترددين الذين لا وفاء لهم ولايثبتون على امر .. وذلك كان شأن اهل الكوفة واهل البصرة يظهرون الطاعة ويحملون السيوف ثم يتراجعون وهم في الطريق .. !! ثم يدعون الى الفتنة ، فاذا استعرت نارها ، خرجوا من صفهم إلى صف آخر ، أو اعتزلوا !! وتلك شيمة الجبناء الذين صغرت نفوسهم ، وفسدت اخلاقهم ..

ساروا تحت لواء الحسن ، يريدون لقاء معاوية ، وكان قد نزل بلداً يقال له مسكن . حتى انتهوا الى المدائن ، فجعل الحسن ، عبيدالله بن عبـــاس ، على مقدمته ، في اثني عشر الفاًمن الرجال، وأمره بان يتقدم الجيش فجعل عبيدالله بدوره ، قيس بن سعد بن عبادة الانصاري ، على الطلائع ، وخرج من المدائن ليلقى معاوية ، والحسن في أثره . وقيس بن سعد ، من دهاة الناس ، وابطال العرب .

وكان الحسن ، في ايام خلافة علي ، لا يحب اهل العراق ، بل كان يخافهم لاسباب كثيرة أهمها انهم خانوا اباه ، وترددوا اكثر من مرة ، في الطاعة والوفاء له . والخوارج منهم ، وهم الذين رأوا ذلك الرأي في الاسلام ، وخرجوا مـن الكوفة يوغرون الصدور على علي الذي رضي بالتحكيم . وكان قيس بن سعد ، يكره امارة معاوية ، ولا يطيق ان يتولى ابن ابي سفيان ، امور الاسلام . فلما

انقضت بضعة ايام ؛ على خروجه في الطلائع ، مع عبيدالله بن عبـــاس ، خرج منادٍ ينادي في المدائن : ان قيساً ابن سعد قتل فانفروا ....

وهو خبر لا صحة له ، اراد بعضهم من اصحاب الخلق الفاسد ، ان ينشره في الجيش لغرض له ، ولأمر يريده الله .. فنفر الجيش ، ثم اقبل بعضهم ينهبون متاع البعض الآخر حتى أتواخيمة امير المؤمنين فنهبوا ما فيها ..! وكان تحته بساط فنازعوه اياه !! فرأى الخليفة ابن الخليفة ان الامر قد خرج من يده، وان اولئك الذين بايعوا اباه على الموت، بايعوه بالشفاه .وقام فدخل المقصورة البيضاء في المدائن وكان امير المدائن ، سعد بن مسعود الثقفي ، عم المختار بن ابي عبيد. فقال له المختار ، وهو شاب :

هل لك في الغنى والشرف ؟

قال : وما ذاك ؟

قال : تستأمن بالحسن الى معاوية !

فقال له : عليك لعنة الله .. أثب على ابن بنت رسول الله وأوثقه ؟؟ بئس الرجل انت .

ودخل على الحسن فقال : مرني يا امير المؤمنين بما تشاء .

– وبماذا يأمر امير المؤمنين وقد دبت الفرقة في الصفوف . دعني انظر في الامر من جميع نواحيه .

فانصرف ، فكتب الحسن الى معاوية ، كتاباً يسأله فيه ان يعطيه ما في بيت مال الكوفة ، ومبلغه خمسة الاف الف « خمسة ملايين » وخراج دارابجرد من بلاد فارس ، وان لا يشتم علياً ، وجاء في آخر كتابه : « ان انت اعطيتني هذا فأنا سميع ومطيع وعليك ان تفي لي بـه . وبعث اليـــه بالكتاب والناس لا يعلمون .

ثم دعا أخاه الحسين ، وابن عمه عبد الله بن جعفر وقال لهما : لقد راسلت معاوية في الصلح !

فقال الحسين : انشدك الله ان لا تصدق أحدوثة معاوية وتكذب احدوثة أبيك .

قال : اسكت فانا اعلم بالامر منك .

وكان معاوية ، من ناحيته ، قد ارسل الى الحسن ، عبدالله بن عامر ، وعبد الرحمن بن سمرة ، ومعهما صحيفة بيضاء عليها خاتمه ، وكتب اليه : اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت اسفلها ما شئت .. وكان ذلك قبل وصول كتاب الحسن اليه .

فلما مثل الاثنان بين يدي الحسن اشترط اضعاف الشروط التي كتبها الى معاوية ولكن معاوية كان قد احتفظ بكتابه ، ولم يجبه الى الكف عن شتم علي .

فطلب الحسن ان لا يشتم وهو يسمع ، فأجابه الى ذلك ، ولكنه لم يفِ له به ..

وخطب الحسن في الناس قائلاً : «انا والله ما يثنينا عن اهل الشام شك ولا ندم ، وانما كنا نقاتلهم بالسلامة والصبر فأمست السلامة عداوة والصبر جزعاً ، سرتم الى صفين ودينكم امام دنياكم ، ولكنكم أصبحتم اليوم ودنياكم امام دينكم ، وانكم اليوم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهروان تطلبون بثاره... الا وان معاوية دعانا الى امر ليس فيه عز ، فان أردتم الموت رددناه عليه ، وحاكمناه الى الله عز وجل بظبا السيوف ، وان أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا..»

فناداه الناس من كل جانب : البقية ، البقية ، وامض الصلح ..

فلما عوّل على تسليم الامر الى معاوية ، خطب ثانية فقال : ايها الناس ، انما نحن امراؤكم واهل بيت نبيكم الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .. وجعل يعيدها حتى لم يبقَ رجل الا بكى .

وخرجت الرسل بعد ذلك تحمل الخبر الى معاوية ، فأقبل معاوية مع جيش الشام والتقى الاميران امير المؤمنين الهاشمي وامير الشام الاموي وتم الصلح . ثم سلم ابن علي الامر الى ابن ابي سفيان .

وكانت خلافة الحسن ، على قول بعضهم ، خمسة اشهر وبضعة عشر يوماً ، وستة أشهر وبضعة ايام على قول البعض الاخر . وهنالك من يقول انها كانت سبعة اشهر وبضعة ايام ؛ وان التسليم الى معاوية جرى في شهر جمادى الاولى من السنة الحادية والاربعين .

ورأى معاوية ان يتعجل في امره ، فسأل الحسن ان يبايعه على مرأى من القوم ، ففعل ، ومشى امير المؤمنين الجديد ، الى الكوفة فبايعه الناس .

ثم بدأ الدهـــاء .. فقال معاوية للحسن : وقيس بن سعد الذي جعلتـــه على الطلائع ؟

قال : يبايع .

وكتب اليه يأمره بالدخول في طاعة معاوية .

فقام قيس في الناس فقال : ايها الناس، اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة او القتال مع غير امـــام ، فقال بعضهم : بل نختار الدخول في طاعـة امام ضلالة .. وبايعوا معاوية .

فانصرف قيس فيمن تبعه من القوم ، وقد عاهدوه على قتال معاوية ، حتى يشترط لشيعة علي ، على دمائهم واموالهم وما اصابوه في الفتنة .

فلما انتهى الخبر الى معاوية قال : سننظر في امره ، في وقت آخر ، ثم قال لعمرو بن العاص ، وهو معه : اترون ان نبقى في الكوفة ؟

قال : نبقى حتى يخرج منها الحسن واهل بيته وانا ارى ان تخطب اليوم في الناس ثم تأمر الحسن ان يخطب بعدك ..

– لماذا ؟

– ليرى القوم انه عاجز عن الخطابة .

فخطب معاوية ثم امر الحسن بان يفعل مثلما فعل .

فقام ذلك الخليفة المنكود الحظ فحمد الله ثم قال : ايها الناس ، ان الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وان لهذا الامر مدة ، والدنيا دول وان الله قال لنبيه : « ولعله فتنة لكم ومتاع الى حين . »

فقال له معاوية : اجلس .

وحقدها على عمرو بن العاص وكان يقول له : هذا من رأيك .

ولم يلبث الحسن حتى رحل الى المدينة مع جميع الذين ينتمون اليه ، وقام الناس حوله يذكرون اباه ويبكون . وخطر لأحدهم ساعة الرحيل ، ان يقول له : ما حملك على ما فعلت ؟

قال : كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة لا يثق بهم أحد أبداً إلا غلب .
ليس فيهم واحد يوافق آخر في رأي انهم مختلفون لا نية لهم في خير وشر ،
لقد لقي أبي منهم أموراً عظاماً ، فليت شعري لمن يصلحون بعدي والكوفة
أسرع البلاد خراباً ؟

وبعد خروجه من الكوفة ، لقيه رجل فقال : يا مسوّد وجوه المسلمين . . .
فقال : لا تعذلني فان رسول الله رأى في المنام بني امية ينزون على منبره
رجلاً فرجلاً فساءه ذلك ، فانزل الله عزّ وجلّ : «انا اعطيناك الكوثر» ، وهو
نهر في الجنة و «انا أنزلناه في ليلة القدر» الى قوله تعالى :
« خير من ألف شهر » يملكها بعدك بنو امية .

وخلا الجو لمعاوية ، فكتب الى قيس بن سعد يدعوه الى الطاعة ، وبعث اليه
بصحيفة بيضاء عليها خاتمة ليكتب فيها ما يشاء . وكذلك فعل الداهية مع
الحسن .

فقال له عمرو بن العاص : خير لك ان تقاتل الرجل .
قال : على رسلك ، فانا لا نقتلهم حتى يقتلوا مثل عددهم من اهل الشام
فليس في العيش خير بعد ذلك .. اني والله لا اقاتله ابداً حتى لا اجد بداً
من قتاله ..

فلما انتهى كتابه الى قيس ، اشترط له ولشيعة علي الامان ، على ما اصابوا
من الدماء والاموال ولكنه لم يسأل معاوية ان يعطيه مالاً . وتلك شيمة النفس
الابية التي لا يحطها القدر ، وان جار ، عن مواقف العز .

فاعطاه معاوية ما سأل ، دون ان يتردّد في الأمر ، وكان يقول لمن حوله
من قواد وانصار : ان قيساً يساوي الفاً من الرجال .

ودخل قيس ومن معه في الطاعة ، وكان القوم في ذلك الزمن ، يعدون
قيساً ، ومعاوية وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وعبدالله بن بديل الخزاعي
دهاة العرب ، وذوي الرأي . وقيس وابن بديل من انصار علي ، اما المغيرة
فقد كان معتزلاً بالطائف .

على ان معاوية ، لم يكن في نظر الوجوه من الصحابة والانصار ، اميراً

للمؤمنين ، بل كان ملكاً ، بدليل ما قاله له سعد بن أبي وقاص .

دخل عليه يوماً فقال : السلام عليك ايها الملك ! فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت : يا أمير المؤمنين . قال : أتقولها جذلان ضاحكاً ؟ والله ما احب اني وليتها بما وليتها به ..

* * *

- ١١٣ -

كان فروة بن نوفل الاشجعي ، وهو من الخوارج ، قد اعتزل حرب علي ، ولجأ مع خمسمائة من الرجال ، الى شهر زور . فلما قتل علي . وسلم الحسن الامر الى معاوية قال لمن معه : لقد جاء الان ما لا شك فيه فسيروا الى معاوية فجاهدوه . فأقبلوا وعليهم فروة ، حتى نزلوا النخيلة وهي عند الكوفة .

وكان الحسن قد خرج يريد المدينة ، كما قرأت ، فكتب اليه معاوية يدعوه الا قتال القوم . وقد اتاه رسوله وهو قريب من القادسية . فكتب اليه يقول : لو آثرت ان اقاتل احداً من اهل القبلة لبدأت بقتالك .. اني تركتك لصلاح الامة وحقن دمائها . فبعث اليهم معاوية بطائفة من اهل الشام . ولكن الخوارج هزموا القوم ، فرجعوا الى الكوفة والذعر يملأ القلوب .

فدعا معاوية وجوه الكوفة فقال : والله لا امان لكم عندي حتى تقاتلوهم . فخرجوا يريدون القتال ، ووقعت العين على العين .

فقالت الخوارج : أليس معاوية عدونا وعدوكم ، دعونا حتى نقاتله فان اصبناه كفيناكم هذا العدو وان اصابنا كفيتمونا .

قالوا : لا بد لنا من الحرب فمعاوية لا يلين .

فأخذ بنو اشجع صاحبهم فروة فحادثوه ونصحوا له فلم يرجع . فحملوه قهراً وادخلوه الكوفة . فجعلت البقية من الخوارج ، عبدالله بن ابي الحوساء ، وهو من طيء ، اميراً عليها ، واشتعلت النار . فقتل ابن ابي الحوساء وتفرق رجاله ، ثم ولوا حوثرة بن وداع بن مسعود الاسدي ودعوه الى القتال . وكان ابو حوثرة

في الكوفة ، وهو شيخ كبير ، وعنده حفيده ابن حوثرة ، وهو غلام صغير .

فقال معاوية للشيخ : اخرج الى ابنك فعله يرق اذا رآك ويترك القتـال . فخرج اليه وحدثه بالامر فأبى ان يغمد السيف ، فقال له : الا اجيئك بابنك فلعلك اذا رأيته ،كرهت فراقه ؟

قال : انا الى طعنة من يد كافر برمح اتقلب فيه ساعة اشوق مني إلى ابني !.

فرجع ابوه فخبر معاوية ، فسير اليـه عبدالله بن عوف الاحمر في الفين ؛ وخرج ابو حوثرة معه ، فلما انتهو الى الميدان، دعا أبو حوثرة ابنه الى البراز..

فقال : يا ابت ، لك في غيري سعة... وركض فرسه فبارز عبدالله .فطعنه عبدالله فقتله ثم قتل اصحابه لم يبق منهم غير خمسين رجلاً دخلوا الكوفـــة استخفوا في المنازل . وبينما في مجلسه ، وقد نقلوا اليه اخبـــار الظفر ، دخل رجل يستأذن على امير المؤمنين .. فإذن له معاوية قائلاً : من انت ؟

قال : شبيب بن بجرة !

فساد الصمت، وحبست الانفاس .

ولكن معاوية لم يفطن لاسمه ، فقال : ومن هم قومك ؟

– بنو اشجع وانا وابن ملجم قتلنا عليا ..

فوثب الخليفة من مجلسه مذعوراً حتى دخل منزله ثم بعث الى بني أشجـــع يقول لهم: لئن رأيت شبيباً مرة ثانيةاو بلغنى انه ببابي لأقتلنكم جميعاً ..اخرجوا من بلدكم .. ولكنهم لم يستطيعوا ان يقبضوا عليه ليخرجوه ، فقد كان يخرج كلما جنّ الليل فلا يلقى احداً الا قتله .

حتى ضجت الكوفة ، وطلبته الخيل اكثر من مرة فلم يقفوا له على اثر .

فأوصى معاوية رجاله بان يكونوا جميعهم عيوناً عليه ،ثم ولى عبدالله بن عمرو بن العاص ، امر الكوفة . فدخل عليه المغيرة بن شعبة فقال : أي شيء اتى بك يا ابن شعبة ؟

– أتيت اسأل امير المؤمنين أن ينظر في امر الكوفة .

قال : من اي وجه ؟

– لقد جعلت عبدالله بن عمرو اميراً على الكوفة وليس هذا من حسن الرأي في سياسة الملك .

فابتسم قائلاً : هذا معناه انك اشتهيت الولاية .

قال : قضيت معظم ايامي اميراً فليس بي شهوة الى ما ذكرت ، ولكني كرهت ان تقذف بنفسك الى مواقف الخطر وانت الداهية التي تسترشد الرجال برأيك .

– وكيف ذلك ؟

–استعملت عمرو بن العاص على مصر ، وولده عبدالله على الكوفة فأنت في هذا بين نابي الاسد ..

فأطرق ملياً ثم قال : اصبت وكنت انا المخطىء

ثم قال : لقد عزلت عبدالله وليتك .

فانصرف عبدالله بن عمرو فخبر أباه ، فاتى عمرو فدخل على معاوية فقال : ماذا صنعت يا امير المؤمنين وليت المغيرة امر الخراج ؟

قال : اجل !

– ولكنه سيغتال المال ولا تستطيع ان تأخذه منه .. أستعمل على الخراج رجلاً يخافك ويتقيك .

قال : اصبت . وبعث اليه يعزله عن الخراج ويستعمله على الصلاة . فلما انتهى اليه الامر ، بلغه في الوقت نفسه ، ان شبيباً ابن بجرة برز الى الساحة في موضع قريب من الكوفة يقال له الطف . فأرسل اليه خيلاً عليها خالد بن عرفط فقتله وقتل اصحابه . وكان ذلك في السنة الحادية والاربعين .

* * *

– ١١٤ –

عندما صالح الحسن بن علي معاوية ، وثب رجل يدعى حمران بن ابان على البصرة فأخذها . وكان زياد ابن ابيه على فارس ، وقد ارسله اليها علي . فدعا

..رية بسر بن ابي أرطاة فقال له : لقد جعلتك اميراً على البصرة ، فاذا اتيتها ..تم علياً واقتل بني زياد .

فلما قدم البصرة ، خطب على منبرها وشتم علياً ثم قال : من يعلم اني صادق ..صدقني او كاذب فليكذبني .

فقال ابو بكرة ؛ وهو شقيق زياد لأمه : اللهم انا لا نعلمك الا كاذبا . فأمر .. يقبضوا عليه. فقام ابو لؤلؤة الضبي فمنعه، وللاثنان منزلة في البصرة .فرأى .. ان يتناسى امره ، واقام بالبصرة ينتظر امر معاوية .

فأرسل معاوية الى زياد : ان في يدك مالا من مال الله فأبعث ما عندك منه.
فكتب اليه زياد : لم يبق عندي ، ولقد صرفت ما كان عندي في وجهه ..تودعت بعضه لنـازلة ان نزلت ، وحملت ما فضل الى امير المؤمنين رحمة .له عليه .

فأجابه قائلاً : نأمرك بالمجيء الينا لننظر فيما وليت ، فان استقام بيننا الامر ..عث الى بلدك فامتنع زياد في فارس ولم يعبأ به . وكان له بالبصرة ثلاثة من ..يه هم عبد الرحمن وعبيد الله وعباد ، فأخذهم ابن ابي ارطاة وكتب اليه : ان لم ..تثل امر امير المؤمنين قتلت بنيك ..

فكتب اليه : لست تاركاً مكاني حتى يحكم الله بيني وبين صاحبك وانقتلت ..دي فالمصير الى الله ومن ورائنا الحساب وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون.
..عول بسر على قتلهم . فتصدى له ابو بكرة فقال :اخذت ابناء اخي بغير ذنب ليس عليهم ولا على ابيهم سبيل ؟

قال : وكيف ذلك ؟

قال : صالح الحسن معاوية على ما اصاب اصحاب علي حيث كانوا .

فأصرّ على القتل ، فاستمهله اياماً حتى يأتيه بكتاب من معاوية . ثم ركب ابو بكرة الى الكوفة. فلما دخل على معاوية قال له والمجلس يغص بوجوه الناس:
يا معاوية ، ان الناس لم يعطوك البيعة على قتل الاطفال ...

قال : وما ذاك ؟

قال : ابن ابي ارطاة يريد قتل ابناء اخي زياد .

فكتب اليه يأمره بان يكف عنهم ، وحمل ابو بكرة كتـابه راجعاً حتى انتهى الى البصرة في اليوم الذي جعله بسر موعداً للقتل. وكان القوم قد اجتمعوا ليمتعوا العيون بذلك المشهد الغريب الذي تسيل فيه دمـاء الاطفال الابرياء . فنزل ابو بكرة عن فرسه وكبرّ وكبرّ بعض الناس . ثم أقبل يسعى على رجليه فادرك بسراً قبل ان يقتلهم . فدفع اليه الكتاب ، فأطلقهم .

وكان معاوية ، قد كتب الى زياد ، يتهدّده بعد قتل علي . فقام زياد خطيباً فقال : العجب من ابن آكلة الاكباد ورئيس الاحزاب ، يتهدّدني وبيني وبينه الحسن بن علي في سبعين الفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم ؟ اما والله لئن اتاني ليجدني أحمر ضراباً بالسيف .

وقبل ان تنتهي السنة الحادية والأربعون ، خطر لمعاوية ان يعزل ابن ابي ارطاة عن الولاية ، ويوليّ عتبة بن ابي سفيان . وذلك لانه كان يخاف ان يوقد بسر في البصرة نار الفتنة . فأتاه عبدالله بن عامر فقـــال : بلغني انك تريد ان تولي عتبة .

قال : هذا ما خطر لي .

قال : ان لي بالبصرة ودائع واموالاً ، فان لم تولّني انصرفت . . .

فرأى من الحكمة ، وقد بايعه الحسن ووجوه الناس ، ان يخمد نار الطمع التي تتأجج في صدور اصحابه ، فولاه . ورجع الى دمشق وقد دخلت السنة الثانية والأربعون . .

– ☆ ☆ ☆

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

سعر الجزأين ٢٠ ل.ل.